

الإسهامات الإيطالية

في دراسة مص في عصر

محمّد
علي باشا

مجموعة مقالات المختارة لباحثين إيطاليين

ترجمة: عماد البغدادي



المركز الوطني للأبحاث والدراسات
المركز الوطني للأبحاث والدراسات

المشروع القومي للترجمة

**الإسهامات الإيطالية
في دراسة مصر الحديثة
في عصر محمد علي باشا**

**مجموعة مقالات
مختارة لباحثين إيطاليين**

ترجمة: عماد البغدادي



٢٠٠٥

المشروع القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٧٢
- الإسهامات الإيطالية
- في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا
- عماد البغدادي
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة لمجموعة مقالات مختارة

هذه الترجمة صادرة بالتعاون مع المعهد الثقافي الإيطالي بجمهورية مصر العربية



حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

- الإسهامات الإيطالية في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا
(بقلم: أنطونيو بليتييري).....7
- إصلاحات محمد علي الصحية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع
عشر (بقلم جوزيبي رستيفو).....25
- مشكلات تاريخية. بعض الملاحظات بشأن "الصبغة المصرية" (بقلم بيانكا
ماريا وسكارتشا أموري).....39
- الطريق المصري للصحة في عهد محمد علي ١٨٠٥-١٨٤٩ (بقلم سلفاتوري
سبيتسيالي).....63
- لمحات عن أصول القضية المصرية (بقلم برونو ألييتي).....85
- الشرق الحديث: الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بمحمد علي وأرشيات الدولة
الإيطالية (بقلم أنجلو سان ماركو).....113
- حول ترجمتين عربيتين لرواية "الأمير" لماكيا فيللي (بقلم ماريا ناللينو).....129
- القضية المصرية من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٤١ (بقلم كارلو جيليو).....149

الإسهامات الإيطالية في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا مذكرة تمهيدية

أنطونيو بلينيري

إن تجميع مقالات لباحثين إيطاليين، لكتاب مترجم إلى العربية، ينشر كإسهام مناسب ومقبول في الاحتفال بمؤتمر القاهرة حول "حكم محمد علي"، الذي تنظمه وزارة الثقافة المصرية ليس بالأمر السهل، عندما يكون المؤلف بعمله مؤرخاً للدول العربية ومتخصصاً في الدراسات الإسلامية. فالوقت قصير من ناحية، ومن الناحية الأخرى، هناك ضرورة عرض مجموعة من النصوص ذات القيمة الثقافية المعروفة عالمياً للجمهور العربي والمصري. وعلاوة على ذلك فإنني أذكر أنه ليس من السهل اختيار بضعة مقالات، دون أن نقابل بعض المصاعب، بحجة أن المقالات تمثل عن جدارة الإسهام الإيطالي في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي. وقد قبلت في الوقت نفسه إعداد هذه المبادرة بالنشر، مع علمي بأن العملية ستكون أكثر تعقيداً مما نتخيل، على اعتبار أن تاريخ مصر الحديث وحكم محمد علي يطرح، حتى على المعدل البسيط لمجموعة من النصوص، مشكلات ذات طبيعة تاريخية وتتعلق بالتناول المنهجي لا تزال حتى اليوم محور نقاش محتدم في المجال العربي^(١). الأسباب متعددة. فمحمد علي، كما كان يؤكد أومبرتو ريتسيتانو في كتابه "تاريخ العرب"، كان "محور الاهتمام السياسي للقوى الأوروبية الحريصة على التخفيف من جموحه الإمبريالي، الذي يعتبر بحق الباعث الحقيقي لمصر، وصانع مصر الحديثة"^(٢). ثانياً: أن إسهامات الباحثين الإيطاليين (بشأن حكم محمد علي) هائلة من ناحية الكم، ولكن البعض فقط هو الذي له قيمة حقيقية لها قدرها،

كما كان يؤكد ريتسيتانو^(٣) في مواضع أخرى. وأذكر هنا المستعرب الصقلي الكبير الذى مات فى باليرمو فى ١٩٨٠، وأستاذ المدرسة الصقلية رحمه الله، وليس آخرين، لأن الجميع يجمعون على أهمية إسهامه كمستعرب والموجه لتعريف إيطاليا، مع باحثين آخرين لامعين، الجوانب المهمة فى تاريخ وأدب مصر الحديثة والمعاصرة والوجود الإيطالى فى وادى النيل^(٤).

وعلى الرغم من هذا فإننى أمل أن تكون النتيجة مقبولة. وأعتذر من الآن عن الانحياز للاختيار الذى قمت به.

ولكننى واثق من أن الأصدقاء العرب والزملاء الإيطاليين سيتفهمون الأسباب التى فضلت من أجلها بعض المقالات لمؤلفين عاشوا فى الماضى القريب وباحثين أحياء لهم نشاطهم. وهى مقالات مختارة لانسجامها ولاتجاهها لتعميق الجوانب المهمة وغير المستكشفة أحيانا. وقد أخذت فى الحسبان النقاش التاريخى كما أشرت، الذى تطور منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر حول شخصية وعمل باشا مصر، مع اهتمام خاص بالحدثة والتجدد و/أو عملية التفرنج. وقد شجعت على هذه العمليات إصلاحات محمد على فى مصر وكانت لها تأثيرات مهمة فى كل الشرق الأدنى العربى.

وقد تميز عمل محمد على بأنه يهدف لتجديد النظام فى مجمله، طبقا لأساليب مبتكرة أحيانا، وجريئة غالبا^(٥). والتشابه مع بطرس الأول ملك روسيا يمكن أن يبدو مفتعلا، ولكن مؤرخا شهيدا ماركسى النزعة، مثل فلاديمير لوتسكى، كان يقول: "إن (إصلاحات) محمد على كان لها طابع تقدمى على الرغم من أنها كانت تمثل عبئا على الشعب"^(٦). وهناك آخرون يبرزون تغلب شخصية باشا القاهرة، التى تعتبر، كما يقول بيتر مانسفيلد، معروفة للجمهور العريض: "تكوين نادر لجندى وزعيم سياسى عبقرى حتى وإن كان أميا تقريبا، فقد كان الذكاء الحاد يسمح له باستيعاب المستجدات وتحليل الأهمية. وقد كان جريئا وطموحا بتفاخر وقادرا على القيام بفظائع رهيبة، ولم يكن محمد على يعتبر نفسه مصريا ولا

عربيا، ولم يتحدث أبدا العربية^(٧). وهذه الملحوظة لمانسفيلد ربما تتأثر برؤية الشيخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى، الشاهد على الأحداث الواقعة بين مغامرة نابليون فى مصر ونائب السلطان العثمانى فى القاهرة. وفى عمل الجبرتى، الذى كان معروفا بعدم تقاطعه الشديد مع حاكم القاهرة الألبانى الأصل، ترسم صورة ذكية بالفعل لمحمد على، ولكنه يصور على أنه متآمر ومتغطرس أحيانا^(٨). وإذا كانت أخبار العصر الذى كان يعيش فيه محمد على تعنى بالحياة الاجتماعية الطبيعية للقاهرة ومراكز حضرية أخرى فى مصر، دون توضيح الانفصال عن الماضى، بالتركيز على مسارات ثابتة من التاريخ الإسلامى والأجناس الأدبية المرتبطة به، كما فى حالة الجبرتى المذكور^(٩)، فإن الإنتاج العربى والمصرى اللاحق، بداية من النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يبدأ عملية تأمل ونقاش لا يزال البعض يشعر به وكأنه يحدث الآن. ويجدر بنا أن نشير بعض الإشارات القصيرة لبعض الجوانب الأساسية فى هذا النقاش ذى الطابع التاريخى المنهجى، لخدمة هذه المذكرة التمهيدية.

إن رأى المؤرخين المصريين فى نهاية القرن التاسع عشر يمكن أن يعتبر معروفا حتى وإن كانت هناك بعض الآراء القوية داخل الإنتاج المصرى نفسه. وهذه هى حالة محمد فريد بك، مؤلف كتاب قيم عن تاريخ الدولة العثمانية. وفى سياق دراسة قوية ومهمة مخصصة لسياسة محمد على، كان يصف باشا القاهرة بأنه "الرجل العظيم"^(١٠)، ولذا فإننى أعتبر ملحوظة المؤرخ الدمشقى نعمان القسائلى أكثر أهمية، حيثما كتب فى ١٨٧٩ يقول: "فى عام ١٨٣١، بدأت أحداث مهمة وكبيرة فى سوريا نتج عنها نقل البلاد للحكم المصرى ودخول أضواء الحضارة"^(١١) وفى رأى المسيحى الأرثوذكسى القسائلى نجد فكرتين متحدتين، وهما فكرتا الحكم والنقد، اللتان ميزتا النقاش العربى فى الفترة اللاحقة. أى عندما أوضح المثقفون العرب بمزيد من الاقتناع، طبقا لأساليب الفهم لأفكار وطنية مشتقة من الثقافة الأوروبية، معنى العروبة والعملية التاريخية لوحدة العرب. وهذا لا يزال فى الوقت نفسه فى عمل وفكر سورى، هو محمد كرد على، الذى أشير إليه.

فالدمشقي كُرد على، مؤسس الأكاديمية العلمية العربية في دمشق، شخصية مثقفة معروفة جدا في مصر، حيث عاش في القاهرة لسنوات طويلة. وقد عاش على اتصال وعمل مع رجال الثقافة والعلم المصريين والسوريين الكبار الذين عاشوا بين نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين: من محمد عبده إلى رشيد رضا، ومن الكواكبي إلى قاسم أمين، وهذه بعض الشخصيات اللامعة التي اعتادت المشاركة في المجالس السياسية - الثقافية في حدائق الأزبكية. وفي مقالة قصيرة كتبت عشية تأسيس الجامعة العربية في القاهرة، كتب محمد كرد على يقول إن: "الوحدة العربية كانت على وشك التحقق في الأزمنة الحديثة في ثلاث مناسبات، أفشلتها إنجلترا! المرة الأولى في زمن ابن سعود في بدايات القرن التاسع عشر، والمرة الثانية في فترة محمد علي العظيم الذي كان قد وصل أثناء الحرب ضد العثمانيين حتى قلب تركيا، والثالثة أثناء الحرب الكبرى، عندما وعدت إنجلترا شريف قلة بحكم العرب"^(١٢).

وكما يمكن أن نلاحظ، ربما كان دور محمد علي هو إعادة بناء وحدة آسيا العربية، ولا يهم ما إذا كان هذا بمعرفة الباب العالي وبالاتفاق معه أم لا. وقد تعرض الإيطالي أمبرتو ريتسيتانو أيضا لسحر هذه الرؤية وكتب يقول إن محمد علي بعد ١٨٣١ كان عنده الطموح لبناء إمبراطورية عربية شاسعة منفصلة عن تركيا. ومن هنا جاء غزو سوريا الذي قوبل بحماس كبير من السوريين الذين كانوا يؤيدون إعادة تكوين وحدة سوريا ومصر. وأضاف يقول إن العملية فشلت لتدخل بعض القوى الأوروبية التي رأت أن من المناسب في ١٨٤٠ وقف الأهداف التوسعية للباشا المصري^(١٣).

والرؤية المصرية المعاصرة في إعادة طرح الموضوعات الموضحة عاليه في المجال العربي بصورة عامة، تضيف جانب الوطنية وخصوصية دور مصر في الإطار الإقليمي والعربي. ولكن قد يكون من غير اللائق الاعتقاد أن الرؤية التي تأكدت على ضفاف النيل في السنوات التي سبقت ثورة ٢٦ يوليو ترجع فقط

لمصالح تأكيد الشرعية للأسرة الحاكمة في مصر حتى أوائل القرن العشرين. وهناك دراسات عديدة ومهمة عن الموضوع ولقاءات بحثية مهمة أجريت للتذكير والتدبر في عمل محمد علي وابنه إبراهيم^(١٤). ويكفي الجميع ذكر الكتاب الشهير الذي أصبح الآن من كلاسيكيات التاريخ المصري، لعبد الرحمن الرافعي. فهنا تبحث شخصية وعمل محمد علي في إطار الوطنية المصرية و/أو "تحقيق الاستقلال القومي". وحتى الحروب التي خاضها الباشا المصري في شبه الجزيرة العربية وفي بلاد الشام ينظر إليها في هذا السياق المذهبي^(١٥). وبالنظر إلى الإشكالية المعقدة التي أشرنا إليها هنا باختصار، أردنا في الوقت نفسه افتتاح هذا الكتاب بإسهام حديث لـ بيانكا ماريا سكارتشا أموري، وهي متخصصة مرموقة في العلوم الإسلامية ومؤرخة للإسلام في جامعة روما - لاسابيينتا. ويبدو مقال سكارتشا أموري من هذه الزاوية مهما جدا، حيث إنه يضع مشكلة الهوية و/أو "الصبغة المصرية" في علاقة مرجعية بسياسة محمد علي وقراءة بعض الإنتاج العربي المعاصر، مثل عمل الجبرتي المذكور. ولابد من الانطلاق من قراءة الوثائق والمصادر التاريخية الثقافية، وتحليل النصوص بهدف التدبر الهادئ والصارم من الناحية المنهجية، كما تبين الباحثة الإيطالية، والمقالان التاليان اللذان يحملان طابعا تاريخيا وسياسيا. والمقال الأقدم هو "القضية المصرية من ١٧٩٨ إلى ١٨٤١" لكارلو جيليو المعروف بدراساته في التاريخ السياسي الاستعماري، والثاني مأخوذ عن الفصل الأول من مذكرة "تاريخ مصر" لـ برونو ألييتي، الموظف الكبير في وزارة الخارجية، الذي سلمنا صورة لتاريخ هذا البلد العربي، بداية من الفترة التالية لمحمد علي، يزاوج فيه المؤلف بين التحليل الدقيق، والقدرة على التلخيص والتركيب المتين، كما قال ريتسيتانو^(١٦) في تعليقه. ولا يهم بعد ذلك أن يكون الإنسان منحازا كما هو الحال مثلا في المؤلف المهم والأساسي للمصري جمال الدين الشيال، الذي يقترح منذ مقالاته الأولى مفتاحا للقراءة، في تلاحم تام مع دراسة المصادر والوثائق الأرشيفية. ويمكن أن نعتبر كتابه الجميل "تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي من الكلاسيكيات إلى الآن"^(١٧).

ويرى الشيال أن الخاصية المميزة لعمل محمد على كانت التوجه لأوروبا ليأخذ ما كان مفيدا لتحديث وتقوية سلطته وكان مرتبطا بتقاليد وأعراف آبائه والعثمانيين أكثر مما كان عليه العثمانيون أنفسهم في تلك الفترة. ويضيف الشيال أن محمد على اختار لعمله هذا سبيلا وسطا، وفي المدارس الجديدة استخدم طلبة ومدرسين قادمين من مؤسسات قديمة مثل الأزهر.

وخلص إلى أن الباشا الكبير في القاهرة "بدأ في مصر عهدا جديدا وبفضل كل الأدوات المستخدمة" حاول محمد على وضع الغرب في مصر لتحقيق الإصلاحات كما كان معتادا في الغرب نفسه، ولكنه لم يقدّم بأي جهد لكي ينقل مصر إلى الغرب، بل إنه اتجه للحفاظ على روحانياتها وتقاليدها^(١٨).

وتمهد الآراء التي عبر عنها الشيال للجانب الثاني، الذي أوليناه أهمية خاصة في اختيار المقالات الإيطالية لهذا الكتاب؛ وهو جانب الإصلاحات في عهد محمد على، ونقل المعارف الحديثة من أوروبا وأساليب تلقي هذه المعارف في المجال المصري والإقليمي، وبالتالي العلاقات المعقدة والمحفوفة بالمشاكل مع الدول الأوروبية. وبمناسبة هذا الموضوع الأخير، لم يكن من الممكن أن يغيب في هذه المجموعة من الدراسات مقال للمؤرخ أنجلو سان ماركو بعنوان "الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بحكم محمد على وأرشفات الدولة الإيطالية". وتعتبر عملية التجميع والتحليل التي قام بها سان ماركو للوثائق الإيطالية المتعلقة بالعلاقات الدبلوماسية إسهامًا على جانب كبير من الأهمية لمعرفة تاريخ مصر في فترة محمد على وفي القرن التاسع عشر بصفة عامة. وقد تلقى سان ماركو من الملك فؤاد تكليفا ملزما باستكمال الدراسة ونشر الوثائق الدبلوماسية الإيطالية المتعلقة بحكم باشا القاهرة، والتي كان جمعها قد بدأه المستعرب والمتخصص في الدراسات التركية أوجينيو جريفيني الذي استدعى إلى القاهرة كأمين مكتبة في القصر الملكي والمعروف بعد ذلك بأوجينيو جريفيني بك^(١٩).

وعمل سان ماركو مهم، وكان من أثر الوثائق التي جمعت تشجيع صياغة

تصورات وتقديرات تاريخية جديدة. وقد منع اندلاع الحرب العالمية الثانية وموت الباحث الإيطالي للأسف استكمال العمل^(٢٠). وعلى الرغم من أنه غير مكتمل، فإنه يظل أداة أساسية لمعرفة الأحداث التي حدثت في زمن محمد علي، ويكفي أن نشير، على سبيل المثال، إلى الجزء من العمل، وهو المتعلق بغزو سوريا. وي طرح سان ماركو في هذا الجزء وثائق مهمة معظمها تقارير بالمراسلة للقناصل ورجال الأعمال المرتبطين بالنمسا مثل مراسلات الإيطالي جوزيبي أتشيريبي (١٧٧٣-١٨٤٥) قنصل النمسا في مصر، إلى مترنيخ من الإسكندرية، والتي تتناول العمليات العسكرية وحالة الجيش العثماني والجيش المصري وشخصية محمد علي نفسه، كرجل خشن ومتعجرف، ومهتم فقط بمصالحه ومصالح عائلته (انظر "خطاب القنصل أتشيريبي للسفير البابوي أوتفيلس"، في ٥ يوليو ١٨٣٢، من الإسكندرية، ص ١٩-٢٣). وموضوع البحث في هذا الجزء هو أيضا موضوع وجود المدربين العسكريين الإيطاليين في هذا المعسكر وذاك، أو المصري والعثماني. والتقييم الذي يستخلص من تحليل الإصلاحات المتفرجة، طبقا للوثائق الإيطالية التي جمعها سان ماركو هو أن هذه الإصلاحات ربما مست النخب في السلطة والدوائر العسكرية، مما شجع في نهاية المطاف المؤسسة الحاكمة فقط. ولكن الشعب المصري ربما عانى من التجنيد الإجباري، والحرب الطويلة والسياسة الضريبية الثقيلة. وكان الشباب القبطي نفسه، كما تذكر تقارير مهمة، مضطرا لأول مرة للتجنيد، ليس لواجبات عسكرية ولكن للدعم اللوجيستي ولمهام متواضعة.

وفي تقرير لـ دي روسيتي إلى فوسومبروني، من الإسكندرية في ١٨ أغسطس ١٨٣٢، كتب يقول: "إن هذا الباشا يستعد من جانبه للدفاع، مما سيلحق بملكه الضرر الهائل الذي سيفرغ بلده من أفضل السواعد، تاركا بذلك الزراعة التي يستمد منها وحدها موارده، بهجوم عسكري مفاجئ، وفي حملة لا يمكن أن تكون مواتية لهم. وإذا استطاع الحصول على تسوية، فإنه سينتصر في قضيته، ولكن مع حرب طويلة ستضعف مصداقيته وتغيب، وقد أنهكت شعبه المعاناة

والأعباء، ومن السهل أن يتمرد عليه جيشه الذي لا يعرف إلى أين سيخرج به، والتجارة الأوروبية، إذا لم تجد أمنا كاملا، فإنها لن تخاطر برعوس أموالها ولا بالأموال السائلة لشراء هذه المنتجات، ولا فى سلع لا يريد أحد المغامرة بها فى مخاطر الهزيمة. وهذا الارتياح الطبيعى سيكون قاتلا لماليات هذا الباشا، إذا لم يوقف التطور السريع هذه الحرب، ولكن يبدو أن من العبث الأمل فى ذلك. إن هذا الصراع يمكن أن يصبح سريعا أوروبيا، وربما فى هذه الحالة سيجد الباشا الخلاص فى السياسة المختلفة لدول أوروبا المهيمنة (ص ١٤٧-١٤٩). وهناك علاوة على ذلك بعض الآراء المهمة المتعلقة بعمل إبراهيم باشا فى حملة سوريا، كما فى خطاب أكوراتى الطويل لـ أوتفيلس من الإسكندرية ٢٦ يونيو-٢٧ يوليو ١٨٣٢، الذى كتب يقول فيه: "فى كل النقاط التى زارها الكاتب فى سوريا، وجد ما يؤكد رأيه بأن المسلمين يطيعون الحكومة الجديدة فقط بفضل أعمال العنف، التى يمارسها إبراهيم، الذى لم يضع السلطان فى طريقه أى عقبة، دون عقاب، ضد كل أولئك الذين يعلنون معارضتهم لمحمد على" (ص ٣٥) ويمكن الاعتراض بأن بعض القناصل الإيطاليين فى خدمة النمسا كانوا منحازين ويخدمون سياسة الدولة التى كانوا يمثلونها. ولكن يبقى الاهتمام الكبير بعمل سان ماركو المهم، الذى يظل للأسف غير معروف للمؤرخين المعاصرين أنفسهم فى إيطاليا.

ولا شك فى أن الدور الذى لعبه الإيطاليون فى تحديد العمل الإصلاحي للباشا المصرى، منذ اللحظات الأولى لتعزيز سلطة محمد على، يعتبر دورا بارزا. وإذا أردت الحديث عن دور الرحالة الإيطاليين وعلماء الآثار أو الباحثين عن الآثار والباحثين بصفة عامة فى مصر منذ الأيام الأولى للقرن التاسع عشر قد لا يكفينا كتاب بأكمله. وأذكر هنا الشخصية المعقدة والمهمة لجوفانى باتيستا بيلتسونى من بادوفا. فقد وصل إلى القاهرة فى ١٨١٥ وتعاون مع ألمع علماء الآثار الموجودين آنذاك فى وادى النيل، وبعد العودة إلى أوروبا فى ١٨١٩ نشط للتعريف بروائع مصر القديمة. وعلى الرغم من حبه لمصر فقد اضطر لترك البلد العربى، ولكن يبدو أنه قد قال قبل ذلك كلمات مريرة إزاء "بعض الأوروبيين الموجودين فى مصر، الذين يمثل مسلكهم وعقليتهم عارا على الجنس البشرى"^(٢١). وقد دخل

جيرولامو سيجاتو، القادم من مدينة بيللونو، بعد أن وصل إلى مصر فى ١٨١٨، فى دائرة المتخصصين الأوروبيين، الذين استدعاهم محمد على لبناء قناة ملاحية لتجنب القناطر الثانية، وقد كانت الإقامة فى مصر بعد ذلك مهمة جدا لجوفانى باتيستا بروكى، وهو عالم فى التاريخ الطبيعى، ولد فى باسانو فى ١٧٧٢، ونستخلص من عمله الضخم، المشار إليه فيما بعد، أخبارا مهمة عن حقبة محمد على. ومن ناحية أخرى يذكرنا الشيال نفسه بمدى أهمية دور الإيطاليين. فمنذ السنوات الأولى من حكم محمد على، ما كتب الباحث المصرى، توجه إلى إيطاليا، علاوة على إنجلترا وفرنسا.

وتأكيدا لما يقوله، يحكى الشيال الدور الذى قام به عثمان نور الدين، المساعد الوثيق للباشا المصرى فى الدعم المقدم لتعليم الإيطالية فى القاهرة والعلاقات مع إيطاليا. وقد رأس عثمان نور الدين الوفد المصرى المبعوث إلى إيطاليا من قبل محمد على فى ١٨٠٩ ومن هنا إلى فرنسا^(٢٢)، للقيام بمهمة إعادة بناء المطبعة التى كانت قد أغلقت، وقد حدث هذا بعد أن ترك الفرنسيون مصر، وكان المستشرق مارسيل المسئول عن المطبعة قد نقل إلى باريس كل مواد الطباعة المستوردة من إيطاليا إلى تلك الدولة. وكان نابليون فى نهاية القرن الثامن عشر قد حصل بالفعل على الأحرف العربية من "مطبعة الدعاية فى روما"، التى جند منها العاملون الفنيون الذين كانوا يعملون تحت رئاسة مارسيل. وقد كانوا من العمال المتخصصين مثل جوفانى جورتي وجوفانى رينو، المسمى بـ "الشرقى"، ومؤلفين أمثال كاميللو روجا ونيكولو روزيللى وفرانشيسكو ماكاتى، وطباعين، مثل جوزيبى دى دومينيتشيس، ولويجى بيليجرينى وفيليتش أنسيلونى. وكانت المطبعة موجودة فى الإسكندرية فى بيت نائب قنصل فنيسيا. ولم يكن من قبيل الصدفة أن أول عمل يصدر فى مصر كان مقالة طبية إيطالية" وصف التهاب العين فى مصر مع الطريقة العلاجية لأنطونيو بافاريزى، طبيب الجيش الفرنسى فى الشرق"، والمطبوع فى القاهرة فى العام الثامن من الجمهورية الفرنسية^(٢٣). وقد أشرف نور الدين علاوة على ذلك على تأسيس مدارس كانت تدرس فيها اللغة الإيطالية واجتهد

لتشجيع ترجمة نصوص إيطالية إلى العربية والتركية. وكانت اللغة الإيطالية تدرس في مدارس بولاق وقصر العيني، وبعد ذلك في مدرسة المهندسخانة في بولاق وفي بعض المدارس العسكرية^(٢٤). وعلاوة على ذلك جلب من إيطاليا مدرسين ومدرّبين عسكريين واشترى آلات للطباعة^(٢٥)، وكتباً مفيدة تطرح على الجمهور المصري من خلال عمل المترجمين المصريين والسوريين – اللبنانيين بصفة خاصة، الخبراء في التركية والعربية. كان عثمان نور الدين شخصية مهمة، وبعد أن زالت حظوته بعد ١٨٣٠ بسبب معارضته لحروب محمد علي ضد الباب العالي، شجع أيضاً وجود الأطباء الإيطاليين في مدارس الطب وفي المستشفيات العسكرية. وهذه الأخيرة جوانب مهمة، حصصت لها هنا مساحة كبيرة مع دراستين للصقاليين رستيفو وسبتسيالي.

ولم يكن المدرسون الأجانب الفرنسيون والإيطاليون والإسبان يعرفون سوى لغتهم ولكن التلاميذ كانوا يعرفون فقط العربية، وهو سبب جعل من الضروري تأسيس وظيفة المترجم الوسيط بين المدرس والطالب. وفي مدارس الزراعة والهندسة الحديثة، التي أسست في تلك الفترة، كانت تدرس الإيطالية والعربية والفارسية والتركية، علاوة على الفرنسية. وفي ١٨١٥ أسس مكتب المهندسخانة في القلعة. وهنا أيضاً، علاوة على العربية والتركية كان يوسع الكثير من الطلبة اختيار دراسة الإيطالية. وفي مدرسة الهندسة الثانية، المؤسسة في ١٨١٩، كان يدرس السيد كوستا، بينما كان يدرس بالعربية والإيطالية تحت إدارة السيد توديري^(٢٦). وعلاوة على الشيال، تعد شهادة بروكي المذكور حاسمة. فقد وصل بروكي بالفعل إلى مصر في ١٨٢٢، وبقي فيها لخدمة الباشا في القاهرة حتى الوفاة التي وقعت في الخرطوم في ٢٣ سبتمبر ١٨٢٦. ويقول رجل العلم والرحالة الإيطالي إن المكابس الخاصة بالطباعة كانت مستوردة من ميلانو والورق من ليفورنو؛ وفي مرحلة أولى كان الحبر أيضاً مستورداً من إيطاليا، قبل أن ينتج في مصر. والشئ نفسه يقال عن الأحرف العربية والتركية والإيطالية واليونانية أيضاً المصنوعة في ميلانو^(٢٧). وفي أوائل ١٨٣٥ أسست في القاهرة مدرسة الألسن باسم مدرسة الترجمة، وكان يرأسها الشيخ الإصلاحى المعروف رفاعة

الطهطاوى^(٢٨). وقد تطلب تأسيس المدارس الجديدة أيضا شراء كتب الأدب والتاريخ باللغة الفرنسية غالبا من أوروبا، وقد شجع هذا نشاط الترجمة فى قطاعات الطب والرياضيات والهندسة والعلوم العسكرية والعلوم الاجتماعية والأدب والتاريخ والفكر السياسى. وعلى الرغم من أن الإيطالية منذ تلك اللحظة تركت المجال للفرنسية والإنجليزية، إلا أن الاهتمام باللغة الإيطالية استمر فى البقاء حيا. وكانت الترجمة عن اللغات الأوروبية، كما يذكر الشيال، من بين الخصائص الرئيسية لسياسة محمد على. ومن بين المطبوعات والترجمات الأولى نذكر طباعة قاموس إيطالى - عربى فى مطبعة بولاق فى ١٨٢٢، من إعداد السورى، الأب أنطون رفاعة الزاخور^(٢٩)، الذى أعد أيضا الترجمة العربية لرواية "الأمير" لماكيافيللى فى ١٨٢٤-١٨٢٥^(٣٠). وفى ١٨٣٤ ترجم أخيرا إلى التركية "تاريخ إيطاليا" لـ "بوتا"، ولكن عن الفرنسية^(٣١). وقد فرضت عملية الترجمة، كما فى حالة الأمير لماكيافيللى وتاريخ إيطاليا لـ "بوتا" مشكلات كبيرة على المترجمين الذين لم يتمكنوا فى مقاطع عديدة من ترجمة فكر المؤلفين بصورة صحيحة. ويشير مقال ماريا نالينو المهم الذى اختير لهذا الكتاب إلى الإشكاليات المرتبطة بالترجمة، والاستخدام غير الدقيق غالبا للكلمات والمفاهيم. والشيال نفسه يشير إشارات كثيرة لمقال نالينو، وأنا واثق من أن الترجمة العربية للمقال نفسه ستلقى تقدير الباحثين العرب والمصريين.

وأختتم هذه المذكرة التمهيدية القصيرة بالأمل فى أن يلقى هذا الإسهام الإيطالى الصغير والجزئى تشجيعا وأن يعتبر أداة لمزيد من الدراسات المتعمقة. وأود أن أشكر الصديق أنجلو جويه، الملحق الثقافى فى المعهد الثقافى الإيطالى فى القاهرة للمساندة التى قدمها لتحقيق المبادرة. ولا بد أن أشكر علاوة على ذلك إدارة المجلة العلمية الإيطالية المرموقة "الشرق الحديث"، التى نقلنا عنها بعض المقالات المجموعة هنا، ومعد كتاب "الترجمة والتجديد فى مصر (١٧٩٨-١٩٩٨)"، وأعمال المؤتمر الذى نظمته فى ميلانو جمعية دراسات الشرق الأوسط. وقد أخذت عن هذا الكتاب (ميلانو، ٢٠٠٠) مقالات سكاريتشا أمورييتى ورستيفو وسبتسيالى.

هوامش

- (١) من المفيد أن نرى من هذا المنظور المقالة الأخيرة للباحث المصرى محمد عفيفى،
عرب وعثمانيون، رؤية مغايرة، دار الشروق، القاهرة..
 - (٢) أ. ريتسباتو، تاريخ العرب، دار نشر مانفريدى، باليرمو ١٩٧١، ص ٢٤٢، ٢٤٦.
 - (٣) أ. ريتسباتو، "Ali studi di storia araba" فى Ali studi sul vicino oriente in
italia dal 1921 al 1970 المجلد الثانى، ص ٢٧-٦٧، ص ٦٣
 - (٤) إن إسهام أمبرتو ريتسباتو، المولود فى مصر ١٩١٣، والمعروف والمحبوب جدا
فى هذا البلد وفى العالم العربى بصفة عامة يعتبر بلا شك هاما ومنوعا فى مجال
النشاط الجامعى، ونشر اللغة، والثقافة الإيطالية فى مصر والدراسات العربية
الاسلامية فى المجال المصرى، والتي كرس لها المستعرب الصقلى جانبا هاما من
أعماله فى شبابه فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وقد نشر
العديد من المقالات فى المجلة الإيطالية Oriente Moderno وفى مجالات مصرية
هامية. وقد يطول بنا الحديث إذا ذكرنا مقالات ريتسباتو فى تلك الفترة، وأذكر
على سبيل المثال، "studi di storia islamica in Egitto (1940-1952)" فى O M،
العدد ٣٣، ١٩٥٣ (ص ص ٤٤٢-٥٦)؛ "lingua e cultura italiana in Egitto"
فى Paninae institutionis binquarum، القاهرة ١٩٥٥.
- “un secolo di giornalismo italiano in Egitto (1845- 1945)
- فى Cahiers d'histoire Egyptienne، السلسلة ٨، المزمرة ٢-٣، مايو ١٩٥٦
(ص ١٢٩-١٥٤)

(٥) جدير بالذكر أن ألبرت حوراني (storia die popoli arabi, da maometto ai nostri giorni, A histoy of the arab ١٩٩٢ ميلانو، موندادوري، people, 19991)

يخصص نبذات قصيرة لمحمد علي، مدرجا عمله الاصلاحى فى الإطار الأعم لسياسة التحديث التى بدأها العثمانيون منذ عصر سليم الثالث أولا ومحمود الثانى بعد ذلك، بعد ١٨٢٠. ويوضح أنه كون حوله جماعته المسيطرة العثمانية المحلية المؤلفة من الأتراك والمماليك، وجيش حديث ونخبة من الموظفين والمتعلمين جيدها، واستخدمهم لفرض السيطرة على الإدارة وتحصيل الضرائب فى كل البلاد، ليمدها إلى أبعد من ذلك حتى السودان وسوريا والجزيرة العربية*.

(٦) وقد اضاف قائلا: "كارل ماركس (فى New york daily tubrne ٢٥ يوليو ١٨٥٣) قيم ايجابيا إصلاح محمد على الذى كان يصفه بأنه الرجل الوحيد الذى يستطيع استبدال رأس حقيقى بعمامة توضع على الرأس" (المجلد السادس. لوتسكى، storia moderno die paesi arabi ترجمة ايطالية، دار نشر تيتى، ميلانو ١٩٧٥، ص ٧٠)

(٧) بيتر مانسفيد، storia del medio Oriente، ترجمة ايطالية، SEI تورينو ١٩٩٣/ A history of the Middle East، ص ٥٤. وجدير بالذكر ان تناول المؤرخين الإيطاليين والأوروبيين الرئيسية غير المتخصصين يشير إلى عمل محمد على فى إطار سياسة القوى الأوروبية الرئيسية وما يسمى بقضية الشرق. ولكن يتضح الاهتمام الضئيل بالواقع الإسلامى الإقليمى والسياسة الإجتماعية لباشا القاهرة.

(٨) راجع عبد الرحمن الجبرتى، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، المجلد الثانى، طبعة دار الفارس، بيروت، بدون تاريخ، المجلد الثانى، فى مواضع متفرقة. وبصفة عامة انظر تناول أحداث السنتين ١٢١٨ و ١٢١٩ من الهجرة (١٨٠٤- ١٨٠٥ ميلادية)، اللتين يرسم فيهما المؤلف، كمتفرج كبير، إجراءات وصول محمد على للسلطة.

(٩) يجدر بنا أن نذكر رحلة الحج التي قام بها الشاب عبد القادر الجزائري الذي كان يصاحب الأب محيي الدين في ١٨٢٥. راجع "الحاج مصطفى التهامي، صراط الأمير عبد القادر وجهاده"، إعداد يحيى بو عزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الأولى، ١٩٩٥. الجزء المخصص للمرور بمصر يتضح أنه قصير ولكنه عرض هام للحياة اليومية في الإسكندرية والقاهرة، من الناحية الدينية والثقافية. عند العودة من مكة وصل الجزائريان إلى القاهرة (قاهر مصر) في أيام مولد النبي. وفي هذه المناسبة، يلقي الضوء على جو العيد، والعديد من الأضواء المضاءة في كل مكان وخاصة في منطقة الحسين، وفي المساجد وقبر الإمام الشافعي. ويتضح علاوة على ذلك أن الفرحة كانت قد زادت للترامن مع الفيضان السنوي للنيل (ص ١٢١).

(١٠) راجع محمد فريد بك، "تاريخ الدولة العثمانية"، دار الجيل، طبعة بيروت، ١٩٧٧، ص ١٩٢. وجدير بالذكر أن محمد فريد، في رسم عهد محمد علي، كان يؤكد على أن مصر جزء من الإمبراطورية العثمانية (ص ٢٣٣).

(١١) راجع نعمان قساطيلي، "الروضة الغناء في دمشق الفيحاء"، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٢ / الطبعة الأولى ١٨٧٩، ص ٨٧

(١٢) راجع "القول في الوحدة العربية"، في محمد كرد علي، "أقوالنا وأفعالنا"، القاهرة، ١٩٤٦، ص ص ٣٣٩ - ٣٤٨.

(١٣) أ. ريتسيتاتو، تاريخ العرب، المرجع المذكور، ص ص ٢٤٢ - ٢٤٨: الصفحة (ص ٢٤٥)

(١٤) بالنسبة للقاءات التي نظمت في مصر، انظر ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨ - ١٩٤٨، أعمال المؤتمر الذي نظّمته الجمعية الملكية للدراسات التاريخية في القاهرة بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة ابن محمد علي، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٨. وفي خطاب الافتتاح أكد عبد الرزاق أحمد السنهوري باشا بوضوح قائلا:

"إذا لم يكن إبراهيم عربى المولد، فإنه عربى النشأة والموطن، عربى اللغة والعاطفة، عربى المجلد والعظمة، أتى مصر طفلا فغيرت شمسها دمه فجرى عربيا" راجع كلمة الافتتاح، ص.و) ومؤخرا، فى ١٩٩٩، جرى فى القاهرة لقاء للدراسات حول محمد على بمناسبة الذكرى الـ ١٥٠ لوفاته. راجع رؤوف عباس (إعداد)، "إصلاح أم تحديث. مصر فى عصر محمد على". ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور ١٥٠ عاما على رحيل محمد على باشا الكبير، ٩-١١ مارس ١٩٩٩، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

(١٥) عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٩/ الطبعة الأولى، ١٩٣٠. وهناك صورة لها مغزاها فى ص ٥٦٥ من الكتاب تصور إبراهيم باشا مع التعليق التالى: قائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال (١٧٨٩-١٨٤٧).

(١٦) أ. ريتسيتاتو... un secolo di... المرجع المذكور، ص ٦٥. ولكننا لم ندرج فقرات مأخوذة عن الصقلى المرموق أ. فيرزى، "تكوين مصر الحديثة والإسهام الإيطالى فى نهضتها السياسية والحضارية فجر البعث المصرى" (١٧٦٠-١٨٤٠)، مسينا ١٩٣٨.

(١٧) القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥١.

(١٨) نفس المرجع ص ص ٦-٧ و ١٠ وليس من قبيل الصدفة أن عنوان المقدمة هو "النقل عن الغرب وسيلة محمد على للإصلاح"، (ص ٥)

(١٩) أ. ريتسيتاتو، un secolo di... المرجع المذكور، ص ٦٣.

(٢٠) يجدر بنا ان نذكر بعض أعمال أنجلو سان ماركو،

Il regno di Mohamed Ali nei dowmenti diplomatici italiani inediti

المجلد الأول (lugilo 1801- lugilo 1804)، القاهرة، ١٩٣٠؛ المجلد الثانى؛

"gensi e primo svolgimento della crisi egiziano orientale del 1831- 1833
(gennaio 1831- gennaio 1832)"

روما ١٩٣١؛ المجلد التاسع

la presa di san giovanni d'Acri (febbraio- giugno 1832)"

روما ١٩٣٢؛ المجلد العاشر،

"la conquista egiziana della siria (luglio – Ottobre 1832)" الجمعية الملكية
للجغرافيا في مصر، مطبوعات خاصة تحت رعاية صاحب الجلالة فؤاد الأول،
مطبوع في روما عن طريق مؤسسة الدولة للطباعة للجمعية الملكية للجغرافيا في
مصر، ١٩٣٢. ولنفس المؤلف،

"l'impronta del giornale di viaggio di g.b brocchi per la conoscenza
della'Egitto e del sudan"

مقتطف من الـ bulletin de la societe royal de geographie d'Egypte

الكتاب السادس عشر، القاهرة ١٩٢٣؛

Il contributo degli italiani ai progressi scientifici e pratici dell
medicina in Egitto sotto regno di Mohammed Ali

بالتعاون مع أ. فيروتس بك، القاهرة ١٩٢٨؛

il viaggio di Mohammed Ali al Sudan (15 ottobre 1838- 15 marzo
1839) القاهرة ١٩٢٩؛

La marina egiziana sotto Mohammed Ali, il contributo italiano

القاهرة ١٩٣١.

(٢١) راجع ج. لوكيتا، "in Egitto e lungo il nilo"

في، stosia di vragoviatosi italiani، الكتا، ميلانو ١٩٨٦ مجلة افرقيا، صص
١٠٦-١٣٣، ص ١٢٤.

(٢٢) الشيال، تاريخ الترجمة...، المرجع المذكور، الفصل الأول "عثمان نور الدين اول
مبعوث مصرى الى أوروبا"، صص ٩٥-١٠١

(٢٣) ١. ريتسيتانو، un secolo di...، المرجع المذكور، ص ١٣١.

(٢٤) للحصول على هذه الأخبار، راجع الشيال، "تاريخ الترجمة..."، المرجع المذكور،
صص ١٢-١٣.

(٢٥) في الفترة من ١٨١١-١٨٢١، ارسل نيقوك ماييكي إلى إيطاليا لتعليم تقنيات
الطباعة، ولا ننسى أول جريدة ايطالية كانت "lo spettatose egiviano"
(الإسكندرية ١٨٤٥) بمبادرة شخص يدعى كاستيلنوفو. راجع ١. ريتسيتانو، un
secolo di...، المرجع المذكور، ص ١٣٤-١٣٥.

(٢٦) الشيال، تاريخ الترجمة...، المرجع المذكور، ص ١٨-٢٥.

(٢٧) راجع ج. ب. بروكي،

Giornale della osservazioni fatte ne' viaggi in Egitto, nella siria e nella
nubia، مجلدات، باسانو ١٨٤١-١٨٤٣، المجلد الأول، ص ٢٧-٣٥.

(٢٨) الشيال، تاريخ الترجمة...، المرجع المذكور، ص ٣٩.

(٢٩) نفس المرجع، ص ٧١.

(٣٠) نفس المرجع، المذكور، ص ٨٠، القاموس كان عنوانه قاموس ايطالى-عربى،
إعداد الأب انطون رفائيل زاخور، مكان الطباعة بولاق ١٢٣٤، ١٨٢٢. والعنوان
العربى للأمير هو "الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير، ترجمة للأمير
لماكيافيللى، إعداد الأب أنطون رفائيل زاخور من الإيطالية إلى العربية (مخطوط
مؤلف الترجمة محفوظ لدى دار الكتب المصرية رقم ٤٣٥. سنوات الترجمة التى

أرادها محمد علي ١٨٢٤-١٨٢٥، المجلد الأول (توجد ترجمة ثانية من إعداد محمد لطفى جمعة، مطبوعة في القاهرة في ١٩١٢. ويبدو أن الترجمة لقيت تشجيعا في إطار الاهتمام بالعلوم السياسية. ويجب أن نذكر إعادة اكتشاف مقدمة ابن خلدون التي يقوم بها الشيال أنها اعتبرت في ذلك الزمن، أكثر ليبرالية من عمل ماكيافيللي نفسه. والـ"بروكي" أيضا يتحدث عن قاموس إيطالي عربي ألفه د. رفائيلي، أستاذ اللغة العربية في بولاق والعارف الممتاز باللغة الإيطالية، مضيفا أن د. رفائيلي يرجع له الفضل في الترجمة العربية لكتاب الأمير لكتاب الأمير لماكيافيللي (المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ٣٦٩ - ٣٧٠).

(٣١) تاريخ إيطاليا، ترجمة تاريخ إيطاليا لـ "بوتا"، 'عداد عبد الله أفندي عزيز ابن خليل وحسن أفندي. ترجمة عن الفرنسية Histoire d'Italie، الكتاب الأول، إلى التركية. مطبعة سراي رأس التين، الإسكندرية، ١٢٤٩، ١٨٣٤. الثمن ٣٠ قرشا. مجلدان: الأول، ١٣١ صفحة، والثاني ١٥٤.

إصلاحات محمد علي الصحية في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر

جوزيبي رستيفو

بدأت الحركة الأولى الإصلاحية في المجال الصحي في ١٨٢٧^(١). وكان محركها هو الباشا محمد علي، في إطار تقوية سلطته وتحديث مصر بدءا بالقوات المسلحة. وقد صاحب إنشاء جيش من نموذج جديد، يقوم على التجنيد، تشجيع وتنمية الصادرات المصرية في السوق العالمي. وكلا التجديدين يلفتان الانتباه لحالة الصحة العامة في مصر، وعلاوة على ذلك فرضت أوبئة الكوليرا العنيفة في ١٨٣١ والطاعون في ١٨٣٤-١٨٣٥ ضرورة تجنب تكرار هذه الكوارث "القومية"^(٢).

وكانت البلاد في ظروف صعبة، وفي نظر الأوروبيين عند حد الألم. ففي ١٨٤٦، بعد تسعة عشر عاما من بداية الإصلاح تظهر القاهرة لدكتور في أكاديمية الطب في باريس بـ ٢٠٠ ألف من السكان معظمهم فقراء و"قبيحون"، ومكدسون في بيوت مركبة كل منها على الآخر. مع قليل من الهواء بين الشوارع الضيقة غير المرصوفة. ومن النيل يؤخذ الطين المختلط بأجسام الحيوانات المتعفنة لبناء جدران البيوت والماء للوضوء اليومي. وفي العاصمة المصرية يوجد ٢٥ من ٣٥ مقبرة داخل الأحياء السكنية، والموتى لا يدفنون على أعماق كبيرة، طبقا للعادات المحلية.

والقاهرة هي المنطقة الأولى التي تظهر فيها ويبلغ عن حمى الضنك، التي تسمى في الإيطالية الحمى المكسرة للعظام. وفي ١٧٧٩ أعطت المدينة المصرية إشارة البدء للتعاقب السريع لحالات ظهور هذا المرض، الذي يضاف للآلام اليومية

مثل التيفود والجدرى والتهاب العين والدوسنتاريا. أى أن الموقف مأساوى، إذا أخذنا فى الاعتبار الوجود المكثف للفلاحين الذين يعيشون حياة بائسة ويرتدون ملابس رثة^(٣). وتظهر القاهرة زحاما زائدا بصفة خاصة فى فترة الحج إلى مكة، فهى نقطة مرور إجبارية كل عام لـ ١٠-١٥ ألف مسلم محملين بالبضائع والأثاث، والقادمين من ثلاثة اتجاهات كبيرة. وإذا كان أحد هذه الاتجاهات مصابا فإن العدوى تصبح فى غاية السهولة.

وكانت الإسكندرية أيضا نقطة مرور إجبارية للحجاج فى ذهابهم وعودتهم من مكة؛ وفى الوقت نفسه كانت الإسكندرية هى الميناء المرجعى على البحر الأحمر، وعلاوة على ذلك هى نقطة التقاطع لمحور الشمال - الجنوب مع إسطنبول ومحور الشرق - الغرب مع المغرب من ناحية وسوريا من الناحية الأخرى. ولكن هناك محور آخر، "أطول" تقع عليه المدينة، وهو المحور الذى يربط الهند بإنجلترا، بمساء يبدأ من بومباى إلى السويس ومن هنا إلى القاهرة والإسكندرية لكى يستأنف بعد ذلك إلى مالطة، وإلى مرسيليا وإنجلترا. وفى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كان هذا الطريق فى أوج تطوره، فهو مندرج فى الإطار الكبير للإمبريالية البريطانية والتطور التكنولوجى لنظام النقل داخلها^(٤).

ومع بناء الميناء الغربى، بإلهام من محمد على، ستصبح الإسكندرية العاصمة البحرية للبلاد. وفى خمسين عاما سيتزايد عدد سكانها بصورة مذهلة^(٥). وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر يصل عدد السكان فى المدينة مما يقرب من ٢٠ ألف نسمة فى ١٧٥٠ إلى رقم يقدر ما بين ٥ و ٨ آلاف نسمة. ولكن بداية من ١٨٢٠ نجعل سياسة محمد على الجديدة منها محور الاتصال مع أوروبا، و"الصينية الدوارة" نحو البحر المتوسط، والقاعدة العسكرية والبحرية، ونقطة القيادة العسكرية؛ ويصل عدد السكان إلى ٦٠ ألف نسمة فى ١٨٣٥ طبقا للقنصل الفرنسى ديليسبس^(٦).

وقد كان نموا يتعرض كثيرا للعرقلة، بسبب تكرار الأوبئة؛ وفى مقدمتها

أوبئة الطاعون. وعلاوة على ذلك فإن تدفق العديد من آلاف الأشخاص من البحر والبر إلى الإسكندرية يخلق موقفا محفوفا بالمخاطر الوبائية المستمرة. وقد حاول محمد علي مواجهة هذا الموقف الدرامي بتأسيس أول مجلس للصحة في الإسكندرية في ١٨٢٧، وأتبعه في العام التالي بتحويل بعض المخازن الكبيرة في شبه جزيرة عزبة البرج بالقرب من دمياط إلى مراكز للحجر الصحي، وفي هذه الهيئة تطبق تعليمات جهاز الحجر الصحي، على الطراز الأوروبي باتباع الاتجاه العام لسياسة الباشا المصري. وفي الواقع وطبقا لـ "بانزاك" كان محمد علي قد وافق بالفعل منذ ١٨١٥ على محاربة الطاعون بمختلف الوسائل^(٧)؛ ومع ذلك فإن التحول الحقيقي يحدث في بدايات الثلاثينيات، بعد أن ينجح محمد علي نفسه في أن يكسب لصفه علماء الدين، دكائرة الشريعة الإسلامية.

ويرجع آخر ظهور للطاعون في مصر، قبل واقعة دمياط في ١٨٣١، التي اكتشفت على الفور وأوقفت، يرجع في الحقيقة لعام ١٨٢٤ / ١٨٢٥. فكان الطاعون قد ظهر في السنوات ١٧٨٣، ١٧٨٥، ١٧٨٨، ١٧٩٠، ١٧٩٤، ١٧٩٦ / ١٧٩٧، ١٨٠٠، ١٨٠٣، ١٨١٠، ١٨١٢، ١٨١٥، ١٨١٨. وبعد عامي ١٨٢٤، و ١٨٢٥ كانت هناك حالات ظهور في ١٨٢٨ و ١٨٣١^(٨)، وفي ١٨٣١، بعد اندلاع الحرب الصريحة بين الباشا والسلطان، قام الجيش المصري بغزو سوريا، بقيادة ابن محمد علي. وقد أصيبت هذه المنطقة بعد ذلك على الفور بالطاعون، الذي نزل في بيروت مع سفينة رحلت في ١٣ نوفمبر من القسطنطينية "الملوثة" ووصل إلى الإسكندرية. وبعد أن تقرر لها هنا حجر صحي لمدة ١٩ يوما، مات فيها أربعة من الركاب البالغ عددهم ٩٥ راكبا، وقد أقنع تشخيص الطاعون الذي قام به الدكتور الإيطالي فرانشيسكو جراسي لجنة الصحة بإبعاد السفينة، التي تتجه بمقدمتها جنوب بيروت بقيادة القبطان حسين. وتصاب سوريا التي لم يمسه الطاعون في الوقت نفسه وتهدد العدوى بالوصول إلى أكرى، التي كانت تحت حصار إبراهيم باشا.

وعند هذه النقطة يتعين على الجيشين المشاركين في الخلاف على سان

جوفانى داكرى للدفاع عن أنفسهم ضد عدو مشترك ثالث رهيب: الوباء. ويسارع الجيش المصرى بقيادة إبراهيم بإحاطة نفسه بسياج صحى للدفاع عن نفسه ضد هجمات الطاعون. ويستدعى الباشا تقنية أوروبية، وينجح هكذا فى إنقاذ قواته المسلحة ولا ينجح بالطبع فى السيطرة على تحركات الحجاج إلى الأرض السورية.

ويواصل جانب من أولئك الذين نزلوا من السفينة الملعونة بقيادة الكابتن حسين الطريق إلى مصر على سفينة أخرى، تتجه صوب دمياط، وهنا على الرغم من الأوامر الصحية الصادرة، يستقبل المحافظ خليل بك البعض منهم فى مسكنه. وكان من نتائج هذا التهور فقدان ثمانية أشخاص من عائلة المحافظ نفسه، بينما سقط العديد من الضحايا من مختلف العائلات فى المدينة.

وسرعان ما تقرر لجنة الصحة فى الإسكندرية إرسال الدكتور فراشيسكو جراسى إلى دمياط وهو واحد من الأوروبيين الذين وصلوا إلى البلاد بناء على استدعاء من محمد على ومقيم فى الإسكندرية منذ ١٨٢٤. ويمتلك الطبيب الإيطالى الموظف فى المستشفى الأوروبى السكندرى تحت تصرفه عددا من السلطات الواسعة يمد من خلالها سياجا صحيا حول المدينة والقرى المجاورة ويبدأ سلسلة من الإجراءات من بينها فصل الأصحاء عن المصابين والتدخين وحرق المتعلقات الشخصية للمصابين بالطاعون. ويحتجز الطاعون داخل السياج وتكون النتيجة إيجابية من ناحية الصحة العامة، وفى ثلاثة أشهر، بين يونيو وأغسطس ١٨٣٢ يموت فقط ٣٠٠ من السكان يبلغ تعدادهم ٢٠ ألف نسمة.

وعلى الرغم من النجاح الطيب للمعركة ضد هذه النوبة من وباء الطاعون، يظل عام ١٨٣١ فى الوقت نفسه عاما كارثيا بالنسبة لمصر بسبب الكوليرا، "قالزيارة" الأولى لها تضرب البلاد بعنف شديد حتى إنها ظهرت من أشد الأوبئة فى التاريخ المصرى.

وفى بحر شهرين يقتل المرض ما يقرب من ١٥٠ ألف شخص، وفى ٢٨ يوما فقط تقتل من ٢٥٠ ألفا وهم سكان القاهرة عددا كبيرا يبلغ ٣٦ ألف ضحية؛

وفى ٤٠ يوما ١٢ ألفا فى الإسكندرية. وفى تلك المناسبة يحاول مكتب الصحة فى الإسكندرية، المؤلف من القناصلة العموميين لإنجلترا وفرنسا والنمسا وتوسكانا وروسيا مواجهة الكوليرا بالإجراءات نفسها المستخدمة لمواجهة الطاعون. ولا تنجح العملية؛ وتعترف جلسة للمكتب الصحى به بأمانة قبل أن يحل نفسه بقليل^(٩).

وعلى الرغم من هذه الانتكاسة، تخلف اللجنة الأولى فى العام التالى (١٨٣٢) لجنة صحية، مع الوجود المؤثر لقناصلة روسيا والسويد وإنجلترا الموجودين فى الإسكندرية. وكانوا هم الذين أشرفوا بالتناوب على تطبيق مواد الحجر الصحى، التى تبينت فعاليتها فى الوقت الذى ترسو فيه فى ١٨ سبتمبر سفينة شراعية نمساوية قادمة من القسطنطينية وتتخذ اللجنة إجراءات مشددة لضمان سلامة الإسكندرية، بعد أن علمت أن السفينة التى يقودها القبطان ماركو سكاليارين نجا منها هذا الأخير فقط من إصابة الطاعون الذى راح ضحيته اثنان فى أثناء الرحلة.

وفى ٢٦ نوفمبر ١٨٣٣ تصل إلى الميناء السكندري سفينة من جزر إيونييه "ليونيداس" التى تحمل على متنها مائة من الركاب وبكتريا الطاعون. وعلى الرغم من إبعاد الحجاج فى الحجر الصحى فإن ٢٤ منهم يموتون. وفى أعقاب ذلك بعد اتخاذ إجراءات العزل أيضا بالنسبة للبضائع، يتم "فحص" عام للركاب واغتسال بالماء المشبع بكلوريد الكالسيوم. وهكذا يتم حصار الطاعون ويقضى عليه. ولكن التنظيم الصحى لا يزال يبدو غير مكتمل، ويعطى تعليمات محددة للرحلات البحرية القادمة، مع نتائج قيمة أيضا، ولكنه يهمل أن يأخذ فى الاعتبار الرحلات الداخلية. وبالتالى تتم هذه الرحلات حتى ١٨٤٢ حرة ومستقلة عن أى قيد صحى^(١٠).

وسوف يظهر المرض من جديد فى ١٨٣٤، بعد وصول سفينة شراعية يونانية قادمة من قبرص إلى الإسكندرية. وطبقا للرخصة الصحية كان لابد أن يكون على متنها فقط بعض حالات التيفود؛ ولكن بمجرد نزول وسكن المسافرين، يتفشى الطاعون فى الدير اليونانى الذى استضافهم. ولمواجهة الموقف الطارئ فى

الخط الأول كان هناك مرة أخرى الدكتور جراسى؛ وفى تقرير مسلم للقنصل الإنجليزى فى ١٨٣٩، يقول الطبيب الإيطالى إنه مقتنع بأن الطاعون المصرى ليس من أصل محلى، ولكنه قادم أيضا من الخارج^(١١). وبالتالي فإننا نفهم حساسيته إزاء الأحداث الوبائية التى تشمل، أو يكون حتى أبطالها من الأشخاص " الأجانب".

وبالتالى فإن جراسى يذهب على الفور، فى ذلك العام المشئوم ١٨٣٤، فى ٧ يوليو لتفتيش الدير اليونانى ويقرر وضعه تحت الحجر الصحى بعد أن أخبر بذلك لجنة الصحة. وللأسف تكون خمسة عشر يوما على رسو السفينة الشراعية اليونانية واستأنف رهبان الدير حياتهم المعتادة من الاتصالات وتبادل الزيارات.

وفى الوقت نفسه نعلم أن بعض ملابس سكرتير البطريرك، التى أصيب كلاهما بالطاعون، أرسلت إلى قرية قريبة لتغسل.

وفى هذه الرحلة بالذات المؤلفة من ١١٠ أشخاص، لا يتأخر الطاعون فى الظهور؛ وبالفعل تحدث ١٨ حالة وفاة فى ١٦ يوما ويحمل الضحايا علاماته. وتؤدى الإجراءات الصحية المطبقة فى القرية فقط إلى إنقاذ الباقين على قيد الحياة، فتظهر المياه بالدخان "وتعطر" المتعلقات الشخصية للسكان وممتلكاتهم القليلة، ولكن فى الوقت نفسه تكون قد حدثت فى السابق اتصالات بين القرية والمدينة، وتنتشر جرثومة الطاعون ويتفاقم الطاعون لعدة أشهر فى دلتا النيل وفى القاهرة. وعند هذه النقطة يتقرر إقامة سياج صحى حول الإسكندرية؛ وقد أخره – ويبدو أن هذا تكرار لقصص أوروبية قديمة – احتجاج التجار وافتراض الأطباء الذين يعاندون فى عدم الرغبة فى الإعلان عن أن المرض السارى فى السكان هو الطاعون^(١٢).

وفى الخلاف الحاسم للطبقة التجارية هناك شىء جديد بالقياس لخمس سنين سنة قبل ذلك: أن مواقف التجار الأوربيين والسكندريين تتكامل بالتبادل.

فالفريق الأول، فى نهاية القرن الثامن عشر يبدو أنهم لا يزالون جالية صغيرة محددة حول قنصلية دولتهم، وجماعات تعيش حياة معزولة مع اتصالات نادرة مع السكان المحليين.

وعادة يتعلق الأمر بعشرة — خمسة عشر من التجار، المحاطين بعدد مماثل من المساعدين وبعض الحرفيين، وبعض الدكاترة والعديد من الموظفين فى القنصلية. ومن بين الأشخاص الذين كانوا على اتصال بهم هناك "الوسطاء" الأساسيين من الأوروبيين، من ناحية، والمستهلكين والمنتجين، من الناحية الأخرى؛ وهم غالبا من ممثلى الأقليات، مثل الأرمن والوانيين أو اليهود؛ وكانوا مستعدين حتى للإحلال محل التجار الغربيين عندما كان هؤلاء ينفون أنفسهم أثناء الأوبئة فى البلاد^(١٣).

وطوال القرن الثامن عشر لا يبدو أن الجاليات الأوروبية المعزولة والصغيرة لها أى دور فى إدارة الصحة العامة؛ والمجال الإصلاحى الذى فتحه محمد على فقط هو الذى سمح لهم باكتساب ثقل ما، وفى العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر تظهر الإسكندرية بجاليات أكثر عددا "من الأجانب" وأكثر اندماجا مع المجتمع المحلى، حتى إن هذا أدى إلى مقاومة مشتركة للإجراءات الصحية. ويمكن الحديث أيضا عن المقاومة أيضا عند "الناس العاديين"، السكان المصريين، حتى وإن لم تكن قائمة على النقاش بين أنصار نظرية العدوى. والمناوئين لها.

وعلاوة على ذلك يرفض السكان المصريون الخضوع للإجراءات المقترحة من الدكتور جراسى، الذى يتعين عليه فى ١٨٣٤ طلب مساعدة الجيش ويحصل عليها ببعض المشقة — لعزل مختلف القرى وإجبار السكان على أن يغمروا أنفسهم مع كل متعلقاتهم الشخصية فى النيل. وينظر كبير الأطباء الأوروبيين الموجودين فى مصر، كلوت بك، للإجراءات على أنه مفيد؛ ولكنه أدى بالتأكيد إلى غرق القمل المختبئ فى الأجساد والملابس.

وما يحدث داخل مدينة الإسكندرية يوجد شاهد مهم عليه هو الدكتور الإنجليزى جيمس ليدلو^(١٤). وعندما تأكد وجود المرض فى المدينة، وضع السكان الأوروبيون أنفسهم فى حجر صحى ذاتى؛ وأغلقوا على أنفسهم أبواب منازلهم ولم

يتسلموا شيئاً لا يخضع لعملية التبخين أو الخل والماء. وتتخذ لجنة الصحة إجراءات مشددة، مع الأمر بإغلاق المنازل التي يوجد فيها مصاب ونقل كل السكان إلى الحجر الصحي. ويروى الإنجليزى ليدلو وهو خائف كيف أن قسوة المكتب الصحى لم تتوقف أمام أبواب الفندق الأوروبى الذى يتردد عليه كثير من الأوروبيين؛ فبعد وصول خبر بوجود حالة مشتبه بها فى الفندق، تحاصر قوة من الجنود المبنى ساعة الغذاء، وتفتش أربعين شخصا، وكثير منهم كانوا قد دخلوا قبل ذلك بقليل للغذاء. وعلى الرغم من الاحتجاجات ينقل الجميع إلى الحجر الصحى وهناك يحتجزون "للتطهير" لمدة أربعين يوما.

وعلى الرغم من قسوة الإجراءات الصحية المتخذة، وعلى الرغم من مراقبة جميع السفن القادمة من موانئ مشبوهة، فإن المرض انتشر وحمل معه خطا طويلا من الضحايا. وفى ١٨٣٧ فقط يتوقف الوباء، لكى يظهر من جديد فى ١٨٤١. وتظهر هنا من جديد أيضا المقاومات القديمة لنظام الحجر الصحى، ولكن إصرار الباشا المصرى لا يضعف أبدا.

وفى الثامن من ديسمبر ١٨٤٤ تعالج فى مصر الحالة الأخيرة من الطاعون ومنذ تلك اللحظة يختفى المرض من البلاد.

وحتى إذا كان دور كلوت بك فى واقعة الوباء المحددة فى (١٨٣٤) — (١٨٣٧) يبدو سلبيا، فإن الفضل يرجع أيضا لوجوده ولنشاطه الذى يضع فى الميدان جهازا متعددًا من المؤسسات الصحية المقدر لها أن تحارب الطاعون وأمراضا وبائية أخرى موجودة فى مصر.

وهنا يبقى الطبيب الفرنسى الذى حصل على الجنسية المصرية، لمدة ٢٤ عاما، يتعاون خلالها مع الإرادة الإصلاحية لمحمد على لإنشاء مجلس الصحة المصرى، والمستشفى العسكرى ومدرسة الطب فى أبو زعبل (التي ستؤهل ٦٠٠ من مسئولى الصحة، ومنهم ١٢ تخرجوا فى الجامعة فى باريس)، ومدرسة اللغة الفرنسية مزودة بقاموس تقنى — علمى فرنسى — عربى.

وقد تعاقبت ثلاث بعثات من الطلبة: الأولى فى ١٨١٣ إلى إيطاليا والثانية فى ١٨١٨ إلى فرنسا والثالثة، أيضا فى فرنسا، فى ١٨٢٦ وتكونت من ٤٤ من الشباب بين ١٥ و ٣٧ عاما (ولكن بأغلبية كبيرة بين ١٨ و ٢٤ عاما). "وقد عاد فقط ثمانية دون تخصص محدد وحصل أربعة عشر على الليسانس فى الآداب، و ٢٣ فى مواد العلوم ومن بينهم الطهطاوى الذى يعد واحدا من أعظم الشخصيات فى ذلك العصر" (١٥).

ولا شك فى التقدم الذى حققه الشباب المصريون فى التعلم، بعد أن أشركهم محمد على فى جهد التمكن من الأساليب الجديدة فى الفنون والعلوم؛ ويبدو أن هناك تقدما هائلا أيضا فى المجال اللغوى، على الرغم من رأى برنارد لويس المتشكك إلى حد ما فى هذا الشأن.

ومن ناحية أخرى يعترف المؤرخ الفرنسى نفسه بوجود العديد من الترجمات لكتب أوروبية عن "موضوعات مفيدة بالطبع، مثل الجغرافيا والعلم الطبى". وفى هذا المجال بالذات تم جهد كبير، وهو العمل على ترجمة الأعمال العلمية الأوروبية الأساسية إلى العربية، لأنها لا غنى عنها أيضا فى العملية التعليمية، التى يجب أن يتم فيها التدريس بالعربية (مع ما يصاحب ذلك من مصاعب ترجمة فورية تقريبا لدروس الأساتذة الأوروبيين فى المقررات الدراسية العليا المصرية). وقد اعتبر محمد على باشا ترجمة "الأمير" لماكيافيللى مهمة أيضا؛ وهى ترجمة لم تطبع لأن الباشا خلص إلى أنه لم يتعلم منها شىء، ولكنها وصلت إلينا على شكل مخطوط، لتشهد على الجوانب المتباينة فى شخصية الضابط الألبانى السابق. ويتجه النشاط المجدد للباشا المصرى إلى أرضية أرحب بكثير فى المجال الصحى، حتى وإن كان هذا يستحق عناية خاصة (١٦).

وهناك مستشفى عسكرى ثان، فى قصر العينى، ومستشفى مدنى فى الأزبكية، ومستشفى للتوليد ملحق بها مدرسة لأخصائيات التوليد، وحضانة للمتخلفين عقليا ومعهد للتطعيم ومتحف للتاريخ الطبيعى، وحديقة نباتية. وفى هذه

المؤسسات الجديدة يلاحظ أيضا إسهام الطبيب الفرنسي الأول والأهم الذى استدعاه محمد على من جديد، الدكتور كلوت بك. ويقوم هذا الأخير بدوره باستدعاء أطباء فرنسيين آخرين، مثل الضابط السابق "شاما" الذى قابله فى القاهرة جوستاف فلوبير وماكسيم دو كامب، الذى لا يدخر فى الوقت نفسه سخريته المنتقدة تجاهه. فالكاتب يؤكد بالفعل أن كلوت بك "نظم الخدمة الصحية فى الجيش المصرى بصورة سيئة وليست جيدة"^(١٧). وأخيرا - فيما يتعلق بأهم قطاع فى مكافحة الطاعون - كان تدخل كلوت بك له مغزاه بصفة خاصة فى تنظيم جهاز الحجر الصحى.

ويمكن أن توصف العمليات التى قام بها الطبيب الفرنسى اليوم بأنها "تعاون دولى"، ولكن كلوت بك لا يبدو بالضبط رائدا فيما يعرف اليوم بشخصية "المتعاون" بالمعنى المستخدم عادة هذه الأيام.

وقد عين محمد على فى ١٨٢٥ أنطوان كلوت، عضو كلية الطب فى مونبلييه لتنظيم الخدمات الصحية فى مصر. وقد وصل إلى البلاد بفضل العلاقة مع الباشا، ونجح فى القيام بعمليات وتعامل مباشرة مع الأحداث والمؤسسات والناس.

وقد بنيت مستشفيات وعيادات وأدخل نظام الحجر الصحى لوقف وباء الطاعون، وأسست سلسلة من المدارس الطبية لتدريب الدكاترة المحليين، وظهر تحسن فى ظروف حياة المصريين.

وقد قام محمد على بتعيين كلوت بك مديرا مدنيا بدرجة عالية مع منحه لقب "بك"، ثم قام بترقيته قائدا عسكريا برتبة سردار (جنرال) وقد استمد سلطته من حظوته عند الأمير، وعند وفاة هذا الأخير فقد هذه الحظوة وتعين عليه الانسحاب، ولكن النتائج بقيت، وأهمها اختفاء الطاعون من البلاد^(١٨).

وهناك نتيجة أخرى كبيرة تحققت من خلالها الإصلاح الصحى الذى شجعه محمد على: وهى وضع القواعد للوصول إلى اتفاق أساسى على الصعيد الدولى فى مواجهة الأوبئة.

وعندما يقوم الباشا المصري في ١٨٢٧ بتكليف الممثلين القنصليين بالسيطرة على الأمراض المعدية، تتأسس أول هيئة دولية للتعاون الصحي^(١٩).

ويمكن القول، بعد قرن ونصف، إننا نسمع أول صوت لمنظمة الصحة العالمية الحالية في الإسكندرية في ذلك العام وبارادة حاكم غير أوروبي. ويمكن أن نضيف أن القوى الغربية في تلك الفترة التاريخية لم تظهر ميلا للتعاون وقد شجعتها مبادرة محمد علي بصورة ما.

هوامش

- (١) هذا التاريخ الذي اقترحه فرارى ا.،
Della peste e dell amministrazione sanitaria
فينسيا، ١٨٤٠، فى المقدمة.
- (٢) كونه ل.
Pullis in Nineteenth-century Egypt Health، بير كلم، مطبعة جامعة كاليفورنيا،
١٩٩٠، ص ٣. بالنسبة للاهتمام الذى اثاره فى الطاعون عام، ١٨٣٤-١٨٣٥، انظر
Sulla peste che offlinse l'Egitto l'anno 1835، نابولي، من مطبعة وزارة الدولة
للسئون الداخلية، ١٨٤١
- (٣) تفاصيل الموقف المصرى توجد فى أندريوتشى ا.
Considerate nei loro rapporti politico-souiali ed igienico-sanitari Delle
quarantine
فلورنسا، ١٨٦٩، ص ٢٩-٣١ و ٦٦. بالنسبة لحم، الضنك وهو مرض شبه استوائى،
تنقله حشرة Aedes aegypti (بعوضة حمى الضنك) وبداية دورتها وحالات
ظهورها، انظر زينسر ه.
Rats, lice and History، بوسطن، شركة ليتيل براون، ١٩٤٥، ص ٨٥
- (٤) هيدريك د. ر.
AL servijis dell'impero. Tecnologia e imperialismo europesnell'Ottosento
بولونيا، المولينو، ١٩٨٤، ص ١٤٦.
- (٥) بانزاك د.
International and domestic maritime trade in the Ottoman Empire during
the 18th century
فى Jnt J. Middle East stud.، ٢٤، ١٩٩٢، ص ١٩٤، ١٩٥ و ١٩٩-٢٠٠.
- (٦) بانزاك د. Population et sante dans l'Empire Ottoman (xvllle-xxe siecles)

اسطنبول، إيزيس، ١٩٩٦، ص ٥٣-٥٤. للحصول على تقييم لنمو السكان المصريين خلال القرن التاسع عشر، والمميز في نصفى القرن، انظر للمؤلف نفسه

"The Population of Egypt in Nineteenth century"

Asian and African studies

في (حيفا، إسرائيل)، المجلد ٢١، رقم ١، مارس ١٩٨٧، ص ١١-٣٢.

(٧) بانزك د. La peste l'Empire Ottoman 1700-185. لوفيم، بيترز، ١٩٨٥، ص ٤٥٨.

(٨) بيانات التقويم المصرى الأسود مأخوذة عن مكارتي ج.ا.

"Nineteenth century Egyptian Population"

في Middle Eastern Studies عدد خاص عن اقتصاد الشرق الأوسط، المجلد ١٢، ١٩٧٦، ص ١٢، وهيرش أ.

Handbook of Geographical and Historical pathology

لندن، جمعية نيو سينهام، ١٨٨٣، ص ٥٠٥

(٩) كونكه ل. Lives، المذكور، ص ٥١ و ٥٤.

في ١٨٢٦ يعين جوزيه، أنشيري، قنصلا عاما للنمسا، بعد أن انتقل علم الفود إلى الإسكندرية، حيث سيبدأ أيضا كعالم للمصريات وهو ما سيحمله علم عبور البلاد علم، فترات متتالية بحثا عن القطع التي تولى اليوم مجموعة أنشيري التي تستضيفها قاعات قصر الشاي في مانتوفا.

(١٠) أندريوتشي أ. Delle quarantene...، المذكور، ص ٤٨، ٦٦-٦٨ و ٧٧-٧٩.

(١١) الدكتور فرانشيسكو جراسي، تقرير حول عدوى الطاعون موجه للسيد جون وينجفيلد لاركينج، قنصل صاحبة الجلالة البريطانية في مصر والادارات التابعة لها، في مكتب السجل العام وزارة الخارجية ٧٨ (المراسلات العامة لتركيا)، المجلد ٣٧٦، ٩ مايو ١٨٣٩.

(١٢) أندريوتشي أ. Dell quarantene...، المذكور، ص ٨٠

(١٣) بانزك د.، grternational...، المذكور، ص ١٩٣.

(١٤) وثيقة ٦ أغسطس ١٨٣٨، المرسلة من الدكتور ليدلاو إلى جون بولينج و المدرجة كخاتمة في بورينج ج.

Sulstance of olservations on Oriental Plague and on Quarantines, as a

Mean of Arresting its progress

الموجهة للجمعية البريطانية للعلوم، المجتمعة في نيو كاسل، في أغسطس ١٨٣٨،
إدنبير ه، ويليام تيت، شارع الأمير؛ في، "Report on Egypt and Candia"، الملحق
ف، لندن، ١٨٤٠، في PRO، وزارة الخارجية البريطانية ٧٨ (المراسلات العامة
لتركيا)، المجلد ٣٨١.

(١٥) فيرنت ج. EL glam y Europa، برشلونة إلأبير، ١٩٨٢، ص ص ١٦٥-١٦٦.

(١٦) لويس، ب.، L'Europa e L'islam، روما-باري، لترتسا، ١٩٩٥، ص ص ٨٠-٨٣:
"التقدم في تعلم اللغات الأوربية كان بطيئا" (ص ٨٠). يمكن أن يقال عن محمد علم،
أنه من أكثر الشخصيات المختلف عليها في التاريخ المصري: فالبعض يعتبرونه
زعيمًا عظيمًا له مخططات طموحة لاستعادة مجد مصر القديمة، و آخرون يعتبرونه
الديكتاتور الوحيد بعد الألف الذي جاء لاستغلال البلاد وشعبها. ولكن لا شك في أن
مصر تحت قيادته، عرفت عهدا من "النهضة". وبالنسبة للجهد الذي بذل في مجال
التعليم والمجال الإصلاحى بصورة أعم، انظر شفيق غربال م.

"La contrilution de mohamed ali à La solution de certains prollèmes
méditerranéens de son époque"

في، Annales du Centre Universitaire Méditerranéen (نيس)، ١٩٥٠-١٩٥١،
ص ص ٢٤-٢٥.

(١٧) دور كامب م. Attraverso L'Oriente con Flaubert، باليرمو، القرن العشرون،
١٩٨٦، ص ٩١.

(١٨) لايسون، La médecine coloniale. Mythes et réalités، باريس، سيجرز،
١٩٨٨، ص ص ٢٧١-٢٧٢. بالنسبة للسياسة العامة لمحمد علي في القطاع انظر شو
س. ج.، History of the ottoman Empire and Modern turkey كامبردج،
مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٧٧، المجلد ٢، ص ١١.

(١٩) كونكه ل.، Lives، المرجع المذكور، ص ٤.

مشكلات تاريخية بعض الملاحظات بشأن "الصيغة المصرية"

بيانكا ماريا
سكارتشا أمورتى

(١) إن أزمة القومية ظاهرة حالية ذات بعد عالمى. وهى تهم بصفة خاصة الدول العربية، ليس إلا بسبب استمرار قضايا قومية لم تحل وتشمل حتى الآن وبصورة ملحة بعضا منها؛ فتذكر على سبيل المثال القضية الفلسطينية والقضية الكردية. ومثل كل البلاد التى تعرضت بصورة أو بأخرى لأشكال من الاستعمار، وجد العالم العربى أيضا فى القومية العربية المذهب القادر على تعبئة الجماهير بهدف البدء فى تلك العملية من المشاركة الديمقراطية التى لا غنى عنها لتشجيع النهضة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. إلا أن البعض فى العالم العربى يشير بلفظ "القومية" إلى أفكار ومفاهيم مختلفة، حتى إنها تكون أحيانا متناقضة فيما بينها.

وقد كانت التجربة الواقعية — كفاح التحرير القومى، وإقامة دول قومية... إلخ، قد أعدت وصاحبته عمليات تاريخية مختلفة تبعا للخيار المذهبى الذى كان يتعين أن تخدمه — وكانت هناك نقطة وحيدة مشتركة: ضرورة العودة للماضى بحثا عن عناصر مؤسسة للهوية القومية، المفهومة على أى حال .

وقد اتخذت مثل هذ العمليات فى العالم العربى أهمية حاسمة، على الأقل بمعنى أنها بدت لجانب كبير من المثقفين المحليين أنسب للوفاء بدورهم فى تشكيل الوعى القومى. ومن الطبيعى إذن أن يشتمل الوضع الحالى على مراجعة تاريخية

أكثر عمقا، كما يبدو لى، مما يحدث فى التعاقب "الطبيعى" للتيارات والموضات^(١). ولا بد بالفعل أن نقيم كيف أن اتخاذ موقف بشأن الطوائف التحليلية العاملة على المستوى النظرى تتطوى أم لا على الصعيد العملى، على الانضمام لخيارات سياسية محددة.

وتظهر مصر كـ"حالة" نموذجية فى هذا الشأن لسلسلة من الأسباب. فهى من ناحية يمكنها، أكثر من بلدان عربية أخرى، أن توضح بالأمثلة أحد التناقضات التى كنا نشير إليها: الثنائية التى تمر بها وتميز كل القومية العربية، يوضح العروبة ضد الخصوصيات المحلية، و"المصرية" فى هذه الحالة، مع ما يرتبط بهذا من مشكلة الولاء الوطنى والتوافق المذهبى تجاه هذه المرجعية أو تلك ومن ناحية أخرى، هناك علاقة الاستغلال المتبادل - وهو لفظ له وزن غير سلبى بالضرورة - بين الطبقة الحاكمة والمتقنين الذين يعهد إليهم بواجب الوساطة فى الوفاق الشعبى، وغالبا ما طالب به البعض كهدف صريح فى كثير من أعمال المؤرخين المصريين طوال القرن التاسع عشر وفى جزء كبير من القرن العشرين.

وربما يكمن هنا أحد الأسباب التى أدت إلى وظيفة الزعامة المعترف بها لمصر تجاه باقى العالم العربى^(٢). وسواء أكان هذا هو السبب أو النتيجة فى الأمر، فهذا لا يهم كثيرا، فإن الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن الإنتاج التاريخى المصرى واسع ورفيع المستوى.

ومع ذلك فإنه يتضح فى مصر، أكثر من أى مكان آخر أن دور المؤرخ تجاه الدائرة السياسية قد تغير اليوم.

فقد كان متحدثا باسم السياسى أو منافسا له حتى الستينيات^(٣)، وبداية من فشل الناصرية، أصبح المؤرخ، وهو الذى كان ممثلا مميزا حتى ذلك الحين للموقف "الأصيل"، أصبح يتأثر بذلك التغريب المتزايد بين الثقافة والسياسة وهو ما يبدو اليوم مميزا لكل العالم العربى. والنشاط التاريخى يستمر^(٤)، ويبقى له مغزاه على صعيد تاريخ الأفكار وكإدانة لتلك المعاناة التى ينطلق منها، ولكنه لا يبدو

بالضرورة - على الأقل من وجهة نظري - كمؤشر للعمليات السياسية الجارية^(٥).

كل هذا يساعد في وضع إطار لمداخلتي. وبالربط بين أسماء وأعمال في فترات تاريخية مختلفة، ولكنها سابقة للعقود الأخيرة، أود توجيه الاهتمام لموضوعات تبدو لي حتى الآن متضاربة، ولكنها لا تزال ضرورية لفهم المصاعب التي تخوضها مصر وبصفة عامة الشرق الأدنى العربي. مع تحديد واحد، أن الملاحظات التالية هي فقط على سبيل ضرب المثل، دون ادعاء بالكمال ولا حتى بالإبداع في مجال إعادة قراءة المصادر.

(٢) إن نقطة الانطلاق يمكن أن تبدو مقبولة ظاهرياً؛ فالتاريخ الرمزي أو الجوهري الذي يشير إلى ميلاد مصر الحديثة هو ١٧٩٨ مع حملة نابليون بونابرت إلى مصر، أم ١٨٠٥ مع استيلاء محمد علي على السلطة؟ هذه نقطة مقبولة ظاهرياً، حيث إن الفارق الزمني محدود بين الحدثين، وعلى العكس من ذلك يبدو واضحاً جداً الترابط بين الحدثين أنفسهما.

والسؤال في الواقع ليس من باب الكسل لأنه ينطوي على موقف بشأن القومية الفرعية أو العربية أو المصرية.

والإجابة بصورة أو بأخرى تعني إخضاع دخول مصر مرحلة تاريخية جديدة لدافع خارجي أثر على التغيرات الجوهريّة، أو أكد على أن مصر الحديثة هي الناتجة عن عملية محلية، تسارعت ولكن لم يشعل شرارتها الاحتلال الفرنسي. ويترتب على ذلك الحكم على محمد علي.

ففي الحالة الأولى يمكن النظر لعمله كمجدد على أنه طبيعي، في إطار وظيفته لحاكم عثماني مستنير وطموح بصورة خاصة.

وفي الحالة الثانية، يصبح المحفز لعملية ستسمح لمصر، بالفعل، مع خلفائه المباشرين بأن تظهر كدولة قومية^(٦).

وبالتالى فإن القضية التى أود التوقف عندها تظل مفتوحة. وبالفعل إذا كان إنشاء مصر الحديثة ينطوى بالضرورة على ميلاد القومية، أى فكرة علمانية، حتى عندما تسهم بالتعبير عن نفسها بلغة فكرية إسلامية، فلا بد أن نحدد ما إذا كانت هذه القومية، وبالذات فى الفترة الأولية، قد صيغت بكلمات عروبية أم مصرية. وهى "مصرية" - ويجب أن نلتفت لهذا جيدا - لا تختزل فى "هوية عملية معاشة ووجودية، كمبدأ للتعرف والتمييز"، "يشهد عليها دليل من الاستمرارية البيئية والإنسانية والثقافية التى لا تنفصم.."^(٧). و يجب ألا تفهم أليا كحقيقة مكملية للعروبة، ولكن كوعى وهوية محددة يجب أن تحدد بصورة مستقلة، أى بصرف النظر عن الانتماء للعالم العربى، حيث يمكن حقا أن تصح المعادلة:

مصر = مصر وما يترتب على ذلك من تأييد لافتراض وجود خط من الاستمرارية فى "تاريخ" البلاد، وافترض "تواريخ" أخرى تعاقبت فيها.

(٣) لنأت إلى المادة التى يقوم عليها تحليلى. إن المؤرخين - وهم قلة - الذين سيستخدمون كمثال اختيروا على أساس شهرتهم، هنا وفى مصر، حتى بالنسبة لجمهور غير متخصص. والأعمال التى سيشار إليها، وقد كانت أعمال الحقبة الناصرية ذات إلهام ماركسى غالبا^(٨) ليست أكاديمية، بالمعنى الضيق للكلمة، على الرغم من أنها صممت طبقا لمعايير علمية.

وهى تظهر كأعمال مهمة، كخلاصة للتاريخ المصرى، حتى عندما يكون هدف بحثها أحداث وظواهر أو فترات غير محدودة، بمعنى أنها تهدف دائما لتقديم مفتاح لقراءة الماضى وأيضا إرشادات وتصورات بشأن المستقبل.

وهذه بعض الكلمات عن مجمل الإنتاج التاريخى المصرى الذى تمثله. إنه إنتاج يوزع على مسافة قرنين بطريقة غير ثابتة بالطبع، ولكنها تسمح بمقارنات دقيقة بين ما هو شهادة مباشرة ورأى آخر لاحق. وهو بالفعل فى نهاية المكان إنتاج لا يغيب عن بصره القرنان الماضيان من التاريخ المصرى اللذان يقابلان، بالإجماع، تاريخ مصر الحديثة^(٩)، حتى عندما يتجه للماضى العربى وأيضا

الفرعونى. واللغة المستخدمة هي بالطبع العربية، ولكن هناك أيضا أعمال كثيرة بالفرنسية (وأقل بالإنجليزية)، دون اختلافات نوعية كبيرة .

ولهذا أيضا، كما كنا نقول، فإنه إنتاج معروف. ولم ينتشر فقط في البلاد، ولكنه تمتع أيضا بجمهور استثنائي، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار التأخير الذى أدخلت به نصوص فى دوائر ليست ناطقة بالعربية تحديدا أو دوائر العاملين فى هذا المجال، وهى نصوص قيمة، لمؤلفين عرب غير مصريين حول موضوعات متشابهة جوهريا^(١٠). وهذه ثمرة بلا شك للزعامة المصرية، كما ذكرنا من قبل، علاوة على البعد العالمى الذى احتفظت به مصر حتى الثورة الناصرية، مشتملا فى الوقت نفسه على حقيقة أنه بالنسبة لأى مصرى لم توضع معرفة لغة أوروبية كبديل إجبارى عن العربية. وبالتالي فإن استخدامها لم تكن له نتائج تغريبية حدثت، على سبيل المثال، فى الحالة الجزائرية. وبالتالي فإن مصر هدف أولى لتحليل، وهذا أمر بديهى، إن لم يكن، على العكس من ذلك، خيارا داخليا فى ذلك التعارض المحتمل بين "العروبة" والمصرية، وهى العقدة التى يتعين مواجهتها .

(٤) على الرغم من الأولوية التى تعطى، كما قلت فى حديثى، للأعمال الشعبية والموجزة، إلى حد ما، فإننى لا أستطيع أن أتغاضى عن أهم مصدر بالنسبة للسنوات ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: الجبرتى. ويمكن أن يبدو هذا اختيارا غير مناسب، نظرا لأنه بحكم أنه شاهد عيان للأحداث، فإنه لا يرد فى أعماله ولا يمكن أن يرد بوعى، بمعنى أو بآخر على السؤال المطروح. ولكن الجبرتى مرجعية إجبارية لكل المؤرخين اللاحقين وقد اعتمدوا عليه فى أعمالهم لتقييم معنى الاحتلال الفرنسى فى التطور اللاحق لمصر^(١١).

ويؤكد الكثيرون أن الجبرتى يختم تقليدا تاريخيا أكثر من كونه يفتح تقليدا جديدا، حيث إنه مقلد لطريقة فى التأريخ من النوع الحولى، يفضل التفاصيل على الإيجاز، ويجد أن من الضرورى اللجوء إلى ترجمة الرجال اللامعين، ربما فى صورة نعى، لاستكمال ضرورى للأحداث العامة التى يقدم تقريرا عنها^(١٢).

وهذا يضعه على خط التاريخ الإسلامى فى القرون الوسطى، الذى عرف مبكرا جدا تمييزا بين الأجناس التاريخية تواريخ عامة وتواريخ إقليمية^(١٣). ولكنه بفضل "مشاركته الانفعالية العميقة" - التى جعلت بعضهم يقول إنه كما لو كان "يكتب عن لحمه ودمه" - أوقف تدهورا فى جنس التاريخ لدرجة أنه نفذ موضوعية يمكن أن تستخدم كنموذج لأى مؤرخ أوروبى حديث^(١٤)، عندما تناول الاحتلال الفرنسى، حتى وإن كان ذلك باسم حب "بلاده".

وهنا نبرر الانطلاق من الجبرتى بالذات. وبالفعل يمكن أن يمثل الجبرتى، فى رؤية تاريخية قومية، بالمعنى الإقليمى^(١٥) أول مؤرخ لمصر الحديثة، وبالتالي فإنه يقدم مثالا "للمصرية" فى مواجهة "عروبة" قادمة، حيث قد لا يمنعه الولاء المحتمل للتقاليد من أن يكون مجددا فى رؤية مصر والمصريين التى يطرحها. ويبدو النقد الغربى أكثر اهتماما بالمشكلة من المؤرخين العرب - المصريين. وتسير موضوعيا فى هذا الاتجاه تحليلات لكيفية تغير موقف الجبرتى، خلال بضع سنوات، إزاء الوجود الفرنسى فى مصر^(١٦).

وطبقا لقراءة سطحية إلى حد ما، فإنه ربما يكون هناك دور حاسم الواقعة شخصية كان فيها منفيا عن القاهرة وضحية للنظام الجديد، ثم "متعاوننا" وأخيرا مؤيدا نشيطا ليوسف باشا، الوزير الذى يرجع إليه الفضل فى استعادة السيادة العثمانية فى البلاد^(١٧). وهناك تحليل أكثر دقة يميز فى إنتاجه ثلاث فترات:

فترة تسبق الاحتلال الفرنسى (١٧٧٦/١٧٧٧ - ١٧٩٨)، وفترة ثانية تبدأ من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٥، وأخيرا فترة ثالثة تغطى الحقبة التالية لمجىء محمد على، حتى ١٨٢١.

والتغيير المذكور موثق بالفارق بين ما كتبه الجبرتى فى "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين" فى ١٨٠١ عندما ترك الفرنسيون مصر بالفعل، وذلك الجزء من عمله الأشهر وهو "عجائب الأثر فى التراجم والخبر" والمخصص للموضوع، والمعروف بـ "تاريخ مدة الفرنسى فى مصر"، الذى ينظر إليه على

أنه معاصر للأحداث^(١٨). وقد توقفنا بصفة خاصة عند تعليق الجبرتي، المذكور في الـ "مظهر"، ولكن ليس في الأعمال التالية على الإعلان الفرنسي الشهير في يوليو ١٩٩٨ بعد الاستيلاء على الإسكندرية، الذي يتحدث مرارا ليس فقط عن التعاطف الفرنسي تجاه الإسلام، ولكن عن التطابق الجوهرى للرؤية الدينية بين المصريين والمحتلين. وأهمية الحذف كبيرة، حتى إن واحدة من أحدث وأدق الترجمات للـ "عجائب" لم تدخر وسعا في إدخاله على أى حال في النص^(١٩). وهو احتجاج سليم تماما. والإعلان، المعروف جدا في الوقت نفسه، ولا يتطلب منا إعادته هنا بالتفصيل، يشجب الجبرتي فيه الجهل الفرنسي بالإسلام وسوء النية حيث يصر البعض على وحدة الدين.

وبتحليل يتوقف عند المصطلحات المستخدمة والنتائج الدينية المرتبطة بها، يبدو أن الجبرتي يقترح صورة للفرنسيين على غرار صورة القرون الوسطى الكلاسيكية للكافر.

ويترتب على ذلك حكم بالدونية يبر به المؤلف عن نفسه أيضا بألفاظ أكثر شخصية بوصفه عالما وعضوا في عائلة شهيرة في الأوساط الدينية^(٢٠).

والأمر لا يتعلق بانتهازية سياسية؛ فالفرنسيون أصبحوا الآن بعيدين وعاد السيد القديم — وهذا يتضح في العجائب، في قمة ملحمة محمد على، من أنه لا يتوانى عن انتقاده لأنه لم يكن على مستوى التوقعات، وقد فعل ذلك بكلمات مشتعلة دفعت النظام لفرض حظر على نشر العمل^(٢١). نحن بالأحرى أمام تطور سياسى للمؤلف الذى يستنتج عدم التلاحم بين الأيديولوجية التحررية، والتى تدعو للمساواة التى يدعو إليها بونابرت، والتى ستتلخص فى الشعار "حكومة مصر لمصرى"، وفرض "اليد العسكرية" للسلطة الفرنسية^(٢٢)، وهو ما لا يستبعد، من جانب الجبرتي نفسه، إعادة النظر والأسف بعد ذلك، عندما يقارن بين طغيان نظام محمد على والمساواة النسبية "للكفرة" الأجانب .

ولكن كيف تبدو مصر والمصريون، بين مطرقة الفرنسيين وسندان محمد

على؟ إن العقيدة الدينية لا ترتسم دائما لعنصر للهوية. وربما كان الفرنسيون أيضا غير مؤمنين، ولكن هذا ليس بالطبع الشيء الذى يبرزه الجبرتى بصورة أولية فى "العجائب"، كما أن الانتماء للإسلام ليس هو الذى يميز العثمانيون، عندما توصف عودتهم للبلاد، على الرغم من أنه يشار إليهم أحيانا من ناحية أخرى بأنهم مسلمون، مثل المصريين.

وفى الواقع لم يتم تحليل دقيق لمصطلحات الجبرتى للأسف، لأن استطلاعات الرأى القليلة أيضا التى تمت على المجلد الثالث من العجائب تقدم بعض المنطلقات المهمة للتدبر^(٢٣).

ولفظ "مصريون" مستخدم بصفة خاصة عندما ينقل الجبرتى حرفيا تقريبا خطب وإعلانات وآراء الفرنسيين. وإلى جانبه، ربما بتكرار أكثر، تعبيرات من نوع: أهل مصر، أهالى مصر، حيث تلعب الازدواجية دورها بالذات فى لفظ "مصر" الذى يشير كما هو معروف للدولة وعاصمتها. وهناك إبهام مماثل أيضا فى "أهل مصر"، وهو بالتأكيد أكثر التعبيرات تكرارا واستخداما.

ولا تغيب كلمة "رعية" للإشارة بصورة مبهمة للشعب. والصيغة المتعلقة بذلك وهى "مصرى" تظهر بانتظام إذا كانت تصف الجيش والمتقنين والتجار... إلخ، وليس فقط سكان القاهرة. والمصطلحات الدينية التى تقول إن أهالى مصر مؤلفون من أقباط ومسيحيين سريانين وأرمن ويهود... إلخ، محدودة دائما. والطوائف المنفردة تبعا لنظام "الملل" التى ستؤسسها التنظيمات ستسمى باسمها عندما يكون لها دور بارز بالفعل أو مسئولة عن الأحداث التى يسجلها الجبرتى ويبرز أول تقييم محتمل، حتى وإن كان ذلك يجب أن يؤخذ كمجرد افتراض للعمل. ويرى الجبرتى أن مصر تصور ككيان واقعى، ووعاء محدد يميز بدوره المحتوى وهو المصريون بالذات مع الإشارة للديانة الإسلامية وغير الإسلامية، على سبيل المثال "أهل العرب"، الذى عندما يذكر يشير صراحة لشبه الجزيرة العربية. هل هذا شيء جديد أم أنه مجرد استمرار لتقاليد أخذت دائما فى الاعتبار بالنسبة للفرد

وكذلك بالنسبة للجماعات الاجتماعية، تعدد الانتماءات، وخاصة الانتماء الدينى والبلدى، إذا جاز التعبير (الإسلام من ناحية فى أنظمته المذهبية أو التى يأتى منها من الناحية الأخرى)؟

وبدلاً من السعى لإجابة قد تكون متعجلة، وبالتالى اعتباطية، سنأخذ فى الاعتبار بعض العناصر الأخرى. إن أوصاف مصر التى تدهشنا غالباً فى الجبرتى، وهى غالباً منسوبة للفرنسيين فى الجزء المدروس، تتفق مع نوعيات من "الفضائل"، معتادة فى الجغرافيا وفى التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى.

"إن مصر مركز واحد، وهى من أخصب البلدان. وقد جذبت دائماً التجارة من أقاليم بعيدة". "والعلوم والفنون والقراءة والكتابة، كما يعلم العالم، هى أمور معروفة عند أجداد السكان الأوائل فى البلاد. ولأن لها هذه الخصوصية فقد رغبت الأمم دائماً فى حكمها"^(٢٤).

والحقيقة التى يمكن أن تكون لها قراءة جديدة، وهى تعريف الأمم التى غزت مصر ومسئولة عن مصاعبها على أساس عرقى وليس دينياً — البابليون واليونانيون والعرب والأتراك — لا تعليق عليه، ويجرى تسطيحه ربما على أساس مفهوم العصور الوسطى الكلاسيكى الخاص بتعاقب الأمم على مسرح التاريخ. ويمكن أن يؤكد هذا الأمر ابتعاد كاتبنا إزاء الماضى الفرعونى، الذى سيتحدث عنه المؤرخون اللاحقون كعنصر أساسى للمصرية: ويعلق الجبرتى، بشىء من السخرية، على الاهتمام الأوروبى بالحضارة المصرية القديمة. وفى حديثه عن بعثة أثرية إنجليزية لأهرامات الجيزة يعلق قائلاً: "بحكم طبيعتهم ورغبتهم، هم يحبون دراسة الأشياء الغربية والاهتمام بالتفاصيل والتفاهات وخاصة الأطلال القديمة والأحداث المدهشة فى البلاد واللوحات والتماثيل المكتشفة فى مغارات أو فى مقابر قديمة فى صعيد مصر وأماكن أخرى. وبعض هؤلاء الإنجليز ينتقلون فى كل العالم لهذا الهدف، منفقين مبالغ طائلة من أموالهم"^(٢٥).

ولكن هناك زاوية أخرى للرؤية تبدو لى معقولة. أن الجمل المتكررة فى

الجبرتي للحديث عن مصر تعتمد دائما على فكرة الأرض: البلاد المصرية، الأرض، الأراضي المصرية، الديار المصرية، الأقاليم المصرية... إلخ.

وهي بالطبع ليست تجديدية، ولكن لأنها توجد بالذات في سياق خاص، من التعارض الموضوعي مع الاحتلال الفرنسي، بصرف النظر عن الرأي الذي يقال عن ذلك، فإنها يمكن أن تمهد لصياغة وطن، وهي كلمة موجودة أيضا هي الأخرى في مفردات الجبرتي، في حدود "المصرية"، دون أن ينطوي الأمر من جانبه على وعي دقيق بتأثير حملة بونابرت على مصير مصر القادم. وعى أي حال فإن "وطن" الجبرتي هو أقل نظرية وأكثر شمولاً من التعريف الذي سيقدمه الطهطاوي بعد ذلك بعد ذلك بعدة عقود، في العديد من أعماله^(٢٦): "إن مصر في عهد الفراعنة كانت أم الأمم. والأرض المصرية يرجع لها الفضل في نشر هذه الحضارة التي تحض على الرقص والمرح". وهي وطن بمثابة "عش" للإنسان الذي ينمو فيه ويرحل عنه، ومكان وحدة أسرته وطفولته".

والعنصر التجديدي المحتمل لا يتعلق "بالوطن" ولكن بالبعد القانوني "للأمة" (الملة) التي هي في عرف السياسة والجنس مجموع الأشخاص الذين يسكنون بلدا واحدا، ويتحدثون لغة واحدة، ولهم العادات نفسها ويتمتعون بالحقوق نفسها. وهم خاضعون عامة لقانون واحد وحالة واحدة. ويسمون الشعب والمواطنون والجنس وأبناء الوطن، حيث يتضح تماما الاعتماد على المفاهيم الفرنسية.

(٥) إن تحليل عمل الجبرتي المرتبط مباشرة بموضوعنا هو تحليل مؤرخ وعالم اجتماع مصري، من أسرة مسيحية وتكوين ماركسي وهو أنور عبد الملك. في عمل له صادر في باريس في ١٩٦٩، عندما أصبح انحدار عبد الناصر لا رجعة فيه "الأيدولوجية" والميلاد القومي. مصر الحديثة"، يطرح صراحة في نهاية تفكيره، سؤالنا: "هل توجد أمة مصرية أو بمعنى أصح، أليست الأرض المصرية هي نفسها أحد أوطان الأمة العربية؟ مع التحديد اللازم: كيف يمكن أن يكون الإنسان مصريا في بداية وطوال القرن التاسع عشر؟".

وفى هذا التصور يخصص فصلا بأكمله لـ "ميلاد الضمير التاريخي" يتبنى فيه، مع بعض التحفظ، الرأي الإيجابى عند العديد من المستشرقين، مشيراً لعمل الجبرتي على أنه أحد الممرات الإجبارية "للوقائع والتاريخ العلمى" (٢٧). ولكن عبد الملك لا يبحث عن المادة فى الجبرتي للرد على سؤاله.

وفى عمله المذكور، يحدد ما يشبه البديل (الدوبلير) للجبرتي فى مؤلف مصرى من القرن التاسع عشر، وشخصية تعيش حياة سياسية مضطربة، حتى يعينه الخديوى إسماعيل فى ١٨٦٣ مديراً لقسم الترجمات، حيث يبقى فى منصبه حتى الوفاة: وهو المذكور عاليه رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣). وينسب إليه عبد الملك وظيفة أول منظر حقيقى للأمة المصرية، مع إشارة خاصة لعمل صدر الجزء الأول منه فى ١٨٦٥، "أنور توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل". وبعد أن وجد عبد الملك منهجية جديدة مطبقة فيها، يصف العمل التمهيدى لتأسيس "التاريخ كعلم" فى مصر. ومع ذلك فإن هذا العمل، كما يقدمه عبد الملك، يبدو كلاسيكى البناء. أى أنه يبنى، كما فى التواريخ العامة الكبيرة الخاصة بالماضى، تقسيماً للفترات يحدد فترة سابقة (وهنا الماضى الفرعونى واليونانى والرومانى) وفترة لاحقة وهى مجيء الإسلام. وما يوضحه عبد الملك هو أن الطهطاوى يتناول بزوغ الإسلام ودور مؤسسه بروح نقدية ستظهر مرة أخرى فقط فى ١٩٣٥ مع كتاب محمد حسين هيكل، "حياة محمد" (٢٨).

ويروى عبد الملك أن هناك أمرين جديدين فى الطهطاوى. ولتحديد الأمر الأول، يستخدم كلمات ألبرت حورانى: خلق "الفكرة المحددة للوطنية الإقليمية بالمعنى الحديث للكلمة"، غير المتوافقة مع كلمة "أمة" المبنية على أساس الاتفاق على الوحدة الدينية (٢٩).

وهذا أمر جديد مختلف عليه. فكما رأينا، يمكن أن يعود بتاريخه إلى الجبرتي، وعلى أى حال ليس مفروغا منه حتى فى حالة الطهطاوى. وعبد الملك نفسه بالفعل يشير إلى أن مؤرخاً مصرياً مهماً هو محمد صبرى يرى فى

الطهطاوى فى ٣٣ مجرد مؤيد لـ "مصر عربية وإسلامية، على أساس اللغة والدين"، حيث يمتد الربط المحتمل مع فكرة الأمة، بصورة طبيعية للعالم العربى والإسلامى، أكثر من ارتباطها بالطابع المصرى لمصر. ويحاول عبد الملك تأريخ رأى محمد صبرى، موضحاً أن هذا الأخير "يبحث عن أسباب النهضة وليس الوطنية أو القومية المصرية"^(٣٠). وهذا حقيقى، ولكنه يشهد بصورة أكثر على حقيقة أن العروبة، كما فهمها ممثلو "النهضة" التى يصعب فهمها بدون إسهامات خارجية، كانت فى عهد صبرى قد هضمت كنموذج سياسى مقبول يندرج فيه مفهوم "الوطن المصرى"، ويستلهم منه عمله المناهض للاستعمار.

والأمر الثانى الجديد تأريخى. ويكمن فى "فكرة البقاء والاستمرارية" فى التاريخ، وبالتالي فى مصير مصر، أم أمم العالم"، والمالكة منذ مجيئها للوجود "للسيادة الأخلاقية على كل ممالك الأرض"، حيث إن ما يدهش أكثر، فى حالة مصر، فى رأى الطهطاوى، مع استمرار شمس سعادتها وارتفاع نجم مجدها، هو أنها احتفظت لسبعين قرناً، دون انقطاع بمكانتها البارزة: "وهو مصير ربما اتخذته الإسلام الأول جزءاً من مهمته التاريخية ويتعين على مصر استعادته"^(٣١).

والنتيجة المباشرة هى أن ننسب للطهطاوى مثل هذه الفكرة: فكرة الوظيفة الإيجابية للمتقف التى تنتهى بداية من السبعينيات، ولكنها لا تزال قائمة على الأقل فى مصر، فى اللحظة التى يكتب فيها عبد الملك.

(٦) لنترك جانباً هنا القضية التى أشرنا إليها من قبل وهى موقف المتقف اليوم فى مصر لكى نركز على حديث الاستمرارية. والاستمرارية بلا شك، هى طائفة تاريخية يشترك فيها الجزء الأكبر من المؤرخين المصريين، فى فترة القرنين المذكورين هنا، أياً كانت قاعدتهم المذهبية، مما يجعل بعض المراجع الدقيقة غير مفيدة بل العكس هو الصحيح. وبصورة استفزازية قليلاً، قد أميل للتأكيد على أن الدفعة لوحيدة التى لها بعض الوزن فى العالم العربى — الإسلامى فى الاتجاه المعتاد، أى الذى يؤدى إلى قراءة الماضى من ناحية

الصدّات والرقابات، هى ما ىسمى بالأصولية الإسلامية الحالية، لىس لأنها تدعى تأسيس مشروعاتها على استعادة عصر ذهبى خانة البعض، وىقع فى فترة تاريخية محدّدة ولكنها منتهية.

وفى تصور للاستمرارية، ماذا يعنى إذن ١٧٩٨؟ بعض الأمثلة؟. إن عبد الملك متحفّظ فى استخدامة للإشارة إلى مسار جديد فى التاريخ المصرى. وهى فضل ١٨٠٥، "تارىخ تولى محمد على، باعث مصر الحديثة الحكم"، مؤرخا على نحو مختلف لدخول الأفكار الملهمة للنهضة ويرتبط بها^(٣٢). ومن جديد تتجه الإشارة إلى الطهطاوى الذى سىقوم بالمهمة "الأساسية" فى "غرس مبادئ الثورة الفرنسية فى النهضة القومية لمصر الحديثة"، فى كتابه الشهير "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"^(٣٣).

والاحتجاج الصريح تقريبا برمزىة التاريخ يمكن تعميمه لدرجة أن هناك من يؤكد أن التأثير المصرى على الفرنسيين هو الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار وليس العكس^(٣٤). ولكن أهمية محمد على هى مسألة عليها خلاف أكثر، حتّى عندما نعترف بإنجازاته. وعبد الملك لا ىشكل مدرسة أيضا فى هذا الشأن. فهناك بالفعل حول هذه النقطة اتفاق له مغزاه لآراء الماركسيين والقوميين الناصريين، الذين يرون التاريخ الأهم فى آليات التحديث فى مصر قد لا ىكون ١٧٩٨ ولا ١٨٠٥ ولكن ١٨٨١. إن ١٨٨١ قد ىمثل بالنسبة للماركسيين هنا ختام أو بداية جوهريّة لتغيير فى طريقة الإنتاج، المقدّر لها أن تشجع على تكوين طبقات اجتماعية جديدة. ويرى الناصريون والقوميون بصفة عامة أن الأوربة يمكن أيضا أن تكون قد بدأت مع حملة بوناپرت، ولكن المهم هو نتيجة العملية، أيا كانت اللحظة التى بدأت فيها، أى ثورة عرابى باشا الوطنية^(٣٥).

وىجدر بنا أن نشير إلى التناول المختلف للقضية من جانب مؤرخين عرب من مشارب أخرى. فالهورانى يختار ١٧٩٨ كتاريخ انطلاق "للحقبة الليبرالية". وىضع أنطونىوس البداية الحقيقية للعملية القومية العربية فى سوريا، فى بيروت،

فى ١٨٤٧، عئءما أسس نصيف اليازجى وبطرس البستانى "جمعية أءبية متواضعة تحت الرعاية الأمريكية"، وربما لهذا يسمء لنفسه برأى كريم عى محمد على الذى "لو لم تكن هناك قوى أوروبا، لانتزع العرش والخلافة من بين أيدى المتسلطين فى القسطنطينية وأسس الأمبرطورية العربية"^(٣٧).

وينءرج فى هذه الإشكالية أيضا اءتلاف المعنى المنسوب لثورة ١٩١٩، العربية بالنسبة للغالبية، والءاخلية، على العكس من ذلك فى التاريخ المصرى بالنسبة للتاريخ المصرى^(٣٨). وعلى أى ءال، وسواء أكان هذا بسبب طريقة ءءيدة للإنتاج أو لظهور ضمير قومى، فإن الاستمرارية التى نتءءث عنها يجب أن ءءءد طريقها للظهور بصورة خاصة. وهى يمكن أن تتعرف على فاعلها التاريخى فى جماهير الفلاءين وفى سلبيتهم الظاهرية^(٣٩)، أو تصور نوعية فرعية بءرأوسطية، إفريقية، آسيوية، أو غير ذلك^(٤٠). وبالتالى فإن "المصرية" تعود لكى تلعب دورها. ويمكن أن تكون هناك اءتلافات فىمن يجسءها أو ءول كيفية التعبير عنها. ويتءءث بىرك، فى عمل شهير له يرجع لعام ١٩٦٧، "l' Egypt. Impérialisme et révolution" بشأن المسابقة الأدبية التى أقامها فى ١٩٣٦ على ماهر الذى ينسب إليه ثقل كبير فى نهضته العربية، وبصفة أعم فيما يتعلق بأثر الأزهر على البلاد وأصل العادات والتقاليد المصرية، يتءءث عى المصرية كما يتءءث عى شىء يقع بين "العروبة" و"الفرعونية"^(٤١). وهذه طريقة كانت تفءر بتقاليد راسخة فى عهد على ماهر.

مءال من بين أمثلة عديدة ممكنة. أءمد لطفى السيد: "ءن المصريين نءب بلادنا ولا نقبل الانتماء لأى وطن آءر، أيا كان أصلنا: ءجازيا، أو بربريا، أو تركيا شركسيا، أو سوريا أو يونانيا. إن مصر هى ذلك البلد الطيب الذى كان لمرتين مهءا للءضارة ويمتلك الثروة الطبيعية وشرف الأءءاء القاءر على تأمين تقدمه، بمءرد أن يظهر أنه ءءير بذلك، وأن تكون قلوب سكانه كريمة وترتفع طموءاتهم ءتى تعيد إليهم الشرف وتءعلهم يستعيدون مءء أسلافهم"^(٤٢). وهو شىء

كان طه حسين قد وصفه بألفاظ أدبية جدا بأنه "خليط رقيق من الابتسامة والجدية، والتفاؤل والحزن، يشع من الروح المصرية، الشابة جدا والقديمة جدا، المنجذبة للحديث والمتعلقة بالقديم، والقادرة على انطلاقات عظيمة وتقدم عظيم ولكنها فيلسوفة إلى حد أنها تركت الحياة تمر بين الحين والآخر" (٤٣). ولم يتغير أى شيء مع ذلك جوهريا ولا حتى بعد ذلك، على سبيل المثال، مع حسين فوزى الذى كان يؤكد فى ١٩٦١ قائلا: "كل هذه الآثار — الأهرامات مع كتاباتها البارزة والغائرة، ومقياس النيل والكنائس والمؤسسات الخيرية، والمساجد، والأضرحة المملوكية تحيى أسماء ملوك وخلفاء وسلاطين تجعلنا ننسى مبدعها الحقيقى، الشعب المصرى، هذا الشعب الحاضر وراء كل هذه العجائب، والذى يواجه بحزم مصائب وكوارث (...) والفلاح المصرى اليوم هو نفسه من آلاف السنين، ليس فى اللغة والفكر والإيمان أو فى الملبس (...) ولكن فى علاقاته مع الأرض والرى والزراعة". ويستمر النص فى صياغة علاقة خاصة فى مصر بين المدينة والريف، كما يبدو خاصا مصيرها فى أن تتعرض للغزو وتحكم من أجنبى. ولكن كل شيء يؤدى إلى وحدة تجعل من وحدة الشعب المصرى أقدم وأقوى وحدة حققتها أى أمة تكونت على الأرض. وقد شكلها النيل بطميه وأضاءتها الشمس ببريقها" (٤٤).

وعلى أحد الثوابت الأساسية تركز متغيرات لا تنتهى، يمكن أن تقدم عنها قراءات لا تنتهى مماثلة، فى مدى من التفسيرات من المستبعد جدا أن ينتهى على المدى القصير، ليترك الآن المجال مفتوحا لافتراضات عن نوعيات العلاقة البيئية المصرية والعروبة أو بشأن عدم توافقهما الموضوعى، وهو ما يجب على التاريخ المصرى أن يظهره بأى حال من الأحوال.

هوامش

(١) تبرهن علم، الأمر الأدبيات النقدية الهائلة في، هذا الشأن. يجدر بنا أن نذكر هنا،

علاوة على الكتاب الذي نكر كثيرا جدا، وهو

Wendell C., The Evolution of the Egyptian National Image from its origins to Ahmed hutfi al- sayyid

بير كلم، ١٩٧٢، بعض الأعمال الأحدث، على الرغم من أنها لم تكن كلها في متناول

من، يكتب: Watterson B. , The Egyptians. Oxford 1997

جورمان ب.

"In the shadow of the nation: the politics of the Egyptian Historiography in the twentieth century"

في، Journal of Arabic, Islamic and middle Estern Studies

٣، ١، ١٩٩٠، ص ١١٧ - ١٢٦؛ أنزلى ج.

The rise of modern Egypt: a Centuary and ahalf of the Egyptian History, 198- 1957

، إنبره ١٩٩٤؛ جير شوني أ.، يانكوسكي ج. ب.

Redefining the Egyptian Nation, Cambridge middle Eeast studies،

م، كامبريدج ١٩٩٥؛

Contemporary Egypt through Egyptian Eyes،

دار نشر تريب س.، لندن ١٩٩٣. على صعيد المفاهيم العامة، ومع إشارة خاصة للقرن العشرين، راجع شولتز.

Il Mondo Islamic nel xx secolo. Politica e sorietà civile،

ميلان ١٩٩٨ (دار نشر ألمانية، مدينخ ١٩٩٤)، الذي، ثقافة، معه في، التناول، المذهب، والتأخر، مع الانتعاد غالبا عن، الدقة للأحداث السياسية والأجواء الثقافية، وخاصة فيما يتعلق بما تناولناه في الفصل الأول.

(٢) هناك مثال له مغزاه في، هذا الشأن، وهو بعض صفحات (٩٥ - ٩٦) لمحمد عمارة،

المتقف المسلم المصري اللبير ال، والتي، تظهر في، كتابه "جمال الدين الأفغان، -

الأعمال الكاملة"، المجلد الأول، بيروت ١٩٧٩، في، الفصل المخصص لـ "القومية...

والعروبة"، ص ٨٥ - ١٠٠، وهنا يعلق عمارة علم، لقاء مؤسس القومية العربية

جمال الدين الأفغانى مع الخديوى إسماعيل حلمى، وقد يكون الأفغانى قد عرض

خلاله مشروعه السياسي، بصورة ما، وبصرف النظر عن الرغبة المحتملة عند الأفغان، في إرضاء الملك لكم، يكسبه لقضيته، فإن من الواضح أن عمارة محب لمصر والمصريين، شديد الارتباط بهم، كثير البحث في القضية المصرية، ويصف مصر بأنها "أحب بلاد الله"، "باب الحرمين"، ويستخلص من الأمر خلاصة مؤداها أن أي بيعة محتملة للخديوي يمكن أن تقابل البيعة الشهيرة التي طلبها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأعطيت له، تحت الشجرة. حيث يعترف الأفغانى نفسه بالدور المهيمن لمصر والذي يبدو أن عمارة يؤيده.

(٣) راجع روسيلون أ.

'Egyptianité, arabité, inlamié: le recomposition des referents indetitaires'

في، Egypte- monde arabe، ١١، ١٩٩٢، ص ٧٧-٢٣٢، حيث يحلل عملان: في، أصول المسألة المصرية، القاهرة ١٩٥٠ لصبحي، وحيد الذي يصفه المؤلف بأنه شخصية انتقالية بين النظام القديم والجديد" (ص ٨٥) ومصر ورسالتها: دراسة في خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضاري ورسالتها في الوجود، القاهرة ١٩٥٦ لحسين مؤنس الذي سيكون تنظيره قاعدة، بداية من الستينيات، لإعادة التكوين العربي، الذي سيرسم صورة الأيديولوجية الرسمية. وبرنامج العمل للضباط الأحرار" (ص ٩٦)

(٤) راجع بالتحديد، ماجد منسى،

Tendances de l'historiographie égyptienne contemporaine Les arabes et l'histoires créatrice

تحت إشراف د. شوقالييه، باريس ١٩٩٥، ص ١٥٩-١٦٢.

(٥) الإدانة الأحدث والمقنعة لما يقال هي، في رأيي، إدانة السورى برهان غليون الذي يجتاح حديثه كل العالم العربي - الإسلامي، ولهذا راجع "تقديم" ب سكارتشا أموري، للترجمة الإيطالية لواحد من آخر أعماله،

Islamic e islamisms. La modernità tradita

روما ١٩٩٨، ص ٩-١٩

(٦) يبدو أن هذا هو الرأي المتفق عليه: راجع كالكي - نوقاتي ج.

Storia della Algeria indipendent، ميلانو ١٩٩٨، الذي يعزو أهمية معينة لتأثير محمد علم، عل عبد القادر (ص ٢٢)، وهنا المثال الأكثر ملاءمة مرة أخرى: جمال الدين الشيال،

"Historiography in Egypt in the nineteenth century"

في historianns of the middle Eeast،

لويس، ب، طبقات هولت ب. م، لندن، - أكسفورد ١٩٦٢، ص ٤٠٣ - ٤٢١، الذي يصف محمد علي صراحة بأنه خالق المناخ السياسي الجديد الذي سيتطور فيه التاريخ الجديد.

(٧) روسيلون أ. المقال المذكور، ص ٧٧

(٨) النصوص المسجلة في الفترة المذكورة، أو التالية على الفور، هي التالية: على الجانب الماركسي: حسن رياض،

باريس ١٩٦٤؛ محمود حسين،

l'Egypte nassérienne، la lutte des classes en Egypt de 1945- 1968

باريس ١٩٦٩؛ أنور عبد الملك،

Idéologie et renaissance nationale. l'Egypt moderne

باريس ١٩٦٩؛ عاصم نسوق، مصر المعاصرة في دراسات المؤرخين المصريين، القاهرة ١٩٧٢؛ أحمد صديقه سعد، تاريخ العرب الاحتماع، تحول التكوين المصري من النمط الآسيوي الى النمط الرأسمالي، بيروت ١٩٨١؛ وعلى الجانب الوطني - الناصري: القشيري محفوظ،

Socialisme et pouvoir en Egypte

باريس ١٩٧٢؛ مجدى وهبة،

La politique culturelle en Egypte

باريس ١٩٧٢. وقد استكمل هذا التسجيل، من ناحية بالحواء الى سلسلة من المحفوظات تشير الى بعضها بصفة خاصة مثل "دار الكتب في عهد الثورة، يوليو ١٩٥٢ - يوليو ١٩٦٤، القاهرة ١٩٦٤ و ف. كليمنتس

The Emergence of Arab Nationalism from Nineteenth Century to 1921.
A Bibliography

وود شبيستر - لندن ١٩٧٦، ومن الناحية الأخرى، بتحليل من نفس نوع تحليل ر. ميچر في

Contemporary Egyptian Historiography of the period 1936- 1952. a study of its scientific and political character

والذي ترجمه اليه نصر، مكتوب على الآلة الكاتبة، أمستردام ١٩٨٥، وكذلك العديد من مختارات النصوص، من بينها المختارات الرائدة،

Antologie de la literature arabe contemporaine. Les essais

اعداد أنور عبد الملك، باريس ١٩٦٥. بالنسبة لنصوص القرن التاسع عشر، راجع الأجزاء التالية

(٩) ويجب أن نذكر (ولكن راجع في الأجزاء التالية، كتاب أ. باتينيه، أن هناك من يؤكد أن الفرعونية كأسطورة مؤسسة لمصر متأخرة نسبياً، وأن المسئول عنها محمد حسنين هيكل بحثاً عن جذور الهوية في مواجهة الشرعية العثمانية والاحتلال الإنجليزي).

انظر ليلي عنان،

"l'Egypte pharaonique; un mythe des romans français aux romans égyptiens"

في Imiroir égyptien، إلبرت ر.، طبعات جوتارد في مرسيليا ١٩٨٤، ص ٢٩، ٣٧.

(١٠) وقد سد مثل هذه الفجوة جانب كبير من عمل أ. بيليتيرى، الذى أشكره للنصائح الكثيرة التى قدمها لى. وعلى سبيل المثال، انظر أعماله:

Nazionalismo arabo.. siria, libano, 190- 1950

باليرمو ١٩٨٢؛ عبد الرحمن الكواكبي، (١٨٥٣-١٩٠٣).

مواد جديدة تتعلق بالسير والمراجع، كراسات Oriente moderno، العدد ١٥. س. ١٩٩٦؛

Islam Bez al-'azm, intellettuale damasceno riformista 1865- 1952) باليرمو ١٩٩٨.

(١١) ليس من قبيل الصدفة أن كرابس ج. أ. ج، فى

The writing of history in nineteenth century Egypt, A study in national transformation

القاهرة - دستة ١٩٨٤، لا يؤكد فحسب أن التأريخ المصرى، فى مجموعته بداية من القرن التاسع عشر،

"was in process of becoming 'modern'"

ولكن عندما نصف منهج الطهطاوى، وهو مؤلف سنعود إليه، الذى ينسب إليه "أنا أولنا فى الوطن المصرية"، لا يمكنه أن يلاحظ أنه فى كتابه "التخلص"، وهو دراسة من التفاصيل وعمق التعليق.... "يتذكر على الفور وصف الجبرتى للفرنسيين" (ص ٨٠)

(١٢) هولت ب. م. فى

"Al- Jabart's Introduction to the history of the Ottoman Egypt"

Bulletin of the school of oriental and African studies xxv فى

العدد ٢٥، ١، ١٩٦٢، ص ٣٨-٥١، المذكورة في الجبرتي، مع الاختلافات الواجبة، بين مؤلفي "الوقائع الأدبية"، المقابلة لـ "الوقائع الشعبية"، وهما النوعان اللذان يراهما هولت موجودين في عصر الجبرتي على ساحة التأريخ المصري.

و حول الإنتاج التاريخي المصري في العهد العثماني فيما يتعلق بالجبرتي، راجع أبالون د.

"The historian al- Jabartî and his background"

في Bulletin of the school of Oriental and African studies العدد ٢٣، ٢، ١٩٦٠، ص ص ٢١٧ - ٢٤٩ . وفي المرجع نفسه

"studies in al- Jabartî . I. Notes of the transformation of mamluk society in Egypt under the ottomans",

في Jornal of the Economic and Economic and social History of the orient العدد الثالث، ١٩٦٠، ص ص ١٤٨-١٧٤؛ ٢٧٥ - ٣٢٥.

وأخيرا انظر فيليب ث.، شوالد ج .،

"Arab al- Raman al- Jabarti's history of Egypt"

عجائب الآثار في التراجم والأخبار . A guide ، شتوتجارت ١٩٩٤، ص ٥، حيث (ص ٣٨٥ - ٣٩٠) يمكن العثور على قائمة مراجع حديثة عن مؤلفنا وأعماله.

(١٣) راجع روزنثال ف.

History of Muslim Historians of the Middle East

الطبعة الثانية، لا يدين ١٩٦٨، ص ١٣٣-١٧٢.

(١٤) انظر أبالون د.

The Historian al- Jobatî

في Historians of the Middle East، المرجع المذكور، ص ٣٩٥.

(١٥) حول موضوع العلاقة المذاهب الوطنية، والتأريخ القائم على بناء إقليمي راجع شكارشأ أموري تي ب.

"Nationalismi, storie regional': osservazioni a margine"

Azher. Studi arabo- islamici in memoria di umbreto Rizzitano (في-1913 1980)

إعداد بيليتيري أ.، مونتينا ج.

"Annali delle Facoltà di Lettere e filosofia dell'universite di Palermo.
Studi e ricerch"

٢٣، باليرمو ١٩٩٥، ص ص ٢٣-٣٤

(١٦) انظر بوناواك أ.ك.،

"The Evolution of al- Jabarti's Historical thinking as reflected in the
muzhir and the agaib"

في Arabica ، العدد ١٥ ، ٣ ، ١٩٦٨ ، ص ص ٢٧٠ - ٢٨٨

(١٧) راجع فيليب ث.، شوالد ج.، المرجع المذكور، ص ٣.

(١٨) بصفة عامة، حول الترتيب الزمني، وأنواع عمل الجبرتي، راجع فيليب ث.، شوالد ج.، المرجع المذكور، ص ٣ والصفحات التالية وكرايس ج. أ.، المرجع المذكور، بصفة خاصة، ص ٤٣٤٥، علاوة على E. I.2، تحت كلمة الجبرتي، وهنا يعتمد أساسا على ما هو مذكور في بوناواك أ.ك. المقال المذكور.

(١٩) هذه هي ترجمة فيليب ث.، بيرلمان م.،

Abd al- Rahman al- Jabarti's History of Egypt

أربعة مجلدات في ٢، شتوتجارت ١٩٩٤: هنا المجلد الثالث، ص ٦

(٢٠) راجع بوركه ج. س.،

"A Description of the U ma's opposition to Napooleon; opposition to
Napolion : organized Resistance to the French led by the 'Ulama' of
Azhar"

في Hamadard Islamicus، العدد ١٧ ، ١٩٩٤، ص ٥٥-٨٣

(٢١) راجع على سبيل المثال، أيلون د.

"The historian al- Jabarti"

في Historians of the middle Eaest، المرجع المذكور، ص ٣٨٩-٣٩٥.

(٢٢) انظر بوناواك أ. ك.، المقال المذكور، ص ٢٨١.

(٢٣) الاستطلاع الذي تقوم عليه الملاحظات التالية يتعلق بالمجلد الثالث من طبعة
"المجانب" في القاهرة ١٣٢٢ / ١٩٠٤ - ١٩٠٥، وبصفة خاصة ص ١ - ٥٠ و ص
١٩٢ - ٢١٠.

(٢٤) راجع فيليب ث .، بيرلمان م.، المرجع المذكور، ص ٣٦.

(٢٥) راجع بوسورث س. أ.،

"al- Jabarti and the Frankish Archaeologists"

في International Journal of middle east studies,

٨، ١٩٧٧، ص ٢٢٩ - ٢٣٦

(٢٦) أعيد الجزء الأول من استشهاد عبد الملك أ.،

Idéologie et eenaissance nationale . l' Egypte modern

باريس ١٩٦٩، ص ٢٢٦، والجزء الثاني من ناتالوني س.،

Per un'analisi del concetto di poplo nell'Islam,

ميلانو ١٩٨٧، ص ١٢٠ - ١٢٣، حيث يلاحظ أن كلمتي "أمة" و"ملة" يبدو أن كلاهما يعني "أمة".

(٢٧) عبد الملك أ. المرجع المذكور، ص ٢٠٩ - ٢١٠

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٢٧.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٢٢٩

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

(٣١) المرجع نفسه، ص ٢٢٦. وهو ما لا يمنح الطهطاوي نفسه من أن يؤكد في كتابه "تلخيص" (الذي رجع إليه هنا في ترجمة أنور لوقا،

L'or de paris. Relation de voyage 1826- 1831.

باريس، ١٩٨٨، ص ٣٠٨) أن "الحرية هي أيضا من صفات العرب، منذ أقدم عصورهم".

(٣٢) عبد الملك أ.، المرجع المذكور، ص ١٧

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٠

(٣٤) راجع سعد أ. س تاريخ العرب الاجتماعي، ص ١٧٧.

(٣٥) حسن رياض، المرجع المذكور، ص ٧٢، يضم بداية مصر الحديثة عند منتصف

القرن التاسع عشر، وجعلها تتزامن مع تشكيل حزب/ الحزب الوطني، الذي يصفه المؤلف بأنه حديث لأنه قادر على المطالبة بملكية دستورية وبرلمانية. ويرى محمود حسين، المرجع المذكور، ص ١٧١. ويجب أن نشير إلى، أنه كان هناك من سيؤكد مثل مصطفى كامل أن، عربي لم يكن سوى "خائن، حريص فقط على مصالحه المادية": راجع لاکوتور ج . . s.

L'Egypte en mouvement,

باريس، عدد طبعة ١٩٦٢، ص ٦٥، وهناك بعض الأصوات المخالفة، مثل القشيري محفوظ، المرجع المذكور ص ٢٠٧ والصفحات التالية، الذي يتحدث عن "تجربة أثارها الانفتاح على" "الأوروبة" مع حملة بونايرت". ولعرض رأي المؤرخين في نهاية القرن وبداية القرن العشرين، يقدم عبد الملك، في النص موضع التحليل هنا، الكثير من النقاط المهمة. وجدير بالذكر بصفة خاصة رأي لويس عوض، الذي يرى أن كل شيء يمكن أن يبدأ بإعلان بونايرت في يوليو ١٧٩٨ (ص ٢١٣). وأيضاً إلى جانب المؤرخين المصريين، لا يمكن أن نذكر ما يؤكد أ. حوزاني في كتابه

Arabic Thought in the liberal Age , 1798- 1939,

أكسفورد ١٩٦٢، ص ١٩٣ والصفحات التالية، فيما يتعلق بحقيقة أن الاحتلال البريطاني هو الذي سمح بانصهار الحداثة الإسلامية والوطنية المصرية، بينما كانت الثورة نفسها على الاحتلال الفرنسي يقودها علماء الدين (ولهذا راجع رقم ٢٠)، بوصفهم "زعماء للرأي المحلي"، مع تأكيدهم على أنه مع الطهطاوي أولاً ثم لطف السيد بعد ذلك، ثم الانتقال مع فكرة "مجتمع الإيمان" إلى فكرة "الأمة المصرية" التي سيتحقق فيها مفهوم "الوطن"، وهو مفهوم مبني بدوره على الاستمرارية التاريخية من الماضي الفرعوني والعربي إلى العصر الحديث.

(٣٦) يشار هنا إلى نص أ. حوزاني، المذكور في الملحوظة السابقة. ويجب أن نوضح أن المؤلف نفسه في كتابه:

History of Arab peoples, كامبريدج (ماساشويتس) ١٩٩١، فيما يتعلق بالتأثير السياسي، لمحمد علي، يؤكد أنه "لم تكن هناك فكرة صريحة عن المواطنة أو التغيير في الأساس الأخلاقي للحكومة" (ص ٢٧٣).

(٣٧) انظر أنطونيوس ج. The Arab awakening

بيروت ١٩٣٨، طبعة مراجعة ١٩٦٩. ٢٠، ١٣.

(٣٨) علي، سبيل المثال، عبد الرحمن الرافعي، ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من ١٩١٤ إلى ١٩٢١، القاهرة ١٩٦٨.

(٣٩) هذا هو الرأي الذي يؤكد أحمد صادق سعد في، تاريخ مصر الاجتماعي الفرعوني، الهيليني، الإمبراطوري الإسلامي....، بيروت ١٩٧٩.

(٤٠) المفهوم مشار إليه في "المقدمة" بتوقيع ناشري Le mimroir egyptien,

المرجع المذكور، ص ١٢، وعليه نطاق أوسع، في ج و س. لاكوتور، المرجع المذكور، ص ٢٨ والصفحات التالية.

(٤١) انظر بيرك ج.

L'Egypte. Impérialism et revolution

باريس ١٩٦٧، ص ٥٢٥.

(٤٢) ننقل هنا عن،

Anthologie de la littérature arabe contemporaine

المرجع المذكور، ص ١١٥ - ١١٦.

(٤٣) منقول هنا عن بيرك ج.، المرجع المذكور، ص ٦٧٤.

(٤٤) منقول هنا عن

Anthologie de la littérature arabe contemporaine,

المرجع المذكور، ص ٤١٤. ويخبرني البروفيسور محب س.أ. يخبرني، أنه في عمل شهير وحديث نسبياً، "الشخصيات المصرية"، يبدو أنه يوضح هذه المسألة، يؤكد المؤلف حنا م. أن المصرية هي مجموع كل هذه العناصر المختلفة التي أسهمت في تشكيلها من البحر أو سطية إلى الإفرقية. وهذه الإشارة، التي أشكر عليها البروفيسور محب، تؤكد فكرة الوحدة والتفرد التي هي أساس مفهوم المصرية، كما هي مقترحة هنا، علاوة على أنها تمثل تأكيداً آخر للآنية الدائمة للمشكلة.

الطريق المصري للصحة في عهد محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٤٩)

سلفاتوري سبيتسيالى

١ - أسباب ووقائع البحث

إن الاهتمام بالتحويلات التى تتحقق فى المجال الصحى فى مصر سواء قبل أو بعد الاستعمار، ينشأ من التزام شخصى مزدوج. من ناحية، هناك الأبحاث التى تمت بالفعل عن دول المغرب - وتونس بصفة خاصة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين^(١)، ومن الناحية الأخرى، هناك الأبحاث الجديدة الجارية عن الاستعمار والصحة فى إفريقيا الشمالية^(٢). وهذان الطريقان فى البحث يتداخلان بدورهما مع طرق العديد من الباحثين من شتى المشارب التى تقودنا إلى تصورات أخرى بحد أوسطية وتشهد بواقع الإشكاليات الصحية والمستوطنة والسكانية^(٣).

ووجهة النظر المتخذة هى من النوع المتعاون وبالتالي فإنها تتجه لإبراز أوجه الشبه والاختلافات بين المسارات الصحية لدول هذه المنطقة الجغرافية.

وسنحاول تحديد مستويات البداية، وبعد ذلك الطرق المتخذة لإعادة تنظيم النظام الصحى القائم أصلاً، وبالتالي التأثير المختلف لحركات الاستعمار، وأخيراً حالة الأمور عشية الاستقلال.

والتناول المنهجى يتميز بشدة بتداخل المعارف، الذى يفهم على أنه مجموع تلك الأدوات التى تسمى بتحليل الجوانب المتعددة لماض معقد دائماً ويعود بنا لقطاعات متخصصة فى الحياة البشرية: علم الأوبئة والمستوطنة بصفة خاصة، وعلم السكان والاقتصاد والعقلية...

وهو تناول أعطى بالفعل نتائج على جانب كبير من الأهمية فى بعض الأعمال المنشورة فى العقود الأخيرة، سواء عن البحر المتوسط المسيحى أو الإسلامى.

ومن بحث أولى للدراسات المنشورة عن التاريخ الصحى للبحر المتوسط الإسلامى نستخلص أمرا له بالتأكيد مغزاه: فى حين كان المغرب محورا لأبحاث قليلة متعمقة فإنه بالنسبة لمراكش ومصر بصفة خاصة، يوجد كم هائل لا يستهان به من الدراسات التى تحققت بصفة خاصة فى السنوات العشرين الأخيرة^(٤). وهى أعمال تتفاوت قيمتها، بعضها مركز بالتحديد على عملية الانتقال التى تحققت بين القرنين التاسع عشر والعشرين، من "الصحة التقليدية" إلى "الصحة الحديثة".

وترتبط أسباب هذا الاهتمام الواضح بمصر الصحية بعوامل كثيرة:

أولا: المصالح الدولية الهائلة فى هذه المنطقة، سواء أكانت ذات طبيعة سياسية أم تجارية.

ثانيا: العوامل الوبائية والمستوطنة التى تهدد وتعرقل التحقيق الكامل للمشاريع الأوروبية (التبادل التجارى الحر، غزو الأسواق والاستعمار)، أو المصرية (تقوية الجيش، وسياسة التوسع والتحرر من الإمبراطورية العثمانية). وأخيرا الدور "الفاعل" فى التحديث الذى لعبه محمد على، مع أهدافه فى الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية وخاصة مع عمله المؤثر فى المجال الاجتماعى.

وبالفعل، عند أول مقارنة مع ما حدث فى الوقت نفسه فى المنطقة المغربية، يتضح ثراء فى المشروعات وقدرة على التنفيذ أوضح بالتأكيد فى مصر. ولكن لابد أن نوضح فى هذا الشأن نقطة أساسية: إذا كانت المشروعات المصممة والنتائج التى تحققت هى ثمرة رغبة فرد واحد، من ناحية — وهذا يؤدى حتما للتفكير فى علاقة بين الاستبداد والتحديث، وحدود ومصاعب "التنفيذ من أعلى" — فإنها، من الناحية الأخرى، ثمرة أيضا لسلسلة كاملة من الظروف الداخلية

والخارجية. وهى ظروف تتضافر، بطرق مختلفة، لتحديد نوع من التحديث بدلا من الآخر، وطريق مصرى للصحة بدلا من آخر^(٥).

٢- الصحة فى مصر بين التحفظ والتحديث

فى مجال هذا البيان القصير لابد بالضرورة الاقتصار فقط على رسم أهم ظروف مسار التحديث. ولدواعى الإيجاز، يمكن إرجاعها لنوعين من العوامل: عوامل طبيعية من ناحية وعوامل إنسانية، سواء متعمدة أو غير متعمدة، من الناحية الأخرى. وعلى الرغم من أن التركيز كان منصبا أساسا على الحالة المصرية، فإن البعض يرى أن من الضرورى توجيهه أيضا للعمليات الموازية التى تنفذ فى الوقت نفسه فى البلاد الأخرى فى إفريقيا الشمالية فى هذه المرحلة الحساسة من التاريخ الوبائى العالمى. وهى مرحلة نشهد فيها تراجع الطاعون نحو البؤر الأصلية وتقدم الكوليرا فى كل الاتجاهات فى العالم.

العوامل الطبيعية

من بين العوامل الطبيعية التى يمكن أن نحصيها، هناك بعض الخصائص الجغرافية — الطبيعية والمناخية والبشرية — التى تؤثر مباشرة على الجانب الوبائى — الصحى. قبل كل شئ، هناك الموقع الجغرافى لمصر بين القارات وهو ما يؤدى إلى وظيفة بارزة لتوزيع البشر والبضائع وفى خط مواز هناك وظيفة واضحة "للتوزيع البكتريولوجى". والطرق والممرات المطروقة أكثر من غيرها فى اتجاه الهلال الخصيب والأناضول والبحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية والمغرب والبحر المتوسط، وبالتالي أوروبا هى بالفعل المسارات المطروقة أكثر من قبل العدوى الوبائية.

وهناك بالتأكيد العديد من العوامل التى تقوى وظيفة "التوزيع البكتريولوجى".

محورية الدولة فى التدفقات البشرية بين القارات تبعا للاتجاهات من الغرب — الشرق — الغرب والشمال — الجنوب — الشمال نتيجة للحج إلى مكة والقرب من بؤر الطاعون الدائمة فى شبه الجزيرة العربية، وكردستان وليبيا والبؤر المؤقتة فى الأناضول والبلقان، والشبكة المكثفة من الاتصالات القائمة مع تلك المناطق^(٦)، ثم الظروف المناخية (وخاصة العلاقة بين درجة الحرارة والرطوبة) المناسبة لبقاء بكتريا الكوليرا وبكتريا الطاعون وكذلك انتشارهما^(٧).

وعلاوة على ذلك هناك وجود مصدر وحيد للتزود بالماء، يتمثل فى النيل الذى يؤدى إلى نوع من عدم الاستقرار فى الإمداد الذى تعرقله إجراءات صحية ويسهل انتشار الكوليرا.

وأخيرا، هناك التركيز المرتفع للسكان بطول ضفاف النيل وفى منطقة الدلتا، الذى يشجع بصورة هائلة على العدوى بين البشر.

وتسهم هذه العوامل مع عوامل أخرى فى خلق وتحديد صورة مصر فى الوعي الجماعى "كرأس جسر" للأوبئة طوال كل العصر الحديث والمعاصر^(٨). وهى صورة مدت جذورها سواء فى العالم المسيحى أو فى العالم الإسلامى، والمغربى بصفة خاصة^(٩). ونحن نشعر بانعكاسات هذه الرؤية بصورة ثقيلة، كما سنرى، على السياسات الصحية (الدفاعية) سواء على المستوى الأوروبى أو المصرى.

العوامل البشرية غير المقصودة

إلى جانب العوامل الطبيعية المدرجة، تضاف، سلبا، عوامل بشرية من النوع غير المقصود. وهذه العوامل تشمل تحولات السباق الجغرافى التى تنتج عن عمل الإنسان وخاصة فى القرن ١٩. وهى تحولات على المستوى الحضرى، والزراعى والطرق وتشمل على انعكاس غير متوقع على السياق الوبائى — الصحى، سواء على المستوى الصغير أو الكبير.

وفى هذا المقام قد تكفى الإشارة إلى بعض من أهم هذه العوامل:

أولاً: التوسع الحضري الإعجازى للإسكندرية الذى تحقق بداية من العشرينيات من القرن ١٩. وهو توسع يؤدى فى الوقت نفسه إلى ميلاد بؤرة حضرية جديدة من الطاعون^(١٠).

ثانياً: انتشار الرى الدائم المفروض بداية من الثلاثينات.

وهذا النظام ينتج بالفعل سلسلة من الأنظمة البيئية الصغيرة الجديدة، المثالية لنمو الملاريا وانتشار الكوليرا.

وقد يتطلب الأمر فى النهاية حديثاً خاصاً للتحول الجارى فى النقل البرى وخاصة البحرى على الصعيد العالمى، بداية أيضاً من العشرينيات والثلاثينيات من القرن ١٩. والعناصر الأساسية فى هذا التحول الأخير هى تحسن نظام الطرق، وخاصة انتشار السكة الحديد والملاحة التجارية خارج أوروبا. وقد أدت زيادة سرعة وسائل النقل إلى ضغط مكافئ — زمانى، وهو ما يمكن أن يشار إليه على أنه العامل الذى أدى إلى الاعتدال بقوة^(١١). ومن الواضح أن هذا الضغط، عندما يطبق على المجال الوبائى، فإنه يترجم حتماً إلى إسراع فى نقل الوباء.

وبالفعل فإن إحدى النتائج الدرامية هى بالتأكيد أول ظهور فى البحر المتوسط للكوليرا الهندية. وهو أمر يكتسب دوراً محفزاً أيضاً فى عملية التحديث كما سنرى فيما بعد.

العوامل البشرية المقصودة

تشمل العوامل البشرية المقصودة على العكس من ذلك، تحولات النظام الصحى التى أعد برامجها محمد على وحاشيته والقوى التى عارضتها وهى قوى ذات طبيعة داخلية أو خارجية عن البلاد وتميز بدرجات متفاوتة، حجم عملية

التحديث. وهى قوى بالطبع لا تعمل فى المجال الصحى فحسب ولكن فى كل مجالات المجتمع التى تمسها عملية إعادة التنظيم والتحديث عند من يحكم.

ونقطة الانطلاق هى، كما هو معروف، تقوية الجيش التى يملئها مشروع التوسع الطموح والاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية. وقد أدت المواجهة القادمة المحتملة بين القوتين إلى أن رأس المال البشرى اعتبر عنصرا ثميننا دائما، وعنصرا يتعين دعمه وحمايته من الكوارث الوبائية فى ذلك العصر^(١٢). وبالتالى فإن مشروع التوسع هذا دفع محمد على فى البداية لإصلاح الإشراف الطبى فى البلاد وخلق نظام صحى مستقل بعد ذلك. ونظرا لاقتناعه بالفاعلية الأعلى للدواء الغربى فى الكفاح ضد الأمراض الوبائية، فقد بدأ فى عملية للتقليل من شأن الدواء التقليدى وإزالة النظام الصحى القائم من قبل.

وفى خط مواز أشرف على مبادرات الطبيب الفرنسى أنطوان بارثيملى كلوت: إنشاء هيئة طبية من جديد^(١٣)، وهيئة من القابلات^(١٤)، وإنشاء أو تقوية المنشآت الصحية^(١٥)، وتأسيس هيئات للوقاية^(١٦)، وأخيرا فرض منظم وإجبارى لإجراءات الحجر الصحى، والتطهير والتطعيم^(١٧).

وهناك تحول مماثل، على الرغم من أنه مقتصر أكثر على الجوانب الدفاعية البحتة، يتضح فى الوقت نفسه فى حكومتى تونس والمغرب^(١٨). وبخلاف ذلك نجد فى حكومة طرابلس أن المبادرات الصحية فى المجال الصحى، التى بدأها آخر الكرمنليين تترك المجال للسياسة الصحية للإمبراطورية العثمانية من ١٨٣٥ فصاعدا^(١٩).

وفيما يتعلق بالجزائر الفرنسية، غداة أول إنزال للقوات (وكذلك غداة غزو كل مدينة) تنشأ شبكة من المجالس الصحية العسكرية، تستبدل بها فيما بعد مؤسسات مدنية^(٢٠).

ولكن الطريق الصحى الذى اتبعه محمد على، على الرغم من أنه وجد صدى وموافقة سواء فى العالم العربى أو فى أوروبا، فإنه بقى غالبا معزولا عن

السياق الداخلى، وبالفعل كان ينقص الملك مساندة القاعدة فى المجتمع وكثيرين من مساعديه أنفسهم وهذا لسببين اثنين: الأول، لأن العلاقة التى يحتفظ بها الناس مع الميراث الطبى - العلمى قوية جدا لدرجة أنها لا تنكسر فى وقت قصير، وثانياً لأن إيقاع التغيير الذى فرضه محمد على كان مفاجئاً جداً، وبالتالي فإن التجديدات التى تصورناها كلوت بك وفرضها محمد على تظهر كسلسلة من التحديات للتقاليد وتغييرات حقيقية مؤلمة أحياناً. ويتضح إذا موقف الرفض والخوف علاوة على عدم الفهم تجاه هذه الإجراءات المستوردة، علاوة على كل شىء، من العالم المسيحى.

"بطء" العملية

كانت العملية البطيئة التى التأمّت من خلالها الكسور مهمة جداً بقدر الطريقة السريعة التى حدثت بها. وهذه العملية من الفعل ورد الفعل التى حدثت فى هذا النوع من التحديث من أعلى، يمكن أن توضح من خلال أربعة أمثلة سنتحدث عنها فيما يلى:

الأول متعلق بإنشاء مدرسة الطب، والثانى بنشر ممارسة الطب الشرعى، والثالث يتعلّق بفرص التطعيم، والأخير يبحث ترشيد إجراءات الحجر الصحى والعزل.

فيما يتعلّق بالمدرسة الطبية التى أنشئت فى ١٨٢٧ فإنه لا يوجد نظام آخر للتجنيد المبدئى سوى الإيجابار. فالطلبة يؤخذون من المدارس القرآنية ويدخلون مبنى ملحقا بالمستشفى الرئيسى فى الإسكندرية^(٢١). وبالنسبة لمدرسة القابلات التى أنشئت فى ١٨٣٢ فقد رأى البعض ضرورة اللجوء لشراء عشر إماء أدخلن تحت حراسة العبيد. ولكن استخدام اللغة العربية كلغة دراسة، وتعديل المواد التى تدرس من الناحية الشكلية بحثاً عن لقاء مع ثقافة وديانة الدارسين، والمساندة الفعلية من جانب علماء الدين جعل هذه المؤسسات تبدأ ببطء فى كسب موافقة جانب من

الرأى العام، وبالتالي أيضا الانضمام الطوعى^(٢٣). وقد مثل هذا أول وأهم رآب للصدع الأولى.

وفى المرحلة التالية، أدى تتقل القابلات المصرىات والمسئولين عن الصحة فى البلاد^(٢٤)، إلى تقرب السكان ببطء من إجراءات الصحة والوقاية المفروضة. وبالفعل قام هؤلاء المهنيون الجدد بنشاط حقيقى فى التجديد. وقد حاولوا العمل: أولا، فى التقرب بين السكان والسلطات الصحية بتخطى ممثل الطب التقليدى^(٢٥)، وثانيا، التصالح بين التقاليد الطبية التى ترجع للعصور الوسطى ويعود أصلها إلى أبقراط وجالينوس والطب الغربى الحديث^(٢٦)، وهو شرح آخر التآم مع الزمن، على الرغم من أنه لم يلتئم تماما^(٢٧).

وفى هذه الفترة أصبح عمل علماء الدين أيضا أساسيا بالنظر بصفة خاصة للحجر الصحى ومراكز الحجر الصحى والتطعيم وتشريح الجثث. وقد وصلت فتاواهم التى انطلقت من التقاليد والأحداث إلى تبرير تطبيق تلك الإجراءات، وتلم الممارسات التى لم يؤخذ بها حتى ذلك الحين. وهكذا قاموا هم أيضا ببطء برآب ذلك الصدع الذى نشأ بين قمة وقاعدة المجتمع فى مصر كما فى باقى المغرب^(٢٨).

ولكن مفهوم البطء يجب أن يعاد النظر فيه بالتأكيد. ومثال ممارسة التشريح، بالنسبة للدراسات التشريحية، علاوة على تحديد أسباب الوفاة، يمكن أن يعتبر نموذجا يحتذى. وبالفعل، منذ هجوم أحد الطلبة على كلوت بك أثناء تشريح جثة فى ١٨٢٩^(٢٩)، وحتى تطبيع الممارسة نفسها، فى السنوات التالية، هناك فجوة قصيرة للغاية إذا ما قورنت بالمعاناة الطويلة التى عاشتها أوروبا^(٣٠)، وقد مر وقت قصير بالمثل، من رفض التطعيم، الذى أدخل فى العشرينيات وأصبح إجباريا فى ١٨٣٧^(٣١)، إلى الدفاع عنه من جانب علماء الدين^(٣٢). ولكن كان لا بد أن تمر عدة عقود حتى يبدأ التطعيم من نوع تطعيم جينر فى الإحلال محل التطعيم التقليدى بين الشعب. وهذا يحدث بصفة خاصة بعد الأربعينيات، عندما تلاحظ النتائج الأولى، وبصفة خاصة عندما يخف الخوف من أن التطعيم علامة على التجنيد العسكرى

القادم^(٣٣). وفي الوقت نفسه في أوروبا — حيث لم يكن يوجد أى شكل تقليدى من التطعيم قبل ليدى مونتاج وجينر — عرقل الأساقفة والرعية، بصورة عنيفة غالباً، نشر هذا الاكتشاف الجديد.

وبالنسبة لحالات الحجر الصحى أيضاً لم يتأخر علماء الدين كثيراً فى صياغة التبرير^(٣٤). ولكن تنفيذه لفى بصعوبة موافقة المسافرين والتجار فى العالم العربى. ولكن الحجر الصحى فى أوروبا كان موضع احتجاجات ومحاولات للمراوغة لفترات أطول: من العصور الوسطى، عندما بدأت، وحتى العصر الحديث، عندما يحاول البعض إسقاطه باسم التجارة الحرة^(٣٥). وبالتالي فإننا نشهد إسراعاً جوهرياً لبعض العمليات، وهذا من أهم سمات أى شكل من أشكال التحديث المستورد^(٣٦)، وبالتالي فإن مفهوم بطء التحولات غالباً ما يكون مجرد وجهة نظر عند الرجل الغربى. وهى وجهة نظر من استوعب بالفعل التغييرات وأصبح لا يصبر على الوقت اللازم للآخرين.

الاستيراد الصعب

إن استيراد معارف وتقنيات من أوروبا ينطوى على نتائج أخرى جانبية. والأمر يتعلق عملياً هنا بنقل وتعديل نموذج خارجى — وهو النموذج الفرنسى فى الحالة المصرية السابقة للاستعمار — فى الصحة العامة والتدريس الطبى، مع تصوره الداخلى للواقع الصحى الخارجى بمزاياه وتناقضاته الداخلية. وهذا يعنى على سبيل المثال أن النظام المطبق فى التعليم الطبى والممارسة الصحية فى مصر تبدو من النوع "الدفاعى" أساساً، أى القائم على مفهوم (أو مفهوم مسبق) بأن الأمراض السائدة فى مصر هى من النوع الوبائى (الطاعون، الكوليرا، التيفود والجدرى... إلخ). وهذه هى الرؤية التى ولدت فى أوروبا نتيجة للخوف من الغزوات الوبائية القادمة من الشرق، وتهدف لخلق حصون بعيدة ضد تلك الغزوات. وكل هذا بالطبع على حساب الطب الوقائى والطب الأساسى.

وهناك نتيجة أخرى مباشرة لهذا النظام فى التعليم الطبى - الصحى هى استيراد مختلف المواقف العلمية الغربية المتناقضة بشأن القضايا التى لم تحل بعد. ففى حالة الأوبئة على سبيل المثال، نشهد فى أوروبا نقاشا محتدما بين أنصار نظرية العدوى والمناوئين لها^(٣٧). فالفرق الأول يؤيد الحجر الصحى والمحاجر الصحية كإجراء للحماية ضد الأشخاص والبضائع التى يمكن أن تنقل "العدوى" سيئة السمعة. ولكن المعارضين مقتنعون بعدم جدوى هذه الإجراءات. فهذا الفريق الأخير يرى أن الأوبئة سينقلها الهواء أو ستتولد فى المكان من مفارقات مناخية أو صحية أو كونية - زلزالية^(٣٨). والانحياز لهد التيار أو ذاك ينطوى على انعكاسات عميقة على الصعيد الدولى، وخاصة فى هذه الفترة التاريخية التى يرتبط فيها اختصار الزمان والمكان الناتج عن الملاحة التجارية، التى أشرت إليها من قبل، بنجاح السياسات التى تدعو لتحرير التبادل التجارى. وكل مانع أو إبطاء فى الأنشطة التجارية ينظر إليه فى العالم الأنجلوسكسونى بصفة خاصة، كهجوم على الحرية^(٣٩). ومن المفارقات أنه فى حين بدأت أوروبا تعيد النظر فى نظام الحجر الصحى لديها فإن هذا النظام ينشأ ويقوى فى كل دول إفريقيا الشمالية والإمبراطورية العثمانية^(٤٠).

وعندما انتقل النقاش إلى داخل بلاده، لعب محمد على دور الوسيط وهو من أنصار نظرية انتقال العدوى المقتنعين. ووجد أمامه المجلس العام للصحة من ناحية، ومقره القاهرة، محاربا لنظرية العدوى^(٤١)، ومن الناحية الأخرى، الهيئة الصحية فى الإسكندرية المقسمة فى داخلها بين إنجلترا "البعيدة" المناوئة لنظرية العدوى والدول الأخرى المرتبطة بنظرية العدوى. وأمر عندئذ باحترام إجراءات الحجر الصحى والعزل الأرضى دون أن يهمل مع ذلك الإجراءات الصحية التى ينصح بها المسئولون عن الصحة ومكافحة العدوى.

وعلى الرغم من هذا فإن مواقفه المستمرة أغضبت كل الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين الذين كانوا يهدفون فى النهاية لفرض وصياتهم على "النظام الدفاعى" المصرى وكذلك على نظام كل البحر المتوسط الإسلامى.

وبالتالى فإن موقف محمد على يبدو غالبا معزولا عن السياق الداخلى، وكذلك عن السياق الدولى. وتصل ذروة هذه العزلة فى مناسبة تأميم الهيئة الصحية فى الإسكندرية، الذى تم فى ١٨٣٩. وهى حالة فريدة من نوعها فى إفريقيا الشمالية.

المحفز الطبيعى

فى لعبة القوى المتعارضة والمعقدة هذه، سواء على الصعيد الداخلى أو الدولى، سواء أكانت ذات طابع بشرى أم طبيعى، هناك دور بارز يلعبه بالتأكيد مرض وبائى رهيب: الكوليرا. ومن المفارقات أن اجتياحاته المتكررة فى البحر المتوسط بداية العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر أصبحت عناصر دافعة لعمل محمد على، وخليفته والحكام الآخرين فى إفريقيا الشمالية. وبالفعل أثار التوحيد الميكروبى لكل حوض البحر المتوسط، والخوف المشترك من موت رهيب سلسلة من ردود الفعل المتسلسلة، مليئة بالانعكاسات الداخلية والخارجية. وقد استعاد المناهضون لنظرية العدوى - الذين كانوا فى أزمة بين القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر - مصداقيتهم فى الغرب كما فى الشرق التركى بصفة خاصة، بحثا عن أشكال من الحماية الشخصية بصورة أوضح دائما أو ساندوا علانية الإجراءات الصحية المفروضة. وبهذه الطريقة، يصبح عمل الحكام دائما أقل عزلة فى كل موجة من الكوليرا (١٨٣١ و ١٨٥٦ و ١٨٦٥...) وبالتالى يمكن أن نؤكد أن ردود الفعل المجدد الذى نتج عن هذا المرض الرهيب كان على جانب من الأهمية حقا. وقد انطوى بالفعل على تغيير فى الاستسلام الشعبى التقليدى، كان بالتأكيد أكثر حسما من التغيير الذى أحدثه عمل الإنسان^(٤٢).

عملية التحديث

إذا أردنا أن نحيط بكل ما أشرنا إليه حتى الآن فى رؤية شاملة فإننا يمكن

أن نؤكد أنه على الرغم من وجود العديد من القوى المتعارضة، فإن مخطط إعادة تنظيم التدريس الطبي والصحي القائم على استيراد المعارف والتقنيات من أوروبا حقق نتائج قيمة ودائمة. وفي منتصف القرن التاسع عشر أمكن لمصر فقط، من بين الدول التي كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية، أن تفخر بخدمة صحية من النوع القومى^(٤٣)، بأطباء محليين وهيئات صحية عاملة وببيروقراطية صحية عاملة^(٤٤). خدمة صحية من النوع الحديث تنتج ثمارها الملموسة فى النصف الثانى من القرن، لتخلق أسس نهضة سكانية فى البلاد^(٤٥). ولم تكن العملية التى وصلنا من خلالها لهذه النتيجة عملية تسير فى خط مستقيم. فقد تأثرت بسلسلة من القيود الخارجية والداخلية التى رسمت نوعا من التحديث لا يمكن إرجاعه لتصور تطورى^(٤٦). وتظهر العملية كسلسلة من الهزات الموجهة للاستخدامات الراسخة والعلاقات بين الأشخاص والرؤية التقليدية للمرض، وبالتالي للحياة والموت.

ويبدو التحديث الطبى - الصحى، علاوة على ذلك، كعملية لا يمكن التفاوض عليها؛ فالإجبار والاستبداد وعسكرة الدفاع الصحى وممارسة التطعيم تبدو بالفعل الأدوات المناسبة لوضع بداية لهذا الطريق المصرى للصحة، ولهذا التحديث على مراحل قهرية كما أراد محمد على. سلسلة من الصدمات يتم بعد ذلك علاجها ببطء من جانب كل الأطراف المشتركة، شاءوا ذلك أم أبوا، فى المرحلة الأولى من العملية. تحديث يتحقق أيضا فى حكومة تونس وطرابلس والمغرب، ولكن بمستوى أقل بالتأكيد.

هوامش

(١) مشروع البحث للدكتوراه في

“Studi su Vicino Oriente e Maghreb dall'avvento dell'Islam all'età contemporanea”: Sanità, popolazione e società nella Tunisia husaynita (XVIII-XX secolo)

المعهد الجامعي الشرقي في نابولي، الدورة السابقة، بتنسيق من البروفيسير جوفاني أومان وإدارة البروفيسير فينتشنزو ستريكا. وقد أعقبت عمل البحث سلسلة من المنشوران من بينها:

سبيتسيالي سلفاتوري،

Altre la peste. Sanità, popolazione e società in Tunisia e nel Maghreb (XVIII-XX secolo)

، كوزنتا، بيليجريني، ١٩٩٧، ص ٥٧٦.

(٢) مشروع بحث بعد دكتوراه في

“Storia della dottrine politiche e delle relazioni internazionali”: “Colonialismo e sanità nell'Africa settentrionale”

جامعة الدراسات في فلورنسا، كلية العلوم السياسية، قسم الدراسات الخاصة بالدولة، بتنسيق من البروفيسير إنيو دي نولفو وإدارة البروفيسيرة مارتا بترينشولي.

(٣) أذكر فقط بعض أبرز المؤلفين: بيرابين جان نويل،

Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranées

، كتابان، الكتاب الأول، La peste dans l'histoire، الكتاب الثاني Les hommes et la peste nella storia، باريس - لا هي: موتون، ١٩٧٥؛ ماكنيل ويليام هاردي؛ La peste nella storia، تورينو، إيناودي، ١٩٨١ (الطبقة الأولى Plagues and Peoples، جاردن سيتي، نيويورك، مطبعة انكور، ١٩٧٦) لوفين، بترز، ١٩٨٥، ص ٦٥٩؛ بانزاك

دانييل، (1750-1850) *La peste dans l'Empire Ottoman*، لوفين، ببيتز، ١٩٨٥، ص ٦٥٩؛ بانزاك دانييل، *Quarantaines et lazarets. L'Europe et la peste d'Orient (XVIIe-Xxe siècle)*، ايزان بروقتس، إديسودو ١٩٨٦، ص ٢١٩؛ رستيفو جوزيبي: *Peste al confine. L'epidemia di Messina del 1743*، باليرمو، EPOS، ١٩٨٤، ص ٢٢٣؛ رستيفو جوزيبي *Le ultime piaghe. Le pesti nel Mediterraneo (1720-1820)*، ميلانو، سيليني، ١٩٩٤، ص ٣١٦

(٤) علاوة على أعمال دانييل بانزاك، اقتصر على ذكر بعض الأعمال مثل: *La peste dans l'Empire Ottoman*، وسلسلة غنية من المقالات التي أعيد نشر بعضها في: *Population et santé dans l'Empire Ottoman (XVIIIe-Xxe siècles)*

اسطنبول، طبقات إيزيس، ١٩٩٦، ص ٢١٣؛ شيفولو سيلفيا،

Médecine et médecins en Egypte. Construction d'une identité professionnelle et projet médicale

باريس، لارماتان، ١٩٩٧، ص ٣٣٤. لافيرن كونكه،

Lives at Risk. Public Health in Nineteenth-Century-Egypt

بيركلي- لوس أنجلوس- أكسفورد، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٠، ص ٢٣٣؛
چاچيو سيرج،

La médicalisation de l'Egypte au XIXe siècle (1798-1918)

باريس، كورليه، ١٩٨٦، ص ٢٤٣ ح كالاچار نانسي إليزابيث،

Egypt's other Wars. Epidemics and the Politics of Public Health

سيراكوز (نيويورك)، مطبعة جامعة سيراكوز، ١٩٩٠، ص ١٣، ٢٣٤.

(٥) وسط النقاش الحالي جدا حول عمليات التحديث وبالتالي حول العلاقة بين التقليد والتحديث أو بين الاستمرارية والتغيير في أفريقيا الشمالية، هناك مقالان لـ مايكل بریت:

“Modernisation in 19th Century North Africa”, *The Maghreb Review*

العدد السابع، ١-٢، ١٩٨٢، ص ١٦-٢٢ و

“Continuity and Change: Egypt and North Africa in the Nineteenth Century”, *Journal of Africa History*

١٩٦٨، ٢٧، ص ١٤٩-١٦٢. وفيما يتعلق بمصر قبل وبعد عمل محمد علي، اقرأ:
رايموند أندريه

“Ali Bey le Grand et le premier éveil de l’Afrique moderne”

في AA. VV., Les Africains، باريس، طبعة ج.أ.، ١٩٧٧، العدد الثاني، ص ١٣-٤٢ و كيني لورن،

“The Khedive Ismail’s Dream of Civilization and Progress”, The Muslim World

١٩٦٥، ٥٥، ٢، ص ١٤٢-١٥٥ و ٥٥، ٣، ص ٢١١-٢٢١؛ عبد الملك أ.

“The Renaissance of Egypt, 1805-1881

، ص ٣٢٤-٣٥٥ في AA. VV. General History of Africa المجلد السادس،

Africa in the Nineteenth Century until the 1880’s

دار نشر أدى أجاى ج.ف. مطبعة جامعة كاليفورنيا- هاينمان إنترناشيونال- يونسكو، ١٩٨٩.

(٦) بانزاك دانييل، La peste..، المذكور، ص ١٠٥-١٣٣

(٧) حول هذا الموضوع، اقرأ: داروين ل. بالمر،

“La peste e altre infezioni da Yersina”

في AA. VV., Harrison. Principi di medicina interna

، الطبعة ١٢، نيويورك، شركة ماك جرو هيل، ١٩٩٢، المجلد الأول، ص ٨٥٣-٨٥٦؛ سبيتسيالى سلفاتورى، Oltre la peste..، المذكور، الجزء الأول، الفصل الأول:

Epidemie e medicina. La sguardo dell’uomo di oggi.

(٨) بانزاك يصف الإسكندرية أثناء القرن الثامن عشر بأنها "مركز توزيع كبير لاستقبال وتوزيع الطاعون"؛ بانزاك دانييل،

Alexandrie: Peste et croissance urbaine (XVIIe-XIXe siècles)”

في ROMM، AA. VV. Alexandrie entre deux mondes، ٦٦، ١٩٨٧، ص ٤٨

(٩) في حكايات الرحالة الأوروبيين، وفي تقارير القناصل، وفي العديد من المناقشات الطبية والعديد من الشهادات العربية، مثل الوقائع التونسية للمقداحي، يشار إلى الشرق ومصر بوضوح لمصدرين للأوبئة.

(١٠) كما اتضح على نطاق واسع في بانزاك دانييل،

“Alexandrie: Peste et croissance urbaine..”

، المذكور، و

“Alexandrie: évolution d’une ville cosmopolite au XIXe siècle”, Annales Islamologiques

، العدد ١٤، ١٩٧٨، ص ١٩٥-٢١٦.

(١١) من بين آخر المؤلفين الذين توقفوا عند هذا الموضوع أنظر:

مارتينيللي ألبرتو، La modernizzazione، بارى، لاثرنسا، ١٩٩٨ ص ١٢، ١١٧.

(١٢) بانزاك دانييل،

“Les bases démographiques de l’affrontement turco-égyptien de 1830-1840

أعمال النقاش

Economie et Société dans l’Empire Ottoman (fin du XVIIIe – début du Xxe siècle)

، ١٩٩٤، ص ٢١٩-٢٣٤

(١٣) مدرسة الطب التي ولد فيها المهنيون الجدد في مجال الصحة نشأت في ١٨٢٧. والدورات الدراسية مدتها خمس سنوات: سنة تمهيدية وأربع سنوات من الطب بالفعل طبقاً لمنهج الدراسة الموجود في فرنسا (في الأساس علم التشريح والأمراض والطب العام). والمدرسون إيطاليون وفرنسيون ويتحدثون بلغتهم التي يقوم بترجمتها فوراً مترجم. ولتسهيل التعلم تتخذ طريقة لانكستر في التقسيم لمجموعات وإعادة المستمرة. راجع لافيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ٣٣-٣٥.

(١٤) مدرسة “الحكيماط”، الطبييات، في مقابل “الدايات”، الدايات الشعبية، نشأت في ١٨٣٢. والدورة الدراسية تنص بداية على عامين من دراسة اللغة العربية و أربع سنوات من الطب. وتدرس بصفة خاصة أمراض النساء، والصحة وتقنيات علاج الجروح، وممارسة التطعيمات إلخ. لافيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ١٢٢-١٣٣؛ بانزاك دانييل،

“Médecine révolutionnaire et révolution de la médecine dans l’Egypte de Mohammed Ali: Le Dr. Clot-bey

أعمال النقاش Les Arabes, les Turcs et la révolution française, ROMM

، ١٩٨٩، ص ٥٢-٥٣، ١٠٥-١٠٦.

(١٥) على سبيل المثال: المستشفى العسكري العام والمستشفى البحري في الإسكندرية،

المستشفيات المدنية في القاهرة ورشيد ودمياط والسويس، وشبكة المستشفيات الصغيرة الريفية والمحاجر الصحية في الإسكندرية ودمياط ورشيد والقصير وشبرا.

(١٦) على سبيل المثال، المجلس العام للصحة، الذي أنشأ بناء على طلب من كلوت بك في السنوات الأولى من وصوله إلى القاهرة، والهيئة الصحية في الإسكندرية، التي نشأت في ١٨٣١ وهي مكونة من القناصل الأوروبيين. خمسة منهم يؤلفون اللجنة القنصلية للصحة. ADBR. 200E/467، خطابات القنصل الفرنسي في الإسكندرية للمسؤولين عن الصحة في مرسيليا.

(١٧) التطعيم أدخل منذ عام ١٨١٩ برغبة من محمد علي. وبداية من ١٨٢٧، يقوم كلوت بك بتطعيم الموظفين المدنيين والعسكريين وعائلاتهم؛ ثم المواليد الجدد في المدن الكبرى وبداية من ١٨٣٠، المواليد في الريف. وتقدم تفسيراً لعلماء الدين للحصول على مساندتهم ويعبأ الحلاقون. وفي النهاية يصبح التطعيم إجبارياً لكل السكان من ١٨٤٦، بانزك دانييل، "Médecine révolutionnaire.." المذكور، ص ١٠٥

(١٨) حول البرنامج العام للإصلاحات الذي بدأه الباي أحمد في حكم تونس أقرأ كارل ليون، The Tunisia of Ahmed Bey (1837-1855)

، برنستون، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٧٤، ص ٤٠٩. بالنسبة للجوانب الصحية: جالاجير نانسى إليزابيث،

Medicine and Power in Tunisia (1780-1900)

، كامبيردج، مطبعة جامعة كامبيرج، ١٩٨٣، ص ص ١٢-٥ وسيتسالي سلفاتورى، Olter la peste..، المذكور.

وحول الغرب: رينو لوسيان

Etudes sur l'hygiène et la Médecine au Maroc, suivie d'une notice sur la climatologie des principales villes de l'Empire

، الجزائر، مطبعة س. ليون، ١٩٠٢، ص ٢٠٤؛ موسى دريس ورو ديسبس ميشيل (تحت إدارة)،

Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays Arabes et musulmans

، الدار البيضاء، مطبعة ماچه الجديدة، ١٩٩٥، ص ١١٢؛ أخميس مصطفى،

Médecine sans médecins ou, médecine traditionnelle médecine de toujours

الدار البيضاء، بينيميد، ١٩٨٣، ص ٢٩٤.

(١٩) الإقليم خاضع للنظام القضائي للمجلس الصحى فى القسطنطينية الذى أنشء فى

١٨٣٨. وقد وضعت اللائحة الصحية للإمبراطورية في ١٨٣٩. وحول صحة هذا الإقليم قبل الغزو الإيطالي لا توجد بعد خلاصة ذات طابع علمي.

(٢٠) من بين الأعمال العديدة جدا عن الصحة في الجزائر، نشير إلى : رينو لوسيان، سولييه هنري، بيكار بول،

Hygiène et pathologie nord-africaines. Assistance médicale

في Collection centenaire de l'Algérie، كتابان، باريس، ماسون وسي، ١٩٣٢، الكتاب الأول، ص ٥٥٠، الكتاب الثاني، ص ٦١٣؛ تورين إيفون،

Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale: Ecoles, médecines, religion (1830-1880)

باريس، ف. ماسبيرو، ١٩٧١.

(٢١) بالنسبة لنظام التعليم أنظر مولان آن- ماري،

"L'enseignement médical de Clot-Bey: l'esprit et la lettre de la modernité"

ص ١٣-١٦، في

AA. VV. Médecine et modernité en terres d'Islam

إعداد مولان آن- ماري وكوتوبي لورنس، باريس، CNRS، ١٩٩٩ (المكتوب على الآلة الكاتبة في طريقه للنشر وتفضلت المؤلفه بالإبلاغ عنه)؛ لافيرن كونكه، المرجع المذكور؛ ص ٣٣-٤٨.

(٢٢) مولان ين- ماري، "L'enseignement médical.."، المذكور، ص ١٧: كانت الأعمال المكتوبة بالعربية ترسم بناء على العنوان الفرنسي وكانت تقترح عناوين في جزئين مع البحث عن القافية والتناغم الصوتي لتسهيل الحفظ وخلق تأثير جمالي. وكان هذا يتضمن مقدمة كانت بمثابة دعوة لله مع تذكير بأنه سيد الكون، ومتضمنة أيضا تلميحات لدور الدولة المنعمة.

(٢٣) هذا يتحقق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد حكم محمد علي.

(٢٤) هؤلاء مسئولون من الصحة وليسوا أطباء حيث أن المدرسة الطبية في القاهرة لا تصدر هذه الشهادة. وبعض الطلبة يرسلون إلى فرنسا لاستكمال الدراسة والحصول على الدكتوراه ثم العودة إلى مصر كأطباء.

(٢٥) المسئولون من الصحة والأطباء الذين يتأهلون في مصر يحاولون الاقتراب من الناس بتجاوز الأطباء العشوائيين والتشكيك فيهم. بالنسبة لنشاط التجديد الذي قام به أهم الأطباء أنظر شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور، ص ١٢٣-١٢٦. والكفاح ضد

الطب التقليدي والممارسات الصحية التقليدية هو كفاح لم يتم الانتصار فيه بصورة نهائية. بالنسبة لعالم الفلاح في مواجهة الطب الجديد أنظر شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور، ص ١٥٧ والصفحات التالية.

(٢٦) بالنسبة للحديث عن العلاقة مع الماضي الطبى فى العصور الوسطى أنظر شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور، ص ١٣١ والصفحات التالية، الفقرة التى عنوانها

“Restitution d’une généalogie”

(٢٧) ريسبلر هاييم ف.

Islamic Medical Ethics in the Twentieth Century

، لايدن، بريل، ١٩٩٣، ص ١٥٢؛ شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور.

(٢٨) مثال مصر سيتم استغلاله فيما بعد فى بلدان أخرى. أقرأ على سبيل المثال: دينجويلى بشير، La variole en Tunisie، بوردو، ي. كاردونيه، ١٨٩٧، ص ٦٣.

(٢٩) بانزاك دانييل، “Médecine révolutionnaire..” المذكور، ص ص ١٠٢ - ١٠٣. كلوت بك يلجأ لمساندة بعض علماء الدين المصلحية؛ مولان آن - ماري، “L’enseignement médical..” المذكور، ص ٣، شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور، ص ١١٦.

(٣٠) يجب أن نوضح أن الجثث تقدم فى هذه الفترة على أنها جثث سود وأوروبيين أو يهود. بانزاك دانييل، “Médecine révolutionnaire..” المذكور، ص ٩٧.

(٣١) مولان آن - ماري، “L’enseignement médical..” المذكور، ص ٩.

(٣٢) هذا يحدث فى مصر فى الثلاثينيات بناء على دعوة من كلوت بك والملك (لاثيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ١١٥)؛ وفى تونس على العكس من ذلك نحو نهاية القرن التاسع عشر بناء على دعوة الدكتور دينجويلى والسلطات الصحية للمحمية الفرنسية؛ راجع دينجويلى بشير، المرجع المذكور.

(٣٣) كان البعض يخشى من أن تكون العلامة التى يتركها التطعيم على الذراع علامة تمييز للتجنيد الإجبارى بعد ذلك، مثل الدفعة المرسومة كوشم على ذراع البحارة لتجنب التهرب من الخدمة العسكرية. وقد سمي أيضا “وشم الجدرى” لتشابهه مع الوشم؛ لاثيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ١١٦. وقد بدأت المخاوف تتبدد فى اللحظة التى أجبر فيها محمد على حل الجيش فى ١٨٤١. ولكن هذا لا يعنى أن كل السكان قبلوا التطعيم خلال القرن التاسع عشر. وقد تعرض التطعيم علاوة على ذلك لمنافسة قوية من التلقيح التقليدي. “وربما ظهرت فى نفوس المصريين، كما حدث عند المسلمين الجزائريين، مقارنة بين هذا الجدرى الإلهي، كهبة إلهية لمرض حميد بصورة تلقائية ويمكن تشبيهه بالبركة وجدرى الحكومة المتمثل فى عدد المضايقات الإدارية

والإجراءات الاستبدادية التي تؤدي إلى عدم التفاهم، والقلق والثورة". مولان آن-ماري، "L'enseignement médical." المذكور، ص ١٠.

(٣٤) وقد حث محمد علي علي هذا مباشرة وحصل عليه. وقد انتشرت مساندة علماء الدين في هذه القضية الحساسة في العديد من الأعمال باللغة العربية التي ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية. على سبيل المثال: كمال محمد بن مصطفى بل الخوجة

La médecine et le quarantaines dans leurs rapports avec la loi musulmane (Tanouir Et Adlen) ، (ترجمة فرنسية)، الجزائر، المطبعة الشرقية، ١٨٩٦، ص ٣٦

(٣٥) حول هذه الموضوعات توجد قائمة مراجع هائلة للغاية. راجع أعمال وقوائم مراجع جون- N. بيرابين، دانييل بانزاك، جون- شارل سورنيا، جاك روفيه، جوزيبي رستيفو، باولو بريوتو، فرانكو ديلا بيروتا، إلخ.

(٣٦) مارتينيللي ألبرتو، المرجع المذكور، ص ١٢-١٣، ٩٣، ١٠٩.

(٣٧) بانزاك دانييل،

"Pratiques anciennes et maladies nouvelles: la difficile adaptation de la politique sanitaire au XIXe siècle", Bulletin et Mémoires de la Société a' Anthropologie de Paris,

عدد خاص، العدد العاشر، ١-٢، ١٩٩٨، ص ٥٣-٦٦.

(٣٨) يرى المناهضون لنظرية العدوى أن أي وباء يمكن ينتج على سبيل المثال من تغييرات في درجة الحرارة أو الرطوبة في مناطق مليئة بالمستنقعات أو غير صحية في تزامن أيضا مع ثورات بركانية أو زلزال أو مرور مذنبات. ويمكن للرياح أن تنقل في أعقاب ذلك "البخار العفن" الناتج إلى مناطق بعيدة للغاية.

(٣٩) مع الملاحة بالبخار أصبحت الرحلة من الإسكندرية إلى مرسيليا تستغرق الآن ستة أيام بعد أن كانت تستغرق قبل ذلك من ١٥ إلى ٣٠ يوما. ولا تتجاوز أي رحلة في البحر المتوسط الأسبوع. بانزاك دانييل،

Quarantaines et lazarets. L'Europe et la peste d'Orient (XVIIe-Xxe siècle)

، آيز أن بروقانس، إديسود، ١٩٨٦، ص ١٠٩. وهذا يؤدي إلى نهاية الحجر الصحي الطبيعي الذي كان يتم في السفن.

(٤٠) شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور، ص ٢٥

(٤١) يجب أن نوضح أن التعليم الذي أراده كلوت بك في مصر يقوم على وحدة المذهب. أي لتجنب الصدام في الرأي والفوضى في التفسير، كان يدرس للأطباء القادمين فقط

مذهب علم وظائف الأعضاء عند بروسية. بانزاك دانييل، "Médecine révolutionnaire.. المذكور ص ١٠٢؛ مولان آن-ماري، "L'enseignement médical.. المذكور، ص ١٦. ولهذا فإن المجلس الصحى العام فى القاهرة، المكون من أطباء مصريين من المناهضين لنظرية العدوى فى حين أن الهيئة الصحية فى الإسكندرية، المؤلفة من أوروبيين، منقسمة بين أنصار نظرية العدوى والمناهضين لها.

(٤٢) سبييتسيالى سلفاتورى، Oltre la peste...، المذكور. أنظر الجزء الثانى بشأن العلاقات الاجتماعية.

(٤٣) بانزاك دانييل، La peste..، المذكور، ص ٤٧٥

(٤٤) أحد الجوانب الأساسية فى عمليات التحديث، والذي تحقق أيضا فى الحالة المصرية أثناء حكم محمد على، هو بالتأكيد السيطرة على الكيان العدوى وتكوين السكان من خلال إجراء التعداد وإصدار نشرات عن الوفيات والمواليد والتطعيم. وهى إجراءات تجرى فى مصر قبل المغرب. أنظر ADBR. 200 E/467 خطابات السفراء والقناصل والممثلين الفرنسيين والإدارات الصحية الخارجية: القرن ١٧-١٩. مصر ١٦٩٧-١٨٥٠. ويتضمن الصندوق الأخبار والبيانات المتعلقة بأوبئة الطاعون والكوليرا المسجلة من ١٨٣١ فصاعدا.

(٤٥) أسس الزيادة السكانية تتكون فى الأربعينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر فى أعقاب اختفاء الطاعون ونجاح انتشار التطعيم. بانزاك دانييل، Endémies, AA. VV. L'Egypte au XIXe siècle epidémies et population en Egypte au XIXe siècle au XIXe siècle، باريس، طبغات الـ C.N.R.S.، ١٩٨٢، ص ١٠٠. أنظر علاوة على ذلك لنفس المؤلف: Les bases démographiques.. المذكور؛ The Population of Egypt in the Nineteenth Century, Asian and African Studies ١٩٨٧، ص ١١-٣٢؛ La transition démographique en Egypte: Une transition en palier (1800-1986) Cahiers de la Méditerranée، U dans les pays méditerranéens، جامعة نيس، العدد الثانى، ٤٠، يونيو ١٩٨٠، ص ٦٥-٩٤؛ L'ancien régime démographique au Machrek, XVIIIe-XIXe siècles démographique historique en Tunisie et dans le monde Arabe (١٥-١٦ نوفمبر ١٩٩١)، تونس، إنتاج تشيريس، ١٩٩٣، ص ٨٣-٩٤. وهذه الزيادة هى من العوامل الأساسية للمرحلة الأولى من عمليات التحديث. والمرحلة الثانية يمكن أن يشار إليها فى ممارسات احتواء الزيادة السكانية للمجتمعات النامية، والمتحضر والهجرة إلخ. مارتينيللى ألبرتو، المرجع المذكور، ص ١٢

(٤٦) التصور التطوري للنظرية الكلاسيكية في التحديث تعتبر التحديث عملية تسير في خط واحد ولا رجعة فيه، يتجه لعبور مراحل محددة سلفاً، عبرتها المجتمعات الحديثة. وبهذه الطريقة تهمل المقاطعات (أيزنشتادت، ١٩٩٦) وحالات التوقف (ريجز، ١٩٦٤)، والطابع غير المتساوي، وغير المستمر والمضطرب بشدة في تغير المجتمعات النامية (سميلسر، ١٩٦٨، والاتحاد السياسي (هنتينجتون، ١٩٦٥).
مارتينيللي ألبرتو، المرجع المذكور، ص ٧٧. أنظر أيضاً كوري رالف م.، Neo-Modernization Theory and its Search for Enemies: the Role of the Arabs and Islam, Islamic Studies ، ١٩٩٦، المجلد ٣٥، ٤، ص ٤٤٩ - ٤٥٨. جيفري س. ألكساندر، Modern, Anti, Post & Neo, New Left Review، ٢١٠، مارس-أبريل، ١٩٩٥، ص ٦٣ - ١٠١

لمحات عن أصول القضية المصرية

برونو ألييتي

١- يمكن إرجاع أصول القضية المصرية لحملة نابليون. فكان بالفعل في أعقاب إنزال القوات الفرنسية في وادي النيل (يوليو ١٧٩٨) أن أصبحت الأرض المصرية ميدانا للمنافسات الإنجليزية - الفرنسية وانتقلت فجأة إلى بؤرة الاهتمام الأوروبي.

وفيما بعد، مع شق قناة السويس (١٨٦٩) التي زادت بصورة حاسمة من الأهمية السياسية لمصر، أصبح الاهتمام الأوروبي بهذا البلد أكثر وضوحا. وقد وجد الصراع الدبلوماسي الفرنسي - البريطاني للسيطرة السياسية على وادي النيل في البداية حله المؤقت في تسوية، بفضل تكرين نظام مشترك للسيطرة عرف بفترة «السيادة المشتركة» (١٨٧٦ - ١٨٨٢) وانتهت بالتالي بالاحتلال العسكري من جانب بريطانيا.

وكانت الحملة الفرنسية في ١٧٩٨ قد صممت ونفذت لهدف محدد وهو إلحاق هزيمة منكرة بإنجلترا في الشرق وفتح الطريق لغزو الممتلكات البريطانية في الهند.

ولكن إنجلترا كانت يقظة. وكان شهر قد انقضى بالكاد على نزول الحملة الفرنسية في مصر عندما نجح تشكيل بحري كبير بقيادة الأدميرال نلسون في العثور على كل الفرقة البحرية الفرنسية التي كانت قد نقلت الحملة ودمرتها بالكامل في معركة حامية (أبو قير، أغسطس ١٧٩٨). ومنذ تلك اللحظة بدأ حصار بحري حقيقي ضد القوات الفرنسية التي كانت تعمل في مصر.

وفى ١١ من سبتمبر التالى، أعلن سلطان القسطنطينية الحرب على فرنسا، وبعد ذلك بقليل أبرم تحالفا مع روسيا (٢٣ ديسمبر ١٧٩٨). وبموجب هذا التحالف، منح السلطان القيصر الحق فى مرور السفن الحربية عبر مضيق البوسفور والدردنيل، وحصل فى مقابل ذلك على اثنتى عشرة سفينة حربية. وفى ٢ يناير ١٧٩٩ أبرم اتفاق إنجليزى - عثمانى استكمل بعد ذلك بثلاثة أيام بمعاهدة سرية، تضمن بموجبه القوتان مناطق السيطرة الخاصة بكل منهما.

وطوال بقاء نابليون فى مصر واجهت الحملة الفرنسية بنجاح كل المصاعب على الرغم من أنها كانت مضغوطة من جميع الجوانب. ولكن حملة سوريا فى النصف الأول من ١٧٩٩، والتي انتهت بعدم اقتحام قلعة سان جوفانى داكرى، والخسائر الجسيمة التى تعرضت لها الحملة الفرنسية كانت بمثابة الغروب النهائى لأحلام نابليون فى التوسع فى الشرق. وبعد ذلك بسنوات طويلة، فى سانت هيلانة، ذكر نابليون الإنجليزى سيدنى سميث، الذى أحيا نظم الدفاع العثمانى لسان جوفانى داكرى، وكتب بمرارة مستسلما: هذا الرجل ضيع على حظى^(١).

وبعد عودة نابليون إلى فرنسا، نجحت الحملة الفرنسية فى الاحتفاظ بمواقعها تحت قيادة الجنرال الماهر كليبر، على الرغم من أنها كانت منهكة وتعرضت لخسائر كبيرة. ولكن عندما اختفى هذا الأخير أيضا عن الساحة، بعد أن سقط تحت خنجر شاب مسلم، أصبح موقف القوات الفرنسية يائسا^(٢).

ولم يواجه الجنرال مينو الذى انتقلت إليه قيادة القوات الفرنسية الباقية بالخبرة والقوة اللازمة حشد قوات عثمانية كبيرة فى سوريا والإنزال الناجح لما يقرب من عشرين جنديا بريطانيا فى شبه جزيرة أبو قير وثمانية آلاف هندى فى القصير على البحر الأحمر، فبدلا من تركيز كل القوات المتاحة ضد القوات التى أنزلت فى أبو قير، والتي كانت تمثل التهديد الأخطر، لكى يحاول طردها من جديد نحو البحر لكى يتجنب بعد ذلك التهديد القادم من القصير وسوريا، ارتكب مينو بالفعل، خطأ تفتيت قواته إلى حاميات صغيرة وسهل بهذه الطريقة إبادةها

التدريبية. وقد استطاعت القوات البريطانية والعثمانية تعزيز مواقعها وبالتالي مواجهة القوات الفرنسية بانتصار بعد أن أنهكت وانهارت معنوياتها، في معركة كانوبو (أبو قير) (٢١ مارس ١٨٠١).

وقد تدهورت الأحداث منذ تلك اللحظة. ففي يونيو من العام نفسه استسلمت الحامية الفرنسية في القاهرة، بقيادة الجنرال بليارد، وفي ٣٠ أغسطس التالي قبل مينو بالاستسلام بعد أن حوَّصر في حصون الإسكندرية بعد أن حصل من الإنجليز على وعد بإعادة قواته الفرنسية الباقية إلى الوطن.

وفي ٩ أكتوبر، وقعت فرنسا على الإجراءات التمهيدية للسلام مع السلطان. وقد ضمنت المعاهدة النهائية، الموقعة في ٢٦ يونيو ١٨٠٢، سلامة الإمبراطورية العثمانية واعترفت بسيادة الباب العالي على مصر.

وبعد استسلام مينو، سحبت القوات البريطانية جزئياً من مصر، بعد أن استدعيت للاحتياج إليها للحرب في مناطق أخرى. ولكن القوات الباقية، التي كان يتعين عليها الرحيل عن مصر طبقاً لسلام أمينز المبرم مع فرنسا في ٢٥ مارس ١٨٠٢، بعد ثلاثة أشهر من إبرام السلام نفسه، أعيدت إلى الوطن فقط في مارس ١٨٠٣، أو عشية قطع الهدنة الفرنسية - البريطانية، في أعقاب الاحتجاجات الشديدة لفرنسا.

وسرعان ما أصبحت مصر ساحة لمنافسات محلية جديدة بين أولئك الذين كانوا يطمحون للسلطة، بعد أن تركت لتواجه مصيرها بعد انسحاب الجيوش الأجنبية التي جاءت للاقتتال على أرضها. وقد تميز العامان ١٨٠٣، و ١٨٠٤ بصراعات عنيفة بين المماليك، وقوات السلطان والعناصر الألبانية التي أرسلتها الحكومة العثمانية إلى مصر أثناء الصراع ضد الفرنسيين. وأثناء هذه الصراعات تأكدت بسرعة سلطة الألباني محمد علي، عضو الحملة العثمانية، وبعد طرد الحاكم التركي محمد خسرو باشا وهزيمة المماليك نجح محمد علي في تعيين نفسه باشا للقاهرة في مايو ١٨٠٥، من قبل مجلس العلماء والقضاة. وقد صدق الباب العالي على التعيين في ٢٤ يوليو ١٨٠٥.

وفى بداية ١٨٠٧، عند اندلاع الحرب بين روسيا والباب العالي، اتخذت إنجلترا، بموجب التحالف القائم، إجراءات لتقديم المساعدة لروسيا والدفاع عن الشرق الأدنى من عمليات فرنسية أخرى. وفى ٩ فبراير ١٨٠٧ دمر أسطول عثمانى عمليا فى معركة بحرية مع القوات الإنجليزية ولم تتجح بعض المفاوضات التى بدأت على الفور بعد إبرام السلام بفضل العمل الماهر الذى مارسه على السلطان الممثل الدبلوماسى الفرنسى فى إسطنبول، سيباستيانى.

وعندئذ قامت إنجلترا بإنزال قوة من ستة آلاف رجل فى الإسكندرية (١٦ مارس ١٨٠٧) بهدف تجنب أية مبادرات فرنسية. وقد احتلت المدينة دون إطلاق طلقة واحدة بينما كان محمد على مشغولا فى عمليات حربية فى صعيد مصر. ولكن المحاولات الإنجليزية التالية لمد نطاق الاحتلال لاقت نجاحا أقل. وفى ٣١ مارس و ٢١ أبريل ١٨٠٧، فى صدامين متتاليين مع القوات المصرية فى منطقة رشيد (غرب الإسكندرية) هزمت القوات الإنجليزية وأجبرت بعد الهزيمة الثانية والحاسمة، على الانسحاب إلى الإسكندرية. وقد دفع نقص التعزيزات المناسبة والمصاعب الخطيرة فى الإمدادات الجنرال فريزر، قائد الحملة الإنجليزية للبدء فى مفاوضات مع محمد على. وقد تمت فى سبتمبر بإبرام اتفاقية تنص على الجلاء التام للقوات البريطانية عن مدينة الإسكندرية.

وقد دعم إخفاق المحاولة الإنجليزية موقف باشا مصر وزاد من مكانته القنصل الفرنسى دروفيتى، الذى كان مستشارا بالغ النشاط لمحمد على طوال الأزمة.

وبعد القضاء على خطر الغزو الأجنبى، استطاع محمد على أن يكرس نفسه كلية للإصلاح الداخلى لمصر والقضاء على المقاومات الأخيرة لعمله. وفى الحقيقة كان لابد من خلق كل شىء حيث إنه لم يكن هناك أثر لإدارة منتظمة. وكان المماليك، الإقطاعيون المحليون الحقيقيون، قد فرضوا سلطتهم حتى ذلك الحين، فى كل البلاد وفرضوا ضرائب ومظالم أخرى على سكان مقاطعاتهم.

ولم يتردد محمد على في مصادرة أراضي المماليك التي عهد بها للفلاحين بعد تقسيمها إلى قطع صغيرة. وكان من الطبيعي أن يصبح عداء الحكام المماليك تجاه محمد على بعد هذه الإجراءات أشد قوة وعنادا. وقد قرر باشا مصر في الوقت نفسه التخلص نهائيا منهم، بعد بعض المحاولات للوصول إلى اتفاق دون جدوى مع كبار ممثليهم. وقد سددت لهم ضربة حاسمة في أغسطس ١٨١٠ في صدام الفيوم. وقد أبيد القادة الباقون تماما في كمينين تاليين نصبهما لهم محمد على، على التوالي في مارس ١٨١١ في قلعة القاهرة^(٣)، وفي مايو ١٨١٢ في منطقة إسنا.

ولم تعترض العمل الإصلاحى لباشا مصر منذ ذلك الحين أية عقبات. وكانت إعادة تنظيم الجيش الواجب الذى كرس محمد على له نفسه بعناية دقيقة حقا. وأنشئت المدارس الحربية وأعيد تنظيم كوادى الجيش وتوسيعها مع الاستعانة بضباط أجانب، معظمهم من الفرنسيين. وكانت القوات المسلحة تضم ما يزيد على مائة ألف رجل بعد أن كان يمثلها فى ١٨٠٦ بضعة آلاف من الرجال المسلحين والمدربين بصورة سيئة. وقد بنيت البحرية العسكرية أيضا من جديد.

وكان هدف محمد على واضحا. فقد كان ينوى خلق بناء حكومى متين ومتجانس وقادر على مواجهة أى تهديد من الداخل أو الخارج. ليس هذا فحسب، فربما كان باشا مصر ينوى، منذ ذلك الحين التمهيد لبناء دولة قوية فى وادى النيل يقدر لها فى مستقبل غير بعيد أن تحل محل الباب العالى العثمانى الذى كان يدرك انهياره السريع. ولكن العلاقات التركية المصرية، فى مرحلة أولى، كانت تتسم بـود رسمى، وفى مرات عديدة قدم باشا مصر للسلطان مساعدته العسكرية الفعالة.

وقد قدمت أول مساعدة مهمة للباب العالى فى الصراع ضد الوهابيين الذين كانوا قد تمردوا فى الجزيرة العربية على سلطة القسطنطينية. وكان الصراع عنيفا وطويلا، وامتد مع حوادث متلاحقة لمدة سبع سنوات (١٨١١ - ١٨١٨)، ولكن التمرد أخمد فى النهاية. وقد أسر زعيم الوهابيين عبد الله، وسلم للسلطان الذى قطع

رأسه. وكمكافأة للمساعدة المقدمة، حصل محمد على على جزيرة تاسوس، الواقعة قبالة كافالا، مسقط رأسه.

وفي ١٨٢٠ بدأ باشا مصر حملة السودان بهدف إخضاع أقاليم أعالي النيل الغنية والثاسعة. وقد نفذت هذه الحملة أيضا وسط مصاعب كبيرة ترجع أساسا للظروف المناخية والخبرة الضئيلة بالأماكن. وقد سقط ابن محمد على نفسه، إسماعيل في ١٨٢٢ في منطقة شندى، ضحية كمين. وعلى الرغم من ذلك استؤنفت حملة السودان بأقصى طاقة واستطاع الاحتلال المصرى الوصول حتى حدود الحبشة بعد الاستيلاء على أعالي النوبة وسنار وكردفان.

وفي ١٨٢٣ تدخل محمد على من جديد لمساعدة السلطان واحتل كريت، بعد أن أعاد للسكان المتمردين رشدهم. وفي العام التالى، قدم السلطان لباشا مصر، كمكافأة على المساعدات المقدمة، ولاية دمشق، التى كان يطمح إليها محمد على منذ زمن بعيد. ولكن المكائد التى حاكها فى القسطنطينية خسرو باشا، الذى تولى بين يناير ١٨٠٢ ومارس ١٨٠٤ منصب باشا مصر واعترض بعناد على أول تصديق لمحمد على، دفعت السلطان لإلغاء العرض. ولكن بعد ذلك بقليل (يناير ١٨٢٤) كان السلطان مضطرا للعودة إلى طريق التنازلات وقدم لإبراهيم، الابن الأكبر لمحمد على والقائد الماهر للقوات المصرية^(٤) ولاية موريا للحصول على مساعدة القوات المصرية فى قمع حركات التمرد التى انفجرت فى اليونان. وفى العام التالى، بعد أن حققت قوات إبراهيم نجاحات مهمة، عين السلطان محمود، محمد على رئيسا لوزراء الإمبراطورية العثمانية وجدد له الوعد بولاية دمشق.

وفي ١٨٢٦ واصلت القوات المصرية بانتصار حملتها فى موريا، وكان أهم حدث فى ذلك العام هو الاستيلاء على ميسولونجى من قبل الجانب العثمانى الذى وجه ضربة خطيرة للوطنيين اليونانيين (أبريل ١٨٢٦). ولكن طول أمد الحرب وسقوط أثينا (٥ يونيو ١٨٢٧) سرع بإبرام اتفاق بين فرنسا وإنجلترا وروسيا حول القضية اليونانية.

وقد وقعت القوات الثلاث بالفعل فى ٦ يوليو ١٨٢٧ فى لندن اتفاقية اعترفت فيها بضرورة إقرار السلام بين الباب العالى والوطنيين اليونانيين، على أساس تكوين مملكة اليونان التى تدفع الجزية للسلطان. وقد اتفق أيضا على إرسال فرقة بحرية إنجليزية - فرنسية - روسية إلى المياه اليونانية بهدف ممارسة الضغط على السلطان. وفى سبتمبر التالى دعت القوى الثلاث الجنرال إبراهيم الذى كان يقود عمليات موريا لوقف العمليات الحربية. وفى الوقت نفسه أرسلت الفرقة البحرية المختلطة للقوى الثلاث إلى مياه نافارينو، حيث كان قد تجمع معظم القوات البحرية التركية - المصرية. وقد أدى حادث وقع بين الأسطولين المتجابهين إلى معركة بحرية عنيفة انتهت بالتدمير الكامل للقوات التركية - المصرية (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧).

وبينما قرر محمد على، بعد هذه الحادثة التخلّى عن حملة اليونان واتفق مع الإنجليز على انسحاب قواته، احتفظ الباب العالى بتشدده فى قضية الاستقلال اليونانى، وكانت النتيجة أن أعقبت ذلك حرب روسية عثمانية انتهت فى سبتمبر ١٨٢٩ بسلام أدريا نوبولى. الذى شهد انتصار موسكو. ومع بروتوكول لندن فى ٣ فبراير ١٨٣٠، اعترفت القوى الكبرى باستقلال اليونان رسميا.

٢- وفى أغسطس ١٨٣٠ منح السلطان محمد على حكم جزيرة كريت، كمكافأة على المساعدات التى تلقاها أثناء الحرب مع روسيا. وفى هذه المرة أيضا بقى الوعد بولاية دمشق حبرا على ورق. ولهذا السبب فإن محمد على أعطى إشارة البدء فى منتصف العام التالى تقريبا، لحملة سوريا، بذريعة ما، مستغلا الوضع الصعب الذى كان يمر به الباب العالى نتيجة لسلام أدريا نوبولى. وقد حملت العمليات العسكرية القوات المصرية إلى ما وراء سيناء. وفى ٨ نوفمبر تم الاستيلاء على يافا وبعد ذلك ببضعة أيام (٢٦ نوفمبر) حوصرت مدينة سان جوفانى داكرى المحصنة، والتى كانت قد تحطمت عليها هجمات نابليون قبل ذلك ببضع عشرات من السنين.

وقد توقفت المفاوضات التى كانت قد بدأت فى الوقت نفسه بين الباب العالى

ومصر في أبريل ١٨٣٢، بعد رفض السلطان قبول شروط محمد علي (ولاية سان جوفاني داكري واحتلال طرابلس وسوريا واللاذقية)، وقد أعلن الباب العالي في الوقت نفسه محمد علي متمردا وأعلن عليه الحرب (١١ مايو ١٨٣٢). وبعد ذلك ببضعة أيام (٢٧ مايو ١٨٣٢) استسلمت مدينة سان جوفاني داكري، وفتحت الطريق أمام قوات إبراهيم نحو قلب الإمبراطورية العثمانية. وعند هذا الحد، بدا محمد علي ميالا للاتفاق مع السلطان، بعد أن رضى بالنجاحات التي حققها وخوفا منه لاحتمال تدخل القوى الكبرى. ولكن المفاوضات هذه المرة أيضا لم تبرم بسبب رفض الباب العالي منح باشا مصر حكم سان جوفاني داكري وطرابلس سوريا.

وبعد استئناف العمليات الحربية، حققت القوات المصرية اختراقات مهمة في سوريا، وفي ١٠ يوليو ١٨٣٢، في أول صدام مع القوات العثمانية، حققت نجاحا مدويا.

وقد أعقب ذلك، بناء على نصيحة من فرنسا التي كانت قد دعمت باشا مصر دائما، اقتراح جديد للسلام لمحمد علي، على السلطان، ولكن هذا الاقتراح أيضا بقي بلا نتيجة. وكان باشا مصر ميالا للاعتدال لوعيه بالتعقيدات الدولية التي كانت ترسم في الأفق. ولكن نصائح إبراهيم بالتشدد كانت لها الغلبة وتلقت القوات المصرية الأمر بمواصلة العمليات في سوريا. وفي ٢١ ديسمبر اصطدمت قوات إبراهيم بالقرب من قونية بالقوات العثمانية وحققت انتصارا جديدا حاسما.

وفي هذه المرة بدا السلطان مستعدا لقبول تسوية وتلبية مطالب محمد علي. وهكذا قدمت لباشا مصر في يناير ١٨٣٣ حكم سان جوفاني داكري، ودمشق. ولكن إبراهيم استأنف التقدم متجها بحسم نحو قلب الإمبراطورية العثمانية دون انتظار كلمات محمد علي، سواء لأنه كان يعتبر التنازلات غير كافية أو لأنه كان يعتبر الباب العالي قد وصل إلى الحد الأقصى لإمكاناته في المقاومة.

وعند هذا الحد ظهر تدخل حاسم للقوى الكبرى الثلاث (روسيا وبريطانيا وفرنسا)، ولكنه لم يكن تدخلا منسقا. فبينما أعلنت فرنسا صراحة عن وقفها

بالفعل إلى جانب باشا مصر، أظهرت روسيا وإنجلترا تصميمهما على حماية سلامة الإمبراطورية العثمانية المتداعية.

ولم يكن الخلاف في وجهات النظر سوى مجرد انعكاس لاختلاف المصالح. ففرنسا، منذ السنوات التي تلت مباشرة حملة بوناپرت، كانت قد بدأت اختراقا سياسيا تدريجيا في مصر ونجحت بالتأكيد بقوة على نفوذها لدى باشا مصر. وكان من مصلحتها في الوقت نفسه أن ترى تدعيم موقف محمد علي.

ولكن المصالح البريطانية والروسية كانت عكس المصالح الفرنسية. فبريطانيا، من ناحية، كانت تذكر المخاطر التي تعرضت لها إمبراطوريتها في الهند أثناء حملة نابليون، وكانت تتابع بقلق متزايد تعاظم النفوذ الفرنسي في مصر. ولهذا السبب لم تكن مستعدة لتشجيع تحرر وتقوية بلد كان لفرنسا نفوذ طاغ عليه. وكان لروسيا، من الناحية الأخرى، كل المصلحة في ضمان سلامة الإمبراطورية العثمانية من أي خطر للتقسيم، بعد أن توصلت بمعاهدة أدريا نوبولي إلى بعض المطامح السياسية والإقليمية المهمة.

وكان أول من تحرك هو روسيا. فبعد أن شهدت في ديسمبر ١٨٣٢ رفض السلطان لاقتراح بالمساعدة، سارعت بالتدخل على عجل بعد استئناف تقدم قوات إبراهيم. وبين فبراير وأبريل ١٨٣٣ دخل الأسطول الروسي البوسفور وأنزل ٢٠ ألف رجل في سكوتاري.

وقد دفع الإجراء الروسي الذي غير بعمق التوازن في البحر المتوسط، إنجلترا وفرنسا لتركيز الجهود لإقرار السلام بين الباب العالي وتابعه القوى، بهدف إبطال ذريعة روسيا التي كانت السبب في تدخلها. وقد أتى العمل الفرنسي - البريطاني ثماره، وفي ٥ مايو ١٨٣٣، أمكن بالفعل التوقيع على سلام كوتاهايا بين الباب العالي ومصر. ولم يحصل محمد علي، على كل ما كان ينوي الحصول عليه، ولكن الباب العالي خرج مهانا إلى حد كبير من ولايتي سوريا وطرسوس، وقد حصل إبراهيم بدوره على الحكم مدى الحياة على مقاطعة أضنة. وبعد أن

انتهى هكذا هذا الصراع الذى أثار كثيرا من التوتر فى أوروبا، سحبت روسيا قواتها من الأراضي العثمانية وأسطولها من الدردنيل، ولكن بعد أن أبرمت أولا مع الباب العالي معاهدة هونكيا، إسكيليزى (٨ يوليو ١٨٣٣) التى تعهدت فيها القوتان العظيمان بالمساعدة المتبادلة فى حالة حدوث أى اعتداء على أى منهما. وكانت روسيا فى الواقع قد نجحت، بهذه المعاهدة، فى إقامة حماية مقنعة على القسطنطينية نفسها، يلتزم السلطان بموجبها، فى حالة حدوث حرب، بإغلاق الدردنيل أمام السفن الحربية لكل القوى بناء على طلب روسيا.

لم يكن سلام كوتاها قد أَرْضَى الباب العالي ولا محمد على. فلم يكن من الممكن للباب العالي أن ينسى الإذلال الذى تعرض له من تابعه القوى وكان يتوق للانتقام لينتزع من محمد على التنازلات التى كان قد اضطر لتقديمها له، ربما تحت ضغط الهزائم العسكرية. وكان محمد على من الناحية الأخرى يطمح فى أن يجعل نفسه مستقلا تماما عن القسطنطينية، وكان ينتظر فقط الفرصة المواتية لتحقيق طموحه هذا. وفى عام ١٨٣٨ أصبح الموقف متوترا من جديد بصورة خاصة بين السلطان ومحمد على وبدأت بداية حرب جديدة وشيكة.

وقد تزايد النشاط الدبلوماسى لفرنسا وإنجلترا. وفى يونيو من ذلك العام حاولت حكومة باريس ندب روسيا إلى خط عمل مشترك تجاه مصر، مقترحة ممارسة ضغوط على السلطان حتى يتخلى عن عزمه فى الانتقام من محمد على والاعتراف بالاستقلال المصرى. ولكن الحكومة الروسية التى لم تكن لها أية مصلحة فى تقوية مواقف باشا مصر، تغاضت عن الاقتراح، بل إنها أعادت التأكيد على قرارها الالتزام بدقة بمعاهدة هونكار - إسكيليزى فى حالة اندلاع حرب بين تركيا ومصر.

وكانت إنجلترا راغبة فى إرضاء السلطان لإبعاده عن التحالف مع بطرسبرج، فأخبرت محمد على من جانبها فى بداية يوليو ١٨٣٨ بأنه فى حالة بدء العمليات الحربية ضد الباب العالي، لن تتردد إنجلترا فى الوقوف إلى جانب

السلطان. وقد وصل نص المذكرة بسرعة إلى علم الحكومة العثمانية. وفي الوقت نفسه انضمت الحكومة الإنجليزية بسرعة لاقتراح مقدم من محكمة فيينا لإجراء مؤتمر بين إنجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا للاتفاق على القضية التركية - المصرية، فقد كانت لندن ترى بالفعل في هذا المؤتمر الوسيلة لإلغاء الوضع المميز الذي كانت روسيا قد نجحت في ضمانه للقسطنطينية وللحد من طموحات باشا مصر. ولكن روسيا التي لم يفتها هدف المؤتمر، رفضت الدعوة.

وبعد ذلك بقليل، كان هناك تأكيد للاتفاق الإنجليزي العثماني الذي كان يرتسم بإبرام معاهدة تجارية بين القوتين (أغسطس ١٨٣٨). ولكن المحادثات التالية لإبرام معاهدة تحالف فشلت لمعارضة إنجلترا الاشتراك الكامل مع الباب العالي أو للتحسن الذي طرأ على العلاقات الإنجليزية - الروسية.

وفي أبريل ١٨٣٩ قرر السلطان مهاجمة القوات المصرية المتمركزة في سوريا معتبرا أن الموقف الدولي موات لذلك، ومستغلا بعض الانتفاضات التي كانت قد حدثت في ذلك الإقليم.

ولكن الحملة انتهت بهزيمة خطيرة للقوات العثمانية. وفي ٢٤ يونيو أوقعت القوات المصرية بقيادة إبراهيم بالقوات العثمانية هزيمة قاسية في منطقة "نصيب" وكانت الكارثة هذه المرة أكبر بكثير من كوارث الحملات السابقة. وكانت نتائج المعركة ما يزيد على خمسة عشر من الأسرى والاستيلاء على كل المدفعية العثمانية تقريبا. وعلاوة على ذلك سلم الأسطول العثماني نفسه لمحمد علي دون إطلاق طلقة واحدة، علامة على الاحتجاج على التساهل الذي أبداه رئيس الوزراء جوزيف باشا إزاء التدخل الروسي المتزايد في الشؤون العثمانية.

٣- وقد أجبر الانتصار الحاسم الذي حققته القوات المصرية السلطان على الدخول في مفاوضات لإبرام السلام. وكانت الشروط التي وضعها محمد علي لوقف الأعمال القتالية هي: الاعتراف بالحكم الوراثي لولايتي سوريا

وكريت، وإقالة رئيس الوزراء خوزريف، الذى كانت توجهاته السياسية دائما معادية لمصر، وفى الوقت نفسه أعلن عن استعداده لإعادة الأسطول للسلطان.

كانت شروط السلام صعبة. ولكن السلطان الذى أصبح لا يملك الآن أية قوة عسكرية قادرة على مقاومة قوات إبراهيم، أجبر على الدخول فى مناقشة على هذه الأسس مستبعدا فقط أى احتمال للتنازل الوراثة عن جزيرة كريت.

وكانت المفاوضات بالفعل توشك على الانتهاء، عندما أنقذ "التسويق" الأوروبى موقف الباب العالى فى آخر لحظة. وفى ٢٧ يوليو ١٨٣٩، بالفعل، سلم سفراء فرنسا وإنجلترا والنمسا وروسيا - المعتمدين لدى الباب العالى - للسلطان مذكرة جماعية، أبلغ محمد على بمحتواها فيما بعد، وأعلن فيها عن أن الاتفاق على قضية الشرق يجب أن تضمنه القوى الكبرى، وأن تعلق الحكومة العثمانية لذلك "أى تحديد نهائى متعلق بالمقترحات المقدمة من باشا مصر دون مشاركتها"، انتظارا لقراراتها.

وعلى الرغم من تسليم هذه المذكرة للسلطان، فإنه لم يكن من الممكن اعتبار أن الاتفاق بين القوى الخمس قد تم بسبب الخلاف الجوهري الذى استمر، خاصة بين فرنسا من ناحية وإنجلترا وروسيا من الناحية الأخرى. وبينما استمرت حكومة باريس، تمشيا مع توجيهات سياستها، فى مساندة باشا مصر، مؤكدة على ضرورة إعطاء محمد على حكم سوريا كلها. لم تكن بريطانيا وروسيا والقوى الكبرى الأخرى مستعدة للاعتراف لمحمد على بشيء أكثر من الحكم الوراثة لمصر، وأعادت التأكيد على ضرورة الحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية دون أى مساس بها.

وفى خريف ١٨٣٩، فى آخر محاولة للاتفاق مع فرنسا اقترحت بريطانيا الاعتراف لمحمد على بحكم سوريا الجنوبية أيضا، علاوة على الحكم الوراثة لمصر. وكان الباب العالى سيحتفظ بمدينة أكرى والأماكن المقدسة وسوريا

الشمالية. ولكن الاتفاق لم يتم التوصل إليه للإلحاح الفرنسي لتسليم سوريا كلها لمحمد علي.

وفي النصف الأول من ١٨٤٠، كان عمل الدبلوماسية الفرنسية مكثفا لتشجيع اتفاق مباشر تركي - مصري. واجتهدت فرنسا بنشاط لتقريب وجهتي النظر العثمانية والمصرية بتقديم الاعتدال للحكومتين. وقد حقق عمل الدبلوماسية الفرنسية في مايو أول نتيجة مهمة، فقد أقال السلطان بالفعل رئيس الوزراء خوزريف باشا من منصبه، وقضى بذلك على واحدة من العقبات الرئيسية أمام الاتفاق بين الباب العالي ومصر.

وبمجرد أن وصل الخبر إلى القاهرة، سارع محمد علي بإرسال مبعوث له إلى القسطنطينية للتفاوض على السلام مع السلطان على أساس الاعتراف بميراث حكم مصر وسوريا كلها، في مقابل إعادة الأسطول العثماني. وعلى الرغم من أن باشا مصر أبقى على مطالبه دون تغيير بشأن سوريا فإنه أعلن مع ذلك عن استعداده للتخلي عن جزيرة كريت بهدف تسهيل الاتفاق.

وقد منع تدخل إنجلترا لدى السلطان مرة أخرى إبرام الاتفاق. فحكومة لندن التي كانت قد نجحت بالفعل منذ يناير ١٨٤٠ في إبرام اتفاق مع روسيا حول المساعدات المقدمة للسلطان ضد باشا مصر^(٥)، قدمت في يوليو التالي اقتراحا للتصالح يفرض على الباب العالي ومصر وقد أصبح هذا الاتفاق، الذي نوقش وتمت الموافقة عليه، في المؤتمر الذي عقد بين بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا في شهر يوليو نفسه في لندن، أصبح جزءا لا يتجزأ من معاهدة لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠.

وهكذا حققت إنجلترا نصرا دبلوماسيا مهما، ليس فقط لأنها تسببت في فشل الوساطة الفرنسية بين محمد علي والسلطان ولكن أيضا لأنها تركت حكومة باريس في عزلة تامة في أوروبا.

ومن تلك اللحظة، كما سنرى، سيطالب "الاتحاد الأوروبي" بالحق في مناقشة

وحل أى تعقيد فى قضية الشرق وسينصب من نفسه ضامنا لسلامة الإمبراطورية العثمانية. وسوف تضاف إلى القوى العظمى بعد ذلك فرنسا التى ستتضم لاتفاقيات العام التالى، بعد أن تخلت عن مطامحها، للخروج من عزلتها وإيطاليا (بييمونتى) كعضو موقع على معاهدة باريس فى ٣ مارس ١٨٥٦ وبعد ذلك، بعد وحدة المملكة، كعضو منضم للوثيقة النهائية لمؤتمر لندن ١٨٧١^(٦).

٤- كانت ظروف السلام التى أقرتها اتفاقية ١٨٤٠ تهدف للحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية من أى تهديد محتمل. وكانت مقدمة الاتفاقية واضحة جدا، حيث كانت تبرر التدخل بطلب من السلطان وتبرره بـ "الرغبة فى الحرص على الإبقاء على سلامة واستقلال الإمبراطورية العثمانية، لمصلحة تعزيز السلام فى أوروبا..."^(٧). وكانت القوى الكبرى، لغيرة كل منها من الأخرى، قد وجدت فى صيغة "الوضع الراهن" العنصر المؤقت لمصالحها المتضاربة.

وفى المواد الثلاث الأولى من الاتفاقية هناك إشارة إلى الإجراءات العسكرية التى ستتخذها القوى الكبرى، كضامنة لسلامة الإمبراطورية العثمانية، ضد محمد على إن لم يخضع لشروطها فى السلام. وقد تقرر بصفة خاصة التزام القوى الكبرى بـ "العمل فى اتفاق تام" وتوحيد جهودها لدفع باشا مصر للتمشى مع قواعد الاتفاقية" (المادة ١). وإذا أبدى محمد عبده مقاومة على الرغم من ذلك، فإنها ستلتزم بأن تتخذ ضده التدابير المتفق عليها والمقررة سلفا بناء على طلب السلطان. وإذا رد باشا مصر عسكريا، فإنها تعهد بالالتزام الرسمى بالسعى فى اتفاق مشترك" بهدف وضع مضايق البوسفور والدردينيل، وكذلك عاصمة الإمبراطورية العثمانية، تحت الحماية ضد أى اعتداء (المادة ٣) والمادة التالية تكمل السابقة، فهى تقر بأن جميع الإجراءات التى يحتمل أن تتخذ للدفاع عن المضايق ستتخذ طابعا مؤقتا واستثنائيا وأن السلطان، على أى حال، سيبقى مبدأ حظر الدخول أمام السفن الحربية الخاصة بالقوى الأجنبية سارى المفعول فى

البوسفور والدردنيل فى أى وقت. وكان هذا الحظر يطبق أيضا على روسيا كطرف فى الاتفاقية.

كان من الواضح أن القوى الأوروبية، فى مطالبتها بحل أى قضية ترتبط بمصر وضمن سلامة الإمبراطورية العثمانية، لم تكن تريد ضرب محمد على فحسب، بل أيضا وبصفة خاصة نزع المزايا التى كانت روسيا قد اكتسبتها بمعاهدة هونكار - إسكيليزى.

وكانت شروط السلام التى يتعين فرضها على مصر محددة فى وثيقة مرفقة بالاتفاقية. ويمكن تلخيصها فيما يلى:

(١) سيتمنح حكم مصر وسان جوفانى داكرى، مع حق الانتقال الوراثى المقتصر على مصر، لمحمد على إذا أبلغ القوى الكبرى بقبوله خلال اليوم العاشر من إعلان المقترحات. ولكنه سيتعين عليه فى هذه الحالة أن يسلم لمبعوث السلطان الأمر المكتوب والمباشر لقادة القوات المصرية بالجلء فورا عن سوريا الجنوبية والجزيرة العربية وجزيرة كريت.

(٢) إذا لم يرد محمد على خلال هذه الفترة، فإن المقترحات ستفقد أى قيمة لها. ولكن باشا مصر سيكون له موعد جديد متاح لمدة عشرين يوما لقبول الولاية الوراثية لمصر وحدها. وأخيرا إذا لم يرد محمد على أيضا خلال هذه الفترة، فإن السلطان سيكون حرا فى إلغاء التنازل الثانى أيضا.

(٣) ستدفع مصر للباب العالى جزية سنوية تتناسب مع امتداد الأراضى الخاضعة لحكم الباشا. وسوف تحصل الضرائب باسم السلطان.

(٤) فى أى من البلدين، سيعاد الأسطول العثمانى كله إلى السلطان.

(٥) المعاهدات الدولية التى أبرمها الباب العالى، بالإضافة إلى القوانين العثمانية ستطبق على الفور فى مصر وفى أكرى.

(٦) قوات مصر البرية والبحرية ستعتبر جزء لا يتجزأ من قوات الإمبراطورية العثمانية.

وقد أعقب ذلك "بروتوكول" و"بروتوكول سرى". فقد تأكد فى البروتوكول مبدأ إغلاق المضائق أمام السفن الحربية. وفى البروتوكول السرى اتفق على أن الإجراءات القهرية ضد باشا مصر كان يمكن أن تتخذ، عند الضرورة، أيضا قبل تبادل التصديقات.

وأثناء المفاوضات التى كان من المقرر أن تفضى إلى الاتفاقية المذكورة فى لندن، كانت الحكومة البريطانية قد دعت سرا ممثليها لدى السلطان لزيادة مقاومة سكان سوريا ضد قوات إبراهيم بكل الوسائل والتمهيد لانتفاضة عامة، بهدف وضع محمد على فى موقف صعب ودفعه هكذا لقبول الشروط المقترحة. وسرعان ما حدث بالفعل انتفاضات خطيرة تفجرت فى سوريا لتضع القوات المصرية التى أصبحت الآن متعبة وفاقة للثقة من الحملة المضنية فى وضع حرج للغاية.

وفى تلك الفترة بالذات، أبلغت قرارات القوى الكبرى لمحمد على، على شكل إنذار. ولكن باشا مصر رفض الفرض وحث على الوساطة الفرنسية فى الوقت نفسه.

وبعد مرور عشرة أيام قامت القوى الكبرى بعرض جديد متعلق بمنح الحكم الوراثى فقط لمصر. وقد رد الباشا الذى كانت فرنسا قد أعطته فى الوقت نفسه نصائح بالاعتدال، رد حينها بالقبول، ولكنه حث فى الوقت نفسه الباب العالى على تقديم بعض التنازلات الأخرى.

وقد اعتبرت القوى الكبرى تحفظ محمد على بمثابة رفض. ومن جانبه، لم يدع السلطان الفرصة تفلت منه فى أن يستفيد من القدرة المخولة له بموجب الاتفاقية الموقعة من القوى الأربع الكبرى وأعلن تحية باشا مصر عن وظائفه (سبتمبر ١٨٤٠). وبعد ذلك بدأت قوات عثمانية وبريطانية بقيادة الأدميرالين نابييه وستوبفورد عملية واسعة ضد القوات المصرية فى سوريا. وبينما حقق نابييه

نجاحات مهمة في صيدا (٢٦ - ٢٧ سبتمبر ١٨٤٠)، وعلى جبال أردالي (١٠ أكتوبر)، قام ستوبفورد بغزو مدينة بيروت بعد قصف عنيف من البحر (١٠ أكتوبر).

وفي أعقاب احتجاجات قوية قدمتها فرنسا إلى لندن والقسطنطينية في الأيام العشرة الأولى من أكتوبر، أرسلت حكومة لندن (بالمرسون) تعليمات لممثليها في القسطنطينية، بونسوبي (١٥ أكتوبر) حتى ينصح السلطان بإبرام السلام مع تابعه على أساس الاعتراف الوراثي لمصر، بعد إعادة الأسطول العثماني للباب العالي وجزيرة كريت وكل سوريا. ولكن بدا بعد ذلك أن الحكومة البريطانية قد غيرت موقفها، ربما أيضا للنجاحات الإنجليزية - التركية في سوريا والتي توجت في ٣ نوفمبر بانتصار على القوات المصرية التي هلك معظمها. وفي ١٤ نوفمبر، بالفعل، وفي تعليمات جديدة مرسله للأدميرال ستوبفورد للتصريح بإرسال مندوب بريطاني لمحمد علي بهدف إدارة المباحثات، اقتصر اللورد بالمرسون على الحديث بصورة عامة عن تنازل لمحمد علي لحكم مصر، دون إضافات أخرى، مما أثار الشك في أن الحكومة البريطانية لم تعد بعد مستعدة للاعتراف لمحمد علي بالحق في توريث الحكم.

وقد عهد بقيادة المفاوضات للأدميرال نابيير الذي كان قد شارك في العمليات في سوريا ضد قوات إبراهيم. وقد جعل الموقف الصعب الذي وجد محمد علي نفسه فيه الإنهاء السريع للمباحثات ممكنا. وفي ٢٧ نوفمبر أبرم اتفاق يلتزم بموجبه باشا مصر بإعادة الأسطول التركي للسلطان والتخلي عن سوريا، مع الاكتفاء بالحكم الوراثي لمصر. وكان الاتفاق سيدخل حيز التنفيذ بمجرد أن يصدق الباب العالي على هذا التنازل الأخير.

ولكن ستوبفورد لم يعترف بالاتفاق لأنه لا يراه متمشيا مع التعليمات التي تلقاها من لندن. وفي الوقت نفسه هاجم الممثل البريطاني في القسطنطينية، بونسوبي الاتفاق بعنف، وألح على ضرورة وقف إجراء التتحيّة الذي اتخذه

السلطان إزاء محمد على. وقد شعر السلطان في الوقت نفسه أن سلطته عدم الاعتراف بأي قيمة للاتفاق واعتبار باشا مصر مبعدا عن وظائفه.

وقد قام الأدميرال ستوبفورد بخطوات جديدة لدى محمد على، عن طريق الكابتن فانثيف، بهدف إبلاغه بعدم جدوى الاتفاقيات المبرمة مع نابييه وبنصحه بالخضوع غير المشروع للسلطان. وفي ٩ ديسمبر أجبر محمد على، على الخضوع لهذا الشرط الصعب.

ولكن بالمرستون، الذي كان يجهل الموقف في الوقت نفسه، كان قد اعترف بالاتفاقيات التي أبرمها نابييه في ٢٧ نوفمبر. ولم يكن غريبا، على موقف لندن المعتدل، العمل التصالحي الذي كانت تقوم به محكمة لندن، وكذلك الرغبة الفرنسية في التقرب من فرنسا للحصول على انضمام باريس لمعاهدة لندن لعام ١٨٤٠. ونتيجة لاعتراف الحكومة الإنجليزية، تمت خطوة رسمية للقوى الكبرى الأربع لدى الباب العالي حتى يمنح محمد على الحكم الوراثي في مصر. وبعد بعض محاولات المقاومة التي شجع عليها الموقف المعادي لمصر من بونسوبي يطوال الأزمة كلها، اعترف السلطان لمحمد على بفرمان أو مرسوم إمبراطوري في ١٣ فبراير ١٨٤١، بالإدارة المستقلة لمصر، ليمارسها باسم السلطان نفسه، مع حق التوريث لأبناء سلالة الباشا. وبالمرسوم نفسه حصل محمد على أيضا على الحكم مدى الحياة للأقاليم السودانية في النوبة وسنار وكردوفان.

ولكن السلطان أراد الاحتفاظ ببعض المزايا. وهكذا، على سبيل المثال، بعد أن أقر بمبدأ الخلافة الوراثية، قرر أن الاختيار بين أبناء وسلالة محمد على من الذكور سيكون من اختصاص السلطان. وكانت القسطنطينية تقصد بهذا الاحتفاظ لنفسها بضمان فعال بشأن الشخص الذي سيحكم مصر في كل مرة. وقد تقرر تحديدات أخرى في القطاعين العسكري والمالي. فلم يكن بوسع الجيش المصري أن يتجاوز ١٨ ألف رجل، وسيكون تعيين الضباط من الرتب الأعلى فوق رتبة رائد من اختصاص السلطان مباشرة، وسيقوم باشا مصر بإجراء ما يلزم نحو صك

العملات وتحصيل الضرائب، ولكن ربع الدخول الإجمالية سيخصص للباب العالي بوصفه جزية، بينما ستحمل العملات المصكوكة في مصر صورة السلطان.

وفي ٤ مارس ١٨٤١، وقعت القوى الكبرى الأربع على بروتوكول صرحت فيه بتنفيذ الشروط المنصوص عليها في اتفاقية لندن ١٨٤٠، بعد أن سجلت خضوع محمد علي (الذي تم بإعادة الأسطول للسلطان والتخلي عن سوريا كلها) وقبول السلطان.

وقد قررت علاوة على ذلك إعادة مقارها التمثيلية إلى مصر. ولكن محمد علي في ذلك الحين، بعد أن رأى المرسوم الإمبراطوري والقيود التي يتضمنها، رفضه جملة واحدة، بعد أن ضمن لنفسه مساندة فرنسا.

كانت تجرى في تلك الفترة، كما أشرنا تنقية عامة للعلاقات الإنجليزية الفرنسية وكانت بريطانيا تظهر حرصها بصفة خاصة، للأسباب المذكورة سلفاً، على الاتفاق مع باريس. ولهذا كانت مساندة الدبلوماسية الفرنسية للباشا فعالة. وقد اتفقت القوى الكبرى الأربع الموقعة على معاهدة لندن بالفعل على ضرورة تحسين موقف حاكم مصر، وفي مذكرة في ١٩ أبريل ١٨٤١، موجهة للباب العالي، وضعت الأسس لفرمان إمبراطوري جديد بتتصيب محمد علي. وقد حددت المذكرة ما يلي:

(١) أن خلافة حكم مصر ستؤول إلى أبناء وسلالة الباشا من الذكور، طبقاً لقانون الأقدمية الساري في الإمبراطورية العثمانية، دون أي حق في الاختيار من جانب السلطان.

(٢) أن الباب العالي سيتخلى عن ربع الدخول الإجمالية المصرية وسوف يقتصر على تلقي جزية سنوية، يتفق عليها.

(٣) أن باشا مصر سيتمكن من تعيين الضباط مباشرة حتى رتبة عقيد بدلاً من رتبة رائد.

وفى ٢٣ مايو ١٨٤١، قبل مرسوم إمبراطورى جديد كل المطالب التى تضمنتها مذكرة القوى الكبرى. واعترف المرسوم لمحمد على بالحكم الورائى لمصر مع حق التوريث طبقا لقانون الأقدمية. وسيلقب محمد على بلقب وزير، بنفس درجة أى حاكم آخر فى الأقاليم العثمانية. وسوف تطبق قوانين ومعاهدات ولوائح الباب العالى فى مصر، ولكن مع الأخذ فى الحسبان "الظروف المحلية والعدالة والمساواة"، وسوف يتم تطبيق وتحصيل الجزيات باسم السلطان، طبقا للأنظمة المستخدمة فى تركيا، وستدفع مصر جزية سنوية للباب العالى، وستحدد فيما بعد بـ ٨٠ ألف حقية تركية، وستحمل العملات المعدنية المصكوكة فى مصر صورة السلطان، ولن تختلف من حيث الوزن والسبيكة عن العملات التركية، ولن يتجاوز الجيش ١٨ ألف رجل، مع الاحتفاظ بحق الباشا فى زيادته فى حال الحرب، بناء على تصريح من الباب العالى، وسيعين باشا مصر مباشرة الضباط من الرتب الأعلى حتى درجة عقيد. ويمكن تنفيذ تعيينات الرتب الأعلى بعد الحصول على تصريح إمبراطورى، ولن تستطيع مصر بناء سفن حربية، دون تصريح إمبراطورى. ويختتم المرسوم بأنه فى حالة انتهاك أى من التعليمات التى يتضمنها، فإن ميراث الحكم فى مصر سيلغى على الفور.

وبهذه الوثيقة تنتهى مرحلة فى غاية الأهمية من العلاقات التركية المصرية. وإذا كان محمد على يرى من جانبه استبعاد طريق الاستقلال التام، فإن الباب العالى من الناحية الأخرى لم يكن له مبرر للفرحة الزائدة لتدخل القوى الكبرى. فإذا كانت سيادته معترفا بها بالفعل فى مصر، فإن هذا حدث فقط بإرادة "الوفاق الأوروبى" الذى أخذ على عاتقه آنذاك مهمة تسوية أى تعقيد فى الشرق الأدنى مباشرة.

وبعد انتهاء الصراع بين الباب العالى ومحمد على، انضمت فرنسا لاتحاد القوى الأربع وشاركت معها، فى التوقيع على "بروتوكول" ١٠ يوليو ١٨٤١ بعد أن حققت تحسنا فى بعض الشروط المفروضة على محمد على. وبعد ذلك بخمسة أيام

وقعت القوى الخمس مع الباب العالي على "اتفاقية المضائق" التي تؤكد معها المبدأ القديم فى إغلاق المضائق أمام السفن الحربية لكل القوى.

٥- كان تدخل القوى الكبرى قد منع محمد على من تحقيق طموحه الكبير فى التحرر تماما من الباب العالي وخلق دولة قوية مستقلة فى شرق البحر المتوسط. ومع اتفاقيات لندن بين القوى الكبرى الأربع، التى أضيفت لها بعد ذلك فرنسا، رأى حاكم مصر استقلاله مهددا أكثر، لأنه فى المستقبل لن يتعين عليه الرد فقط على السلطان بشأن مسلكه ولكن أيضا تجاه القوى الكبرى التى تولت مهمة ضمان سلامة الإمبراطورية العثمانية والتدخل فى حل أى خلاف محتمل بين الباب العالي وتابعه.

وقد نغص الموقف الذى نشأ على هذا النحو السنوات الأخيرة من حياة حاكم مصر. وقد كرس نشاطه كله تقريبا لعملية الترتيب الداخلية، التى كانت ضرورية جدا بعد الحروب المستمرة التى خاضها. ولكن من المهم أن نوضح أن كل المصاعب تجاوزها بموارد الموازنة المصرية فقط دون أن يلجأ أبدا لقروض من الخارج. وكان الموقف الاقتصادى - المالى فى السنوات الأخيرة من حكم محمد على يبدو متينا ولم يسمح بأى مبررات للقلق.

وفى ١٨٤٦ ضعفت القدرات العقلية لباشا مصر، المهتزة أصلا من المرارات وخيبة الأمل التى تحملها فى السنوات السابقة، بصورة ملموسة، حتى إن ابن محمد على الأول إبراهيم الذى أدار بخبرة كبيرة القوات المصرية فى سوريا وسوريا اضطر فى بداية ١٨٤٧ لتولى الحكم. وفى العام التالى، بعد أن اتضح عدم إمكانية علاج محمد على، وافق إبراهيم على أن يتولى بالكامل مسئولية الحكم وقبل التنصيب الرسمى للسلطة من السلطان (يوليو ١٨٤٨).

كانت حكومة إبراهيم تبشر بالخير. وكان إبراهيم بالفعل هو الذى أظهر أنه أقرب بالذكاء وقدرات الأب فى المجال العسكرى والسياسى والإدارى من بين أبناء

الباشا. ولكن فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨، عندما كان لا يزال محمد على على قيد الحياة، انتزع موت إبراهيم المبكر من مصر زعيما عظيما جديدا.

وقد تولى حكم مصر عندئذ، فى ديسمبر ١٨٤٨، وطبقا للمبادئ المقررة فى مرسوم ١٨٤١، عباس حفيد محمد على والوريث الأكبر سنا.

وقد أظهر عباس على الفور طبعا مختلفا جدا عن طبع سلفه الكبير. ولم يكن محمد على قد تردد فى السماح بهجرة كبيرة لعناصر أوروبية، اقتناعا منه بأنه يفعل شيئا مفيدا للبلاد. وعادت على مصر بالفعل فوائد هائلة من هذه السياسة بعيدة النظر. وإذا كان حقيقيا أنه كان هناك بين جمهور المهاجرين أيضا مغامرون بلا حمير، انجذبوا إلى مصر على أمل تكوين ثروات سريعة، فالحقيقة أيضا هى أن غالبية الأوروبيين الذين جاءوا إلى مصر كانت مكونة من عناصر نشيطة، من العمال البسطاء والمؤهلين والحرفيين وخاصة من المهنيين. وشهدت مصر فى فترة وجيزة ميلاد صناعاتها وتجارتها وتطورها وازدهارها. وتحسن وأصلح النظام الإدارى، وقد استعان محمد على فى هذا الميدان أيضا بعناصر أوروبية لم يتردد فى إدخالها فى الخدمات العامة إلى حد معقول.

كان أثناء حكم محمد على بالذات أن بدأ الإيطاليون فى التدفق بأعداد كبيرة إلى مصر، حيث بدأوا ذلك العمل الكبير فى التعاون فى البناء المدنى للبلاد التى كان لابد أن تشهد تطورا مهما فى القرن التاسع عشر.

وفى هذا التدفق الأول من الهجرة المرتفعة بصورة خاصة، كانت هناك نسبة من الأجانب الإيطاليين، نجدها تقريبا فى كل مكان فى حياة البلاد. وعلى سبيل المثال فقط سنذكر من بين الكثيرين لودوفيكو كولوتشى، الذى أصبح طبيبا لنائب الملك، بينما واصل أبناؤه أنطونيو وكارلو وباولو نشاط الأب واكتسبوا شهرة عن جدارة، وأنوفريو أباتى باشا، الذى ذهب مع القوات المصرية إلى القرم والسودان، وشغل فيما بعد مناصب مهمة فى النظام الطبى المصرى، وألسنانندرو ريتشى، الذى أنقذ إبراهيم من الموت فى ١٨٢١، حيث شفاه من مرض أصيب به

فى سنار، والدكاترة بياجو فيرنونى، وفيليبو ماروتشى ولاندونى، الذين كانوا أطباء لعائلة نائب الملك، وفيليبو فينوتشى، الذى كن طبيبا جراحا فى الأسطول الحربى المصرى وشهد معركة نافارينو، وجوفانى ديل سينيورى كبير الأطباء فى قوات إبراهيم، والدكاترة تود سكينى، وأنطونيو فيرلينى، وأنطونيو سكوتى والعديد من الآخرين الذين كانوا فى صحبة القوات المصرية بقيادة محمد على وإبراهيم، وفرانشسكو جايتانى، الذى صاحب محمد على فى السودان فى عامى ١٨٣٨، و ١٨٣٩، والصيدلى أندريا حنتلى، الذى شارك فى حملة إبراهيم ضد الوهابيين، وأنطونيو فيجارى بك، الذى كان صيدليا خاصا لمحمد على، ومفتشا عاما لهيئة الدواء وبعد ذلك أستاذًا فى مدرسة الطب والصيدلة فى القاهرة التى أسست فى ١٨٢٥ وكان غالبية أعضاء هيئة التدريس من الإيطاليين، والدكتور موربورجو الذى كان أول مدير لـ "مستشفى فرانكو" فى الإسكندرية، الذى أسسته فى ١٨١٧ جماعة من الإيطاليين وكان رئيسه جوزيبى أتشيري حتى ١٨٣١، وخلفه بعد ذلك إيطالى آخر هو أنيبالى روسيتى، والدكتور جراس بلس الذى كان جراحا فى مستشفى البحرية فى الإسكندرية وبعد ذلك، فى ١٨٤٠، مفتشا للهيئة الصحية المصرية، والدكتور لوريا، الذى كان رئيسا للمستشفى المركزى فى القاهرة.

وكان مهما بالقدر نفسه تعاون العناصر الإيطالية فى تنظيم الجيش المصرى. فقد كان طاقم العاملين فى الترسانة الحربية البحرية فى الإسكندرية إيطاليا بالكامل تقريبا، كما كان مديرو مسبك المدافع ومصانع الأسلحة والذخائر فى القاهرة من الإيطاليين. وكان كذلك المدربون الإيطاليون فى جيش وبحرية محمد على. وسنذكر من بين الآخرين الكولونيل سيلفيا، والكولونيل مازى، والكابتن إياكارينو (وهذا الأخير كان مدربا على بارجة الأدميرال)، والضباط المهندسين ألبرتيني وديل كاريتو ورومى، الذين وضعوا الخطط التى سمحت لإبراهيم باقتحام قلعة سان جوفانى داكرى، التى قاومت وانتصرت على نابليون.

وفى القطاع المدنى، سنذكر بصفة خاصة، من بين الذين كانوا أهلا للكفاءة

والتقدير من الإيطاليين في هذه الفترة الأولى المهندس فرانثيسكو مانتشيني، الذي كلف في ١٨٣٢ بمهمة إعداد الخطة المنظمة للإسكندرية، والتي اتخذت المدينة بفضلها مظهرًا حضاريًا حديثًا، والإيطالي فاسكاريني، مدير الترسانة البحرية في بولاق، والذي قدم في ١٨١٠، في فترة وجيزة للغاية، الأجزاء المفككة للسفن التي استخدمها محمد علي لعبور البحر الأحمر في الحملة ضد الوهابيين، وعلماء الآثار جوفاني باتيستا بلتسوني وجوفاني باتيستا كافيليا، وبرناردو دروفيتي وألساندرو ريتشي، المعروفين بأعمالهم في صعيد مصر، وعالم المصريات اللامع إيبوليتو روز يليني، المساعد المباشر لشامبليون، والمهندس مازي، الذي شارك تحت حكم محمد علي في حفر قناة الإسكندرية الملاحية وأسس في ١٨١٨ مدرسة المساحة في بولاق (القاهرة)، ولورنتسو مازي، الذي أدخل في مصر في ١٨٢٠ أول شكل لسجل الأراضي المسوحة.

ويرجع الفضل للمبادرة الإيطالية الاستثنائية في الخدمات البريدية المصرية الأولى في الإسكندرية في ١٨٢٠، والمرتبطة بأسماء كارلو ميراتي وجاكومو موتسي، في القاهرة (١٨٤٠) والمراكز الصغرى الأخرى. والكلمات الإيطالية على أول طوابع بريد مصرية هي دليل مباشر على هذا الوجود البارز. وكانت الإيطالية، علاوة على ذلك، لغة رسمية للخدمات البريدية، حتى مرسوم ١٨٧٦ الذي أدخل استخدام الفرنسية.

ولا ننسى العمل الإنساني والمدني الذي قامت به بكثير من إنكار الذات مختلف الجماعات الدينية الإيطالية (وبعضها كان موجودا في مصر منذ عدة قرون) التي انتشرت وتأكدت بصورة حاسمة في كل مكان من الأرض المصرية خلال القرن التاسع عشر.

وقد جاء بعد هذا الفريق من الإيطاليين، بداية من النصف الثاني من القرن الماضي، بعد فترة توقف دامت ست سنوات، تزامنت مع نيابة الملك عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) جاء تدفق من المهاجرين، على جانب كبير من الأهمية، رفع

عدد الجالية الإيطالية فى مصر من سنة آلاف نسمة فى ١٨٢٠ إلى ٥٢ ألف نسمة تقريبا فى ١٨٩٩، حتى وصل العدد إلى ذروته التى بلغت ٥٢٤٦٢ فى ١٩٢٧.

ولم يكن الأمر يتعلق بهجرة جماعية من نوع الهجرة التى اتجهت نحو الأمريكتين، ولكنها كانت هجرة تدريجية ومنظمة وانتقائية بصفة خاصة، مع عدم وجود أى حافز لتدفق الأيدى العاملة غير المؤهلة أو قليلة التأهيل نظرا لوفرة الأيدى العاملة المحلية ورخص ثمنها. وقد كان الإيطاليون الذى استقروا فى مصر فى الفترة المذكورة بالفعل، فى جانب كبير منهم، من الفنيين والحرفيين والتجار وصغار رجال الصناعة والموظفين الصغار وكبار الموظفين والقضاة وبصفة خاصة أصحاب المهن الحرة (المحاميين والمدرسين والأطباء والمقاولين والمهندسين والمهندسين المعماريين... إلخ) الذين وجدوا فى النظام الليبرالى فى مصر الأرض الملائمة للقيام بأنشطتهم وتعزيزها.

وقد قدم عمل هؤلاء الإيطاليين الجدير بالتقدير إسهاما لا يقدر بثمن من الحضارة وترك بصمة دائمة كل قطاعات الحياة فى البلاد التى استطاعت استقبالهم بصداقة وتعاطف ملء بالثقة.

هوامش

(١) فرديناندو برات، Napoleone e l'orient، ميلانو، ١٩٤٤، ص ١١٢

(٢) للحصول علم، تاريخ مفصل وموثق لحملة نابليون في مصر، المشار إليها هنا في، خطوطها العامة جدا فقط علم، سبيل التمهيد، راجع بصفة خاصة، علاوة على الدراسة المذكورة لـ ف. برات، تشارلز روكس.

L'Angletrre et l'expédition française en Egypt

القاهرة، ١٩٢٥، هـ. دهران،

L'expédition du cénéral Bonaparte

باريس، ١٩٢٤؛ م. ج. بينفيل

L'expédition française en Egypte

(١٧٩٨ - ١٨٠١) في Précis de l'histoire d' Egypte، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٣٣؛ كارلو جيليو:

La question egiziana del 1798 al 1841،

في Oriente Moderno، العدد ٢٣، ١٩٤٣، ص ٤٥٥-٥٠٠.

(٣) القلعة هي قلعة واقعة على هضبة تطل على مدينة القاهرة.

وقد دعا محمد علم، المماليك لهذه القلعة بحجة الرغبة في، المصالحة علم، وليمة قتلهم جميعا خلالها علم، أيدي جنوده. ويقال ان واحدا فقط من المماليك الموجودين نجح في الهروب من المذبحة ونشر الخبر بعد أن قفز بحصانه إلى ساحة القلعة.

(٤) بعض المصادر تعتبر أن إبراهيم ابن محمد علي بالتبني.

(٥) ولكن الجزء الرئيس، من الاتفاق لم يكن ذلك المتعلق بسياسة القوتين تجاه الصراع التركي، المصري، بقدر ما كان متعلقا بالجزء الآخر الذي كان يقر مبدأ حرية مرور السفن الحربية للقوتين عبر مضيق البسفور والدرديل، في مخالفة صريحة للمبادئ التي أقرتها معاهدة هونكار إسكليزي.

(٦) هذه الوثيقة، المعروفة باسم "معاهدة البحر الأسود"، بعد أن ألغيت، بتعليمات جديدة، المواد ١١

و ١٣ و ١٤ من معاهدة باريس لعام ١٨٥٦، أقرت في المادة الثامنة أن: "الأطراف العليا المتعاقدة تجدد وتؤكد جميع اشتراطات معاهدة ٣٠ مارس ١٨٥٦، وكذلك ملحقاتها، التي لم تلغ ولم تعدل بهذه المعاهدة".

(٧) بالنسبة لنص الاتفاقية راجع هـ. لامبا،

Droit public et administrative de l'Egypte,

القاهرة، ١٩٠٩، ص ٦٠١-٦٠٣.

الشرق الحديث الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بمحمد علي وأرشفات الدولة الإيطالية

أجلوسان ماركو

في معركة أبو قير في ٢٥ يوليو ١٧٩٩، حيث قضى نابليون تقريبا على الجيش المرسل من الباب العالي ضد الغزو الفرنسي لمصر، حارب في صفوف القوات التركية محمد علي. وقد كان برتبة بنباشي (رائد)، وكان يقود القوة العسكرية في قطاع كافالا (كافاله) في مقدونيا حيث ولد منذ ثلاثين عاما، في ١٧٦٩. وفي ذلك الصدام، الذي كان مدمرا للجيش العثماني، قام الحاكم القادم لمصر بواجبه بشجاعة، ولكنه هزم في البحر وأوشك على الموت غرقا. وفي أعقاب الحملة قدم محمد علي براهين على المقدرة والشجاعة، حتى إنه رقي إلى رتبة جنرال عندما اضطر الفرنسيون لترك مصر.

وقد أستأنف محمد علي ونفذ المخطط العبقري لبعث مصر، الذي صممه ولم يستطع تنفيذه نابليون، ويمكن أن يعتبر محمد علي هذا الجانب هو المنفذ لوصية نابليون والمؤسس الحقيقي لمصر الحديثة. ولكن قبل أن ينجح في ذلك، كم من المخاطر الرهيبة اضطر لمواجهتها، وكم من المصاعب التي لا يمكن تجاوزها كان مضطرا لاجتيازها! ويرى بول مورييه، الذي كتب واحدا من أكثر الأعمال دقة عن محمد علي، أن حاكم مصر أقل فقط من نابليون من حيث تفوق عمله كغاز وسياسي، وأن الظروف التي عمل فيها نابليون^(١). وربما لا يوجد مثال آخر على الموقع السياسي الرفيع الذي تطلب للحصول عليه والحفاظ عليه كما مماثلا من العمل وإنكار الذات والدهاء^(٢).

إن فوضى البؤس الذى سقطت فيه مصر عند رحيل الفرنسيين يتحدى أى وصف. ويصرح القناصل فى ذلك العهد بأنهم غالبا ما كانوا يقفون دون مستوى الحقيقة حتى لا يبدو وصفهم غير محتمل. وأصبح المماليك الذين كانوا قد حكموا البلاد دائما كمستبدين أفظاظ وعنيفين، أصبحوا أيضا أشد قسوة، بسبب الكفاح الذى كانوا يخوضونه ضد الباب العالى، الذى كان يريد بكل السبل التخلص منهم. وإلى جانب الشرور التى كان يجلبها هذا الصراع على السكان، كانت تضاف مظالم الأرمنوط والألبان وسلب ونهب البدو. ووسط كثير من الفوضى والقمع الخطير، اتخذ محمد على موقف المدافع عن الشعب، واكتسب بالتدريج يوما بعد يوم، مزيدا من المكانة، حتى استولى على السلطة العليا. وفى يوليو ١٨٠٥ عينه الباب العالى باشا، لأنه اعترف به على أنه الرجل الوحيد القادر على وقف تلك الحالة من الصراعات والمذابح التى لا تحتمل. وبعد أن نجح فى هذا العمل الكبير من المهارة، قام بعمل أكثر صعوبة، وهو البقاء على عرش، ربما يكون أضعف عرش على الإطلاق، من خلال حكومة قوية ومستتيرة. ومن الفوضى والانحطاط الذى كانت فيه مصر، استطاع أن يقيم فى بضع سنين دولة تتمتع بصورة مطلقة بالأمن والأمان وهى أولى متطلبات الدولة المتحضرة. ثم نهض بهذه الدولة لتصبح قوة تسمح لنفسها بمد أراضيها على نطاق واسع وتمارس نفوذا هائلا على الأحداث السياسية والعسكرية فى عصره. فقد استطاع بالفعل تكوين قوة عسكرية قوية فى الأرض والبحر، منظمة على الطريقة الأوروبية، أسس بها إمبراطورية شاسعة، كانت تمتد فى ١٨٣٣ من تاورو فى آسيا الصغرى إلى حدود الحبشة. وتجاسر مرتين على مواجهة الإمبراطورية التركية، على الرغم من أن هذا كان بمساندة القوى الأوروبية الكبرى، وأوقع بها دائما هزائم جسيمة، من بينها اثنتان مهينتان جدا، وهما هزيمة قونية (٢١ ديسمبر ١٩٣٢) وهزيمة "تصيب" (٢٤ يونيو ١٨٣٩). وكانت هذه الانتصارات ستسمح لنائب ملك مصر، بمسيرة إلى القسطنطينية، لو لم تتدخل القوى الكبرى الأوروبية، التى كانت خائفة جدا من التصفية النهائية للهيمنة التركية. وبسبب هذا التدخل اضطر محمد على، الذى كان

يطمح فى استقلال كل الأراضى الشاسعة التى استولى عليها، إن لم يكن الاستقلال الكامل، اضطر للرضا فقط بالملكية الوراثية لمصر والسودان تحت السيادة العليا للباب العالى (١ يونيو ١٨٤١). وقد كان محمد على مختلفا تماما عن الطامحين المبتدلين، فلم يستخدم سلطته من أجل إرضاء شخصى أنانى، ولكنه اعتبره واستخدمه كوسيلة لتنفيذ المخططات الكبيرة التى صممها لنهضة مصر. وهو أمر يدعو للإعجاب بصفة خاصة فى ملك شرقى. ولأكثر من أربعين عاما عمل محمد على بنشاط لا يعقل لنقل مصر إلى مصاف الدول المتحضرة: الجيش والخدمات الصحية والإدارة والماليات والتعليم العام والمدرسة العليا للطب والصناعة والزراعة، كل شىء أنشئ وأصلح من الأساس بعيد نظر من الأفكار وروح التسامح. ويظهر سمو رؤاه فى الحماية التى خص بها المسيحيين من كل المذاهب وفى ضمه لخدمته أشخاصا قادرين دون أى تمييز فى الدين.

وكان هذا العمل الحضارى لمحمد على مليئا بنتائج هائلة أيضا فى المجال العلمى. فبدون الأمن والأمان اللذين أقامهما محمد على، كانت مصر ستظل لوقت طويل بعيدة عن الرحالة والباحثين، ولتأخر لسنوات طويلة كثير من الاكتشافات الأثرية المهمة والمعارف التاريخية. ومن السنوات الأولى لحكمه، استطاع عدد كبير من علماء الآثار والجغرافيين وعلماء التاريخ الطبيعى أن يجوبوا البلاد فى جميع الاتجاهات بحرية، فوصلوا حتى النوبة والسودان وواحة سيوة. بل إن الكثير من الاستكشافات العلمية شجعها وساندها محمد على الذى أسهم بهذه الطريقة، وكذلك عن طريق الحملات العسكرية، فى توسيع المعرفة الجغرافية والتاريخية لمصر والدول المجاورة. وفى هذا المجال ظهر عمل الإيطاليين لامعا حقا، فأثناء السنوات الأولى من حكم محمد على قام درفيتى وبيليتسونى وريتشى وبروكى وكافيليا وسيجاتو... إلخ، بأبحاثهم المتنوعة للغاية فى مصر. وجدير بالذكر أن هذا العام يوافق مرور قرن، منذ أنهت البعثة الفرنسية - التوسكانية دراساتها فى علم المصريات فى وادى النيل، والتى رحب بها محمد على وساعدها بتشجيع كبير. ومن بين منجزاته فى المجال العلمى يجدر بنا أن نشير بصفة خاصة للإسهام

الفعال للغاية الذى قدمه من خلال رحلته إلى السودان (١٨٣٨ - ١٨٣٩) والبعثات الثلاث التى أرسلت إلى النيل الأبيض (١٨٣٩ - ١٨٤٢) لحل مشكلة منابع النيل القديمة.

لم تكتب إذن حتى الآن أدبيات ثمينة وعلمية حقا، حول تاريخ هذا الحاكم، الذى كان عمله عبقريا وخصبا جدا، فى حين تراكت عن رجال دولة أقل أهمية كتابات لا حصر لها. وليس هذا لنقض الأعمال التاريخية عن حكم محمد على، فهى موجودة، وبعضها أيضا قيمة مثل تلك التى ذكرها مورييه ومينجان، والتى يمكن أن نضيف إليها دراما أ. دى كادالفين وأ. بارو حول الأزمتين المصيريتين - الشرقيتين فى ١٨٣٢ - ١٨٣٣ و ١٨٣٩ - ١٨٤٠^(١). ولكننا لا نزال بعيدين عن امتلاك أعمال ترتسم فيها الصورة الحقيقية لمحمد على، وتدرس عمله وتعيده إلى الأذهان باتساع ودقة. ومثل هذه الرواية لن نحصل عليها إلا إذا استطعنا الاستفادة من أرشيفات مصر وتركيا والمراكز الرئيسية فى أوروبا، فحكم محمد على لم يكن العامل الأساسى لمصر الحديثة فحسب وعنصرا بالغ الأهمية فى تاريخ تركيا، ولكنه دخل أيضا ليشكل جزءا من السياسة الأوروبية بنشاط كبير، بل إنه أحيانا ما كان يشكل اهتمامها الرئيسى. ولكننا إذا لم نحظ بالمصادر الحقيقية والرسمية لكل الدول التى مسها العمل الشاسع الذى قام به ملك مصر، فلن يكون من الممكن ذلك الفحص للأخبار وذلك البحث المتعمق لها، وهو ما يتضح من مقارنات عديدة، ويسمح بأن نرى الأمور على حقيقتها الدقيقة والشعور بها فى قيمتها الفعلية. ولكن تاريخ محمد على حتى الآن كتب من خلال انطباعات بعض الرحالة وأعمال منقولة عن آخرين، ولم يفكر أحد أبدا فى رواية تاريخ نهضة مصر طبقا للقاعدة الأولى والأساسية فى المنهج التاريخى، أى على أساس الوثائق الأصلية، المجموعة بنظام والمفحوصة نقديا. وحتى الوثائق التى تكتظ بها أرشيفات القلعة فى القاهرة والتى كان يجب أن نفكر فى أنها تضم التاريخ الحقيقى لأصول مصر الحديثة، لم يستفد منها أحد أبدا.

وأخيرا هناك من يوشك أن يجد علاجاً لهذه الحالة من الأمور التى تدعو

للأسى. فملك مصر الحالى، فؤاد الأول(*)، ابن حفيد محمد على المباشر، خطط أيضا للاستكشاف المنظم للأرشيفات الدبلوماسية ليس فى مصر وتركيا فحسب، ولكن فى كل الدول الرئيسية فى أوروبا، لجمع ونشر الوثائق المتعلقة بحكم محمد على، بين الإصلاحات الحضارية التى يدخلها بحذر والمبادرات الثقافية الكبيرة التى شجعها وساندها بسخاء من أجل تقدم مصر. وهى عملية هائلة، ولكنها لا تعلق إرادة وعظمة الملك. والوثائق التركية، الموزعة فى المخزنين الكبيرين فى قصر عابدين الملكى والقلعة بالقاهرة، يجرى فرزها وتصنيفها حاليا فى مكتب الترجمة فى قصر عابدين الملكى تحت إدارة ج. دينى، أستاذ اللغة التركية فى مدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريس. ويجرى الإعداد لجرد إجمالى لها، وسينشر باللغة الفرنسية، وهناك حصيلة كبيرة من الوثائق المتعلقة بحروب إبراهيم باشا وغيره من الجنرالات المصريين جمعت وهى تحت الطبع.

والوثائق المأخوذة من أرشيفات وزارة الخارجية فى فرنسا وإنجلترا فى طريقها للنشر، وقد ظهرت خمسة مجلدات من إعداد المؤرخين الفرنسيين إدوارد دريو وجورج دوان، فى ثوب طباعى جميل. وقد صدرت المجلدات كما ستصدر الأخرى كلها، عن "الجمعية الملكية للجغرافيا" فى القاهرة، فى مجموعة تحمل عنوان "المطبوعات الخاصة تحت رعاية صاحب الجلالة فؤاد الأول"، وقد أسسها أدولفو كاتانى وقام بإدارتها حتى وفاته. وقد عهد بالمجموعة الآن لرعاية السكرتير الحالى للجمعية، هنرى مونييه، الذى يعد قائمة مراجع معقولة لتاريخ ملك محمد على. والوثائق منشورة فى طبعة إضافية وتكمن أساسا فى التقارير التى كان القناصل والسفراء فى مصر يبعثون بها إلى حكوماتهم حول الشؤون المصرية وكثير من التقارير الفرنسية، ومن بين أهم التقارير، يرجع إلى الإيطالى برناردينو دروفيتى (١٧٧٦-١٨٥٢) الذى أدار لسنوات طويلة القنصلية الفرنسية فى مصر. وكل مجلد من مجموعة الوثائق يضم مقدمة، توضح الإسهام الجديد الذى تحمله

(*) كان هذا وقت كتابة المقال.

للمعرفة التاريخية. وفي الملحق هناك جدول تحليلي للمواد يجعل من السهل الرجوع إليه. والمجلدات الخمسة التي ظهرت حتى الآن تغطي الفترة من ١٨٠٢ إلى ١٨٢٣، وتلقى عليها ضوءا جديدا^(٣).

وفي هذه المجموعة الكبيرة من المصادر التي ستقيم تاريخ محمد علي، على أسس متينة، ستظهر أيضا الوثائق الإيطالية، بل إنها ستحتل جزءا كبيرا، إن لم يكن الجزء الأكبر. وقد أخذت من أرشيفات الدولة الإيطالية نسخ التقارير الدبلوماسية الخاصة بحكم محمد علي، وهناك الآن كمية كبيرة من الوثائق، ما يقرب من عشرة آلاف، قادمة من أرشيفات الدولة في نابولي، وفلورنسا، وتورينو، وفينسيا، وفيينا، ومراكز أخرى أصغر، توجد محفوظة في المكتبة الملكية في قصر عابدين. وقد أدار المجموعة بنشاط ذكي المرحوم أوجينيو جريفيني بك^(٤)، وقد كلف الكاتب باستكمالها ودراستها ونشرها.

وقد قام ببحث ونسخ الوثائق، تحت الإشراف المباشر للمشرفين على الأرشيفات أنفسهم، أشخاص متقنون ومؤهلون بصفة محددة، قاموا بكفاءة ونشاط بعمل دقيق ويتطلب صبرا. وفي نابولي كلف الدكتور الفارس فينتشنسو موريللي، الأرشيفي الأول، وفي فلورنسا الدكتور جوفانا تشيليني، الأرشيفي الأول، وفي تورينو الكونت ألفونسو ديلا كيزا، وفي فيينا بدأ العمل الدكتور أوتو برونر، والآن يكمله، على الرغم من أنه لم يكتمل بعد، الدكتور فريتز أنطونيوس. وهناك نية للعمل على استكشاف مراكز أخرى أرشيفية وأيضا أرشيفات خاصة، حيث لا يزال هناك أمل في العثور على مادة مهمة، وقد سمح الفحص لأوراقنا، ثم بعناية لعدة شهور، والمقارنة مع الأوراق الأخرى المنشورة بأن نؤكد بيقين أن الوثائق الإيطالية تمثل مصدرا لا ينفذ من الأخبار القيمة عن حكم محمد علي، وأن نشرها سيؤدي إلى توضيح وتحديد، وفي بعض الحالات، تجديد تاريخ الحاكم الكبير.

وطوال كل تلك الفترة كان ممثلو مختلف ولايات إيطاليا غالبا رجالا يتسمون بالتزام كبير وحصافة رفيعة. وأرسلوا لحكوماتهم تقارير مسهبة ودقيقة تصف

أحداثا وظروفا لبعض الأمور بحيوية وحصافة. وعلاوة على ذلك، ونظرا لتنوع ولايات إيطاليا في ذلك الوقت وما يترتب على ذلك من تعدد التقارير الدبلوماسية عن الأحداث نفسها، فإننا من الممكن أن نقيم مقارنات مفيدة للغاية بين مختلف المعلومات، وهكذا يصبح من الممكن تحديد الأحداث بدقة وتعميق معناها. بل إن الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين وحدهم ولعدة سنوات ومن أهم سنوات تكوين محمد علي، كانوا إيطاليين على درجة كبيرة من النشاط والذكاء: برناردينو دروفيتي وكارلو دي روسيتي (١٧٣٦-١٨٢٠) الذي ذكر من قبل.

وقد مثل دروفيتي فرنسا، كما ذكرنا، بداية من ١٨٠٣، وتتشتر تقاريره المكتوبة بالفرنسية، حاليا، في مجموعة الوثائق الفرنسية. وكان دي روسيتي قنصل فينيسيا خلال السنوات الأخيرة من الحكم التركي، وبعد هزيمة جمهورية فينيسيا في ١٧٩٧، أصبح ممثلا للنمسا وبعض الولايات الإيطالية وأيضا لروسيا. وبالتالي فقد كان دي روسيتي قنصلا في مصر عندما كان دروفيتي لم يأت بعد ولم يكن لإنجلترا ممثل مستقر؛ ولبعض الوقت عهدت إنجلترا بشئونها أيضا لدى روسيتي، الذي وجد نفسه هكذا القنصل الوحيد الأوروبي، المقيم في مصر بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر. ودي روسيتي هو آخر ممثل كبير لجمهورية فينيسيا المجيدة، وهو يتميز بذكاء حاد وطبع مرن ونشاط كبير، وقد تمتع بنفوذ كبير لدى آخر المماليك، وخاصة لدى علي بك (١٧٦٦-١٧٧٣) ومراد بك (١٧٧٩-١٨٠١) اللذين لجأ كل منهما إليه بسبب مفاوضاتهما مع القوى الأوروبية. وأثناء الغزو الفرنسي وفترة الفوضى التي أعقبته، وجد دي روسيتي نفسه ممتزجا بالأحداث الرئيسية واستفاد من سلطته للدفاع عن الجالية الأوروبية. وقد كان يحظى بتكريم كبير من نابليون، حتى إن الجنرالات الفرنسيين دهشوا من ذلك. وقد تمتع أيضا بكثير من المصداقية لدى كليبر، الذي استخدمه لإبرام اتفاقية مع مراد بك، ومحمد علي في فترة الصعود الصعب الذي استفاد من عمل دي روسيتي، الذي يحتفظ بين أوراقه أيضا بخطاب كتبه له محمد علي بتاريخ ٢٣ يونيو ١٨٠٥.

وعندما تولى السلطة، عين محمد على دى روسيتى مستشارا مقربا وموثوقا فيه، واستشاره دائما بشأن الإصلاحات التى كان يريد إدخالها. وكما نرى، شهد روسيتى لما يقرب من نصف قرن، وشارك فى العديد من التحولات، بل إنه كما يقول هو نفسه بتعبير ينبض بالحياة، كنت مغمورا فى مصر وأنا أتعرض لمدّها وجذرها المستمر.

ونظرا لندرة الوثائق فى تلك الفترة، المتشابكة جدا، عند نهاية هيمنة الحكام المماليك وبداية سلطة محمد على ونظرا لاتساع وعمق تقارير دى روسيتى، فإننا يمكن أن نقول إن هذه تمثل أحد المصادر القيمة للتاريخ المصرى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وربما لا تكون هناك مصادر دبلوماسية أخرى ترسم بالوفرة نفسها فى التفاصيل وبإبراز درامى عن أحداث تلك الفترة السعيدة^(١).

وتوجد تقارير دى روسيتى السياسية كلها فى أرشيفات البيت الملكى والإمبراطورى، فى المحكمة وفى دولة فيينا، لأنه عندما كان دى روسيتى مكلفا أيضا بشئون بعض الولايات الإيطالية مثل دوقية توسكانا الكبرى ودوقية لومبارديا وفينيسيا، بسبب التبعية السياسية لهذه الولايات تجاه النمسا، كانت ترسل إلى فلورنسا وفينيسيا تقارير تجارية فقط — ولم تكن التقارير السياسية للقنصل النمساوى فى مصر قد أرسلت مباشرة إلى فيينا، ولكنها أرسلت لسفير الفاتيكان النمساوى فى القسطنطينية، الذى كان يجمع تقارير القناصل النمساويين فى الشرق، الذين كانوا يتبعونه، وكان يرسلها بعد ذلك إلى فيينا مع ملاحظاته. والآن، فى حين كانت تقارير السفير البابوى وتقارير القناصل التابعين المكتوبة بالفرنسية أو الألمانية قصيرة جدا غالبا، فإن التقارير القادمة من مصر، والمكتوبة أيضا بالإيطالية، كانت مسهبة جدا ومكدسة بالأخبار.

وبعد وفاة دى روسيتى، استمرت القنصلية النمساوية فى العمل تحت إدارة الإيطاليين، ومن بينهم بصفة خاصة جوزيبى أنشيريى مانتوفا الشهير (١٧٧٣-١٧٧٣-١٧٧٣).

١٨٤٦) وهو رحالة وكاتب مرموق. ومن المعروف أن أتشيري كان مؤسساً لمجلة La Bibbioteca Italiana المعروفة. وأثناء إقامته الطويلة في مصر (١٨٢٦-١٨٣٥) أرسل أتشيري للمجلة مراسلات تبين وتكمل رسائله. وقد خطط لأن يجمع في مجلد واحد تلك المراسلات، التي يمكن اعتبارها تقريبا كما لو كانت لم يسبق لها النشر، لأنها حتى الآن غير معروفة ونادرا ما استخدمت لأغراض المعرفة التاريخية، وقد دفنت كما هي في المجلدات الكثيرة والنادرة في المكتبة الإيطالية.

ويحتفظ لأتشيري، علاوة على ذلك، في المكتبة البلدية في مانتوفا، بالمخطوطات التي لم يسبق لها النشر والخاصة بعمل كبير في علم المصريات والمراسلات، وفي هذه خطاب لشامبليون، يبين التقدير الكبير الذي خصه به لحله شفرة الكتابات الهيروغليفية. وسيتم الرجوع لهذه المصادر، وإذا اعترف بأهميتها فإنها ستنتشر.

وبعد أوراق فيينا تأتي، من حيث الترتيب الزمني، أوراق مملكة الصقليين التي أسست قنصلية لها في مصر في ١٨١٢. وتبدأ المراسلات من ذلك التاريخ، ولكنها تصبح بالفعل منتظمة وغزيرة فقط مع ١٨١٦، أي عند عودة البوربون إلى نابولي بعد استعادة الحكم عام ١٨١٥.

وقد كانت وثائق نابولي أكثر غزارة من وثائق كل الولايات الأخرى، ولإعطاء فكرة عن ذلك بالتقريب سنقول إنها شكلت كومة أعلى من متر. وهي تتضمن أخبارا دقيقة وحصينة بالنسبة لكل ما يقال عن النشاط السياسي والعسكري والاقتصادي في مصر. ويوضح عمل محمد علي فيها من خلال التعليق رجل ذكي ومحاميد، هو ريكاردو فانتوتسي، قنصل السويد قبل ١٨١٢، ثم القنصل البوربوني أثناء كل حكم محمد علي تقريبا. وفي المراسلة نجد مرفقات ثمينة: بيانات عسكرية، وقوائم الأسعار في السوق وأخبارا إحصائية، وقرارات من صحف العصر، ومشروعات تشريعية في مجال الضرائب وأخبارا عن الآثار والفنون الجميلة... إلخ.

وكانت الرسائل الخاصة بحملة اليونان (١٨٢٣-١٨٢٨) عديدة وغنية بالمعلومات، وعلاوة على ذلك هناك تقارير لمبعوثين خاصين في معسكر إبراهيم عن الحملة الأولى في سوريا.

وقد كتبت أيضا تقارير القنصل البوربوني في القسطنطينية، وهي توضح جيدا جدا الحرب الذكية المصرية عند اندلاعها وفي تطورها وفي مرحلتها الحاسمة.

وأخيرا يجب أن نلاحظ أن أرشيف نابولي كان يضم مكتبة، كان يتم فيها فرز أشهر المجلات والصحف الأوروبية بمعيار حديث جدا وكانت تجمع وثائق من مصادر غير دبلوماسية على سبيل المثال، العديد من الخطابات الخاصة، واليوميات، وقد أخذت عن هذه المصادر أيضا بصورة مناسبة جدا جميع النسخ فيما يتعلق بمصر، وهي تمثل عناصر مفيدة مكملة للتقارير القنصلية، ولن يفوتنا نشر أهمها.

ولم يرسل أي أرشيف آخر وثائق من هذا النوع. وتشكل وثائق أرشيف الدولة في فلورنسا في مجموعها كما يقل قليلا عن وثائق نابولي. ونظرا لأحداث توسكانا التاريخية، فإن الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٥٠ تعد فجوة كاملة تقريبا، لأن السياسة الخارجية لتوسكانا في تلك الفترة كانت تقوم بها إسبانيا أثناء السيطرة البوربونية (١٨٠١-١٨٠٧)، ثم فرنسا طوال كل السيطرة النابليونية (١٨٠٨-١٨١٤). وبعد العودة إلى الحكم كان التمثيل الدبلوماسي في مرحلة أولى مشتركا مع النمسا، كما أشرنا، ولكن الأعمال بقيت منفصلة، وفي سلاسل المراسلات مع الممثلين الدبلوماسيين والقنصلين هناك العديد من الأخبار المتعلقة بمصر.

وبعد ١٨٢٢، كان هناك بعد ذلك سلك قنصلي حقيقي من توسكانا، وزادت الأعمال التجارية. ومن بين أوراق فلورنسا هناك تقارير قنصلية من القسطنطينية، وقد كتبها لفترة معينة (١٨١٥-١٨٣٤) ممثل قنصلي نمساوي في القسطنطينية، مثل التقارير السابقة، ثم مكلف بالأعمال من توسكانا بعد ذلك، بل إنه بالنسبة

للسنتين ١٨٣٣-١٨٣٤ كانت هناك تقارير الممثلين. ومن الواضح أن المكلف بالأعمال التوسكاني قام بفترة تجربة تحت إدارة الممثل النمساوي، الذي كان البارون ستورمر الشهير، والمبعوث غير العادي والوزير المفوض لدى الباب العالي. وكل هذه المراسلات من القسطنطينية لها فائدة كبيرة جدا لاستكمال المعلومات القادمة من مصر والتحقق منها.

وجدير بالذكر أن الوثائق التوسكانية، بخلاف كل الوثائق الأخرى، تنقسم إلى سلسلتين: إحداهما هي سلسلة شئون البروتوكول العام لوزارة الشئون الخارجية، وتتعلق بالقضايا الناشئة عن التقارير المباشرة والسياسية والتجارية بين مصر وتوسكانا، أو مواطني توسكانا المقيمين في مصر. وهذه الأوراق له قيمة خاصة بالنسبة لتاريخ مصر، ولكنها مهمة بصفة خاصة بالنسبة لمعرفة الهجرة والنشاط الإيطاليين، وقد أعيد ترتيب مختلف الملازم بالكامل بدقة كبيرة مثل حبات المسبحة، أي بملخص يضم مسودات السكرتارية ويعطى إشارة لأداء العمل، مرفقا بها أيضا الوثائق القادمة للسكرتارية وخطابات المراسلين... إلخ.

وتتكون السلسلة من المراسلة السياسية الخاصة بالمعلومات لسكرتارية وزارة الشئون الخارجية، وهي الأهم من الناحية التاريخية لمصر، لأنها تسجل وقائع الأحداث، مع إعطاء أخبار كثيرة كانت آنذاك غير معروفة لمعظم الجمهور. وفي هذه السلسلة غالبا ما توجد بيانات الحركة البحرية للإسكندرية وأخبار صحية.

ونظرا لأهمية تجارة ليفورنو مع مصر، فإن الممثل التوسكاني كانت له مع هذه المدينة مراسلات خاصة، تكرر في جوهر الأمر الرسائل نفسها المرسلة إلى فلورنسا، ولكنها تتضمن أيضا أخبارا مختلفة وأحيانا مهمة جدا.

وتبدأ وثائق أرشيف الدولة في تورينو فقط من ١٨٢٥، وهي ليست كثيرة جدا، ولكنها تمثل في المقابل أهمية من الدرجة الأولى. وقد كتب معظمها باولو تشيروتى، القنصل العام من ١٨٣٧ إلى ١٨٥٤، وهو رجل نشط جدا وذكى، وقد أملى تقارير تعد نماذج من نوعها. وخاصة حول أزمة القضية الشرقية الخطيرة

فى (١٨٣٨ - ١٨٤١) وتقدم هذه الأوراق كمية من الأخبار الدسمة والدقيقة، وتصور من الواقع الحى صراع النفوذ والمصالح بين مختلف القوى. وهناك رسالة بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٨٤٠، حول نوايا ومصالح إنجلترا فى مصر تبدو وكأنها مكتوبة اليوم، لدقة الآراء والتوقعات، وعلاوة على ذلك فإن هذه الوثائق تزداد ثراء بالكثير من الوثائق الرسمية والمصادر الأخرى المهمة، التى تنقل باختصار أو بالكامل، وهناك بصفة خاصة العديد من خطابات إبراهيم باشا المعروفة بشأن الحملة الثانية ضد تركيا. وكذلك فإن هناك وفرة فى الأخبار المفيدة تتميز بها تقارير نائب القنصل القادم من بيمونتي روبرتو فيرنونى، الذى كان يقيم فى القاهرة. وكان القنصل العام يسكن الإسكندرية طبقا للعرف السائد بين ممثلى الدول الأخرى. وهناك تقرير طويل جدا يرجع لىونيو ١٨٤٧ ويمثل أهمية خاصة، فهو يتحدث بتفاصيل كثيرة عن الدراسات التى كانت تجرى لافتتاح قناة السويس والإسهام الضخم الذى شارك به فيها المهندسون الإيطاليون وكانت التقارير مؤثرة فى العامين ١٨٤٩، و ١٨٥٠ حول نهاية إبراهيم ومحمد على وحول العلامات الأولى على تدهور عملهما تحت حكم خليفتهما.

وبفحص وثائق أرشيفات فينيسيا، نضل مندهشين من الضالة وانعدام أى أهمية سياسية تمثلها. وهى تعنى فقط تقريبا بالشئون التجارية. وتتوقف المفاجأة عند دراسة وثائق فيينا التى تتعلق، كما أشرنا بالنسبة للجزء السياسى، ببعض الولايات الإيطالية أيضا، ومن بينها فينيسيا.

وعلى صعيد نشر الوثائق، اخترنا النظام الكرونولوجى البحث. وتظهر الخطة المنظمة، التى اتبعها بعض الباحثين، فى جمع الوثائق على شكل فصول ومجلدات، كل منها يتعلق فقط بموضوع أو قضية واحدة، وهى مشكلة استخلاص حدث وقضية من المجموع المترامن للأحداث والقضايا الأخرى التى ترتبط بها فى علاقة من الاعتماد المتبادل. وبهذا النظام يمكن أن يحدث أيضا أن وثيقة تكون تاريخيا جزءا متكاملًا لا ينفصل، تقسم إلى العديد من الأجزاء بعدد الأحداث أو القضايا التى تتناولها، على حساب الوضوح. ولكن الترتيب الكرونولوجى يعيد

طرح الوثائق كاملة وفي مكانها من الزمن، تاركين إمكانية جمعها وإعدادها للمؤرخين طبقا لأفكارهم وأهدافهم. ولتسهيل هذه المهمة سيكون كل جزء ملحق به فهرس وجدول زمني للوثائق وسجل للأسماء. وبهذه الطريقة سيستطيع من يدرس قضية أو حدثا وليست لديه الرغبة أو الوقت لقراءته كله أن يبحث بسهولة عن الوثائق التي تتعلق بموضوعه. وعلاوة على ذلك، سيسبق كل مجلد مقدمة، ستدرج فيها الوثائق وتوضح تاريخيا من خلال أهم الإسهامات التي جاءت بها للمعرفة التاريخية. وسوف ترتبط مقدمات مختلف الأجزاء فيما بينها بحيث تشكل تاريخا كاملا لملك محمد علي.

وبالمثل ستكون الفهارس والجداول الزمنية وسجلات الأسماء منصهرة في نهاية العمل في موضع واحد لتسهيل الرجوع إلى كل العمل، الذي يمكن أن يشمل ما يقرب من ثلاثين مجلدا يضم كل منها ثلاثمائة صفحة ويسمح لنا الترتيب الكرونولوجي بإنهاء المجلد في أي تاريخ، بحيث لا يبدو أكبر بكثير من أي مجلد آخر، ولكننا سنراعى أن نهاية كل مجلد ستتوافق مع تاريخ مهم.

وتبدأ المجموعة باللحظة التي ترك فيها الفرنسيون مصر (١٨٠١) على الرغم من أن ملك محمد علي بدأ مع ١٨٠٥، ولكننا لا يمكننا أن نفهم ونبرر تأسيس ملك محمد علي سوى بمعرفة السنوات المضطربة للغاية ١٨٠١ - ١٨٠٥.

وبإلقاء الضوء على كم هائل جدا من وثائق سفارات الدولة لن نتمكن من معرفة تاريخ محمد علي فحسب، بل إنه سيبدو أيضا جديرا بمزيد من الإعجاب. وستبدو مواهبه كغاز وكسياسي أكبر حجما، وستزداد دهشتنا بصحة واتساع أفكاره وروح التسامح عنده. وسنرى أيضا أن كل عمله يسوده شعور نبيل من الكرم الإنساني، الذي لا يريد أن يعترف به الجميع الآن. وسيبدو محمد علي، على ما كان عليه بالفعل، الباعث العبقري لمصر الحديثة.

وأخيرا يجدر بنا أن نبرز أن هذا النشر الواسع للوثائق، إذا كان يمثل بالنسبة لمصر تقدما في معرفة الفترة الأساسية من تاريخها الحديث وشيئا من

الإنصاف لذكرى بطل تلك الفترة، فإنه سيحمل إلينا الإيطاليون أيضا نتيجتين مماثلتين مفيدتين، فالأحداث المعروفة حتى الآن بصورة مبهمة عن تاريخ هجرتنا إلى مصر والتي شهدت في النصف الأول من القرن الماضي زيادة نتيجة لظروف إيطاليا السياسية، ستعاد روايتها بدقة، وبالتالي سنعرف بصورة أفضل أيضا صفحة من نهضتنا. وعلاوة على ذلك، فإن الإسهام القيم الذي قام به مواطنونا، وهم رجال يتسمون غالبا بالفكر القوى والنشاط المتوهج، في كل المجالات، تحت حكم محمد على لتجديد مصر، سيتأكد بجدية علمية. وسيتناول مجلد خاص هذا الموضوع، وسيكتبه كاتب هذا المقال بالتعاون مع إرنستو فيروتشي بك، المهندس المعماري ورئيس القصور الملكية في مصر.

هوامش

- (١) بول مورييه، Histire de Méhémet Ali، باريس، ١٨٥٨، المجلد ١، انظر التالي.
- (٢) فيلكيس مينجين
- Histoire sommaire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly (1823- 38)
باريس ١٨٣٩، ص ٢٣؛ وهذا العمل يلي الآخر للمؤلف نفسه:
- Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly
باريس، ١٨٢٣، مجلدان.
- (٣) أ. كاد القيمة، أ. بارو.
- Histoire de la guerre de méhémet Ali en syrie et en Asie Mineure, 1832- 1833,
باريس، ١٨٣٦؛ المرجع نفسه
- Deux années de l'histoire de l'orient, 1839-1840,
باريس ١٨٤٠، مجلدان.
- (٤) جورج دوان،
- l'Egypte de 1802 à 1804: cosrespondance des Consuls de france en Egypt
القاهرة، ١٩٢٥، المرجع نفسه،
- Mohamed Aly pacha du Caire (1805-1807):Correspondance des consuls France en Egypt
القاهرة، ١٩٢٦؛ إيوارد تريو،
- Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814): Correspondance des consuls de France en Egypte
القاهرة، ١٩٢٥؛ المرجع نفسه،

Lormation de lempise de Mohamed aly: de laralere au Soudan (1814-1823)

القاهرة، ١٩٧٢؛ جورج دوران ومدام اس. فوتيه- جونز،

القاهرة، ١٩٢٨. Langleterre et lEgypte: campagne de 1807

إلى جانب هذه المجموعات من الوثائق، نشرت في المجموعة أعمال رواية تاريخية، من بينها عمل كبير جدال ف. شارل-روكسي عن إنجلترا الفرنسية في مصر.

(٥) ولد في ميلانو في ٢٦ ديسمبر ١٨٧٨، وتوفي في القاهرة في ٣ مايو ١٩٢٥. انظر بشأنه النعم الطويل والمتعلق ل. ج. ليف، دبلا فدا في Riviste degli studi Orientali، في روما، المجلد العاشر، ١٩٢٥، ص. ٧٢٦-٧٣٠؛ س. أ. نالينو، في Rivista، في روما، العام الثاني، ١٩٢٥، ص. ١٢٤-١٣٢؛ ج. ريكيري، في Rendiconti del R.Lstituto، في lomlasdo في ميلانو، المجلد الثامن والخمسون، ١٩٢٥؛ وكتيب السناتور لوفيا بلترامي،

Eugenio criffini Bey (MDCCCLXXVIII-MCMXXV)

ميلانو ١٩٢٦ (الذي راجعه، مع بعض التعديلات، س. أ. نالينو. في Oriente Moderns، العدد السادس، ١٩٢٦، ص. ٦٤٤-٦٤٥).

(٦) حول هذا الإيطالي العظيم، الذي كانت له أهمية كبيرة في فترة حاسمة من تاريخ مصر واشتهر بخدمة هذا البلد، لا يوجد أي عمل. ولد هذه الثغرة بصورة ما نقتر ح رسم صورة لسيرة دي روسيتي، في طبعة قادمة، على أساس الوثائق التي لم ينشر معظمها.

حول ترجمتين عربيتين لرواية «الأمير» لماكيا فيللى

ماريا نالينو

استرعى البروفيسور أنجلو سان ماركو، العارف المتعمق فى الوثائق الأرشيفية والمصادر الأوروبية التاريخية الأخرى عن مصر تحت حكم الباشا محمد على، استرعى انتباهى بصورة لطيفة لحقيقة أن هذا الملك (١٨٠٥ - ١٨٤٩)، بعد أن سمع عن رواية الأمير لماكيا فيللى، أراد معرفة هذا الكتاب، كما يتضح مما كتبه فى جريدة ج. ب. بروكى (١٧٧٢ - ١٨٢٦) للرحلات، "الجورنالى" ومن خطاب جوزيبي أتشير بى من مدينة مانتوفا (١٧٧٣ - ١٨٤٦)، والقنصل النمساوى فى مصر.

وقد كتب بروكى فى ١٣ يوليو ١٨٢٣ (الجورنالى)^(١)، الجزء الثانى، ص ٣٦٩ - ٣٧٠): "لقد تحدثت فى مواضع أخرى عن المطبعة التى أنشأها فى القاهرة الباشا الحالى، والكتب التى نشرت فيها. وهناك ترجمة إلى العربية لرواية الأمير لماكيا فيللى يقوم بها الآن د. رفائلى، أستاذ اللغة العربية فى مدرسة بولاق بأمر من الباشا، الذى قيل له إن هذا الكتاب يتضمن "حكما متميزة فى السياسة"، ويعلم الحكام المستبدين فن الحكم. وقد تحول عنوان الكتاب الإيطالى إلى العربية "الأمير" ولكن لماكيا فيللى يعلم أميرا كيف يمكن أن يصبح طاغية بنعومة وفن، ولا أعرف مدى الحاجة لهذه الحيل عندما يحكم بالسيف، دون الاعتناء بالحفاظ على المظهر، والسير بصراحة فى الطريق المستقيم: Stat Pro rothone voluntas

وقد يكتب أتشير بى بدوره، فى خطاب^(٢) من فيينا بتاريخ ٢٠ ديسمبر

١٨٣٠، (المكتبة الإيطالية، T.LXI، ص ٢٨٩ - ٢٩٠): "سنجد أن من الغريب إلى حد ما أننا تحدثنا أيضا عن الكتب والأدب في المحادثات العديدة التي سمحت بها إقامتي في الإسكندرية وفي القاهرة مع الباشا محمد علي نائب ملك مصر، ولكنك ستذهل ربما من الاستغراب عندما تعرف أن باشا مصر طلب خصيصا لنفسه ترجمة إلى التركية لرواية ماكيا فيللي "الأمير"، حيث كان يتوق لمعرفة موضوع كتاب تحدث عنه بعض الأوروبيين بإعجاب غير عادي.

"وفي إحدى محادثتنا العائلية، التي لم تكن تتدخل فيها إطلاقا شئون العمل، تحدثت معي تقريبا بالطريقة التالية، كما ترجم لي مترجمه. وقد حدث هذا في القاهرة في ١٨٢٨.

"إنكم تحدثون ضجة كبيرة عن كاتبكم ماكيا فيللي. ولقد عملت على ترجمته إلى التركية لأعرف ماذا يقول؛ ولكنني أعترف أنني وجدته دون توقعاتي ودون شهرته. وقد استولت على الدهشة أكثر عند قراءة عمل مكتوب أصلا بالعربية، ولكنه مترجم أيضا إلى التركية؛ وهذا العمل هو قصة ابن خلدون. فهو كاتب أكثر حرية بكثير من كاتبكم ماكيا فيللي، وهو في رأيي أكثر فائدة منه بكثير. وأنتم تقولون إن ماكيا فيللي محظور في مختلف دول أوروبا، وربما كان ابن خلدون أكثر منه بكثير" (٣).

وكما نرى، في حين يتحدث الـ "بروكي" عن ترجمة عربية، يشير بي إلى ترجمة تركية لكتاب "الأمير". ويبدو أن التناقض يجب أن يحل هكذا، أن دون رفائيلي الذي سنتحدث عنه فيما بعد، أعد الترجمة العربية عن الإيطالية، وأن محمد علي الذي كانت لغته التركية وكان يفهم العربية الفصحى قليلا جدا، عمل على ترجمة الكتاب من العربية إلى التركية، إما شفاهة، أو كتابة.

ويقدم الـ "بروكي" أخبارا قصيرة عن المترجم العربي في قطعتين من جريدته "الجورنالي". ففي الجزء الأول، ص ٩٥١، كتب يقول: ٥ ديسمبر (١٨٢٢) - مررت ببولاقي لزيارة المدرسة التي أسسها الباشا الحالي وهي حاليا في قصر

إبراهيم باشا ابنه، وتدرس فيها المساحة والرياضيات واللغة الإيطالية واللغة الفرنسية والعربية. والشئ الفريد هو أن من بين الأساتذة هناك ثلاثة من الرهبان المسيحيين: أحدهم هو د. كارلو بيلوتى من كالايريا، الذى يدرس الرياضيات، والآخر هو الراهب سكالىونى من بيمونتى، وهو رجل دون المستوى جدا، وكان مدرسا للغة الإيطالية ولكنه كان بالأحرى مدرسا ومشرفا على المطبخ، والثالث هو د. رفائلى مارونيتا^(٤) الذى كان أمينا للمكتبة فى باريس، ويدرس اللغة العربية". وفى الكتاب نفسه، ص ١٧٢ - ١٧٣، كتب الـ "بروكى" يقول: "١١ ديسمبر (١٨٢٢) - ألقى نظرة على بولاك.. وفى هذا البلد زرت المطبعة التى أسسها الباشا الحالى.. وهم مستعدون لطباعة كتاب عن "الصباغة" مترجم عن الإيطالية^(٥)، وقاموسا إيطاليا - عربيا ألفه د. رفائلى، أستاذ اللغة العربية فى بولاك، والذى أقام لسنوات طويلة فى باريس بصفته أمينا لمكتبة الإرساليات الشرقية وهو خبير فى الإيطالية".

ودون رفائلى الذى ينقل لنا الـ "بروكى" عنه الأخبار المذكورة عاليا، كان ملحقا كمترجم فى بعثة بونايرت فى مصر، وكان معروفا بين الفرنسيين، باسم دون رفائيل، وكذلك ببساطة كـ (رفائل) المترجم"، المذكور ثلاث مرات فى الوقائع العربية للجبرتى^(٦). ولكن اسمه الكامل كان رفائيل أنطون زخور، كما يتضح ليس فقط من ترجمته العربية لرواية "الأمير" التى سنتحدث عنها، ولكن أيضا من مقدمة القاموس الإيطالى والعربى، الذى نشر بدون اسم المؤلف ("بولاكو") فى ١٨٢٢ - ١٢٣٨ هجرية^(٧).

وهناك أخبار أخرى موجودة فى مقال حديث للغاية لـ "باشاملى"^(٦)، الذى استخلصها من مخطوط مختلط لم يسبق له النشر لدون رفائلى، وقد ولد فى القاهرة فى أسرة سورية من حلب، ودرس فى روما حتى أصبحت الإيطالية بالنسبة له لغة ثانية تقريبا^(٧). وأثناء الاحتلال الفرنسى لمصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) كان - كما يؤكد فى مخطوطه - "سكرتيرا ومترجما فى الإدارة العامة للمالية فى مصر،

وعضوا في المعهد القومي لمصر (٨) ولجنة العلوم، والمترجم الأول في ديوان (٩) القاهرة.

وبعد رحيل القوات الفرنسية، بقي عامين في القاهرة، ولكنه سافر بالسفينة في ١٨٠٣ إلى فرنسا حيث عمل "أستاذًا للغة العربية في باريس في المدرسة الملحقة بالمكتبة القومية" (١٠) ولا نعرف السنة التي عاد فيها إلى مصر، ولكننا يجب أن نضع عودته بين ١٨١٣ (في المخطوط المختلط نتيجة لعام ٨١٣ كتبت في باريس) و ١٨٢١ (وهو العام الذي تؤرخ فيه مذكرة لدون رفائيلي عن حالة المالية المصرية أيام الفرنسيين وبداية حكم محمد علي).

وكان دون رفائيلي أيضا طبيبا، ويظهر اسمه في تقارير مدرسة الطب في أبو زعبل كملحق فيها في السنوات ١٨٢٨ و ١٨٣٢ (١١).

ويوجد مخطوط الترجمة العربية لرواية "الأمير" الآن في المكتبة القومية في القاهرة (١٢)، بعد أن مر بأحداث عديدة؛ فقد وصل بالفعل إلى المكتبة في ١٨٧٦ من مسجد سيدنا الحسين، حيث كان موضوعا كوقف (١٣)، ولم يعرف أحد كيف وصل إلى هناك. وتبلغ أبعاده ١٢ × ٦١؛ وهو مكتوب بخط النسخ، بكتابة جميلة في الظاهر ولكن قراءته صعبة إلى حد ما، لأن حرفي النون والتاء وغيرهما من الأحرف في بداية الكلمات مكتوبة بتضخيم من أعلى يجعلهما يبدوان تقريبا كحرفي ف وق على الترتيب في بداية الكلمات.

وهو مؤلف من ٨٢ ورقة، بكل منها ٢٠ سطرا في كل صفحة، وتتضمن الأوراق 2r1 - r مقدمة قصيرة للمترجم (١٤) والورقة من بينها العنوان (مجموعة على أساس الورقة الأصلية في المخطوط في الورقة r3)، المجلد الرابع في مصنفات (١٥) في التواريخ وفي علم حسن التدبير في الأحكام "المجلد الرابع من أعمال نيكولو حول تواريخ وعلم حسن التنظيم للحكومات" (١٦). ومع الورقة r3 تبدأ ترجمة "الأمير"، ولكن ضاعت ورقتان (ص ٤٤١ - ٧٤١) من المقرر أن تكون وسط الأوراق من ٧٠ إلى ٧١ التي تتضمن تقريبا كل لفصل الـ ٢٣ وجزءا

كبيراً من الفصل ٤٢، وهكذا لا توجد أيضاً الصفحات الأخيرة، حتى إن الترجمة تنتهي فجأة بالورقة ٢٧٤ (ص ١٥٥ من الترقيم الأصلي)، وبالتحديد بالكلمات: فإنهم لسعيدون إذا توفقوا مع الأوقات والأحوال ولتعيسون إذا وقع ومع الكلمة الأخيرة، وهو ما يقابل في النص الإيطالي المقطع "في الختام، إذن مع تغير الخط ومع بقاء الناس في أساليبهم العنيدة، يكونون سعداء عندما يتفقدون معا وتعساء عندما يختلفون" (الفصل ٥٢، الفقرة الرابعة من النهاية). وبالتالي فإنه لا توجد نهاية الفصل ٥٢ وكل الفصل الـ ٢٦ (١٦).

والأوراق التالية (٨٢٧٥ - ٢) من نفس حكم الأوراق السابقة، ولها نفس عدد السطور في كل صفحة، وهي مكتوبة باليد نفسها ولكن بحبر أغمق قليلاً، لكن ليست لها أية علاقة بكتاب "الأمير" لأننا نرى من الترقيم الأصلي أنها الصفحات ٤١ - ٨٢ من كتاب عنوانه "مقدمات في حق الأمم" مكتوب في أعلى كل منها: مقدمات (في الصفحات الفردية) وفي حق الأمم (في الزوجية)؛ وما يبقى يتضمن نهاية الفصل (القسم) الـ ١١ والفصول التالية بما في ذلك الفصل الـ ٢٨ (١٧) الذي ينتهي معه العمل.

لم تكن ترجمة دون رفائيلي بلغة عربية جيدة، فقد كان عبداً للنص الإيطالي، الذي ترجمه تقريباً كلمة كلمة، دون أن يعنى بالبناء البعيد عن العربية الناتج عن ذلك، حتى إن الترجمة لا يمكن أن تبدو واضحة جداً لمن ليس تحت نظره النص الإيطالي. وأيضاً في مقدمته القصيرة، التي لم يكن فيها دون رفائيلي مرتبطاً بأي نص إيطالي، لم تكن الصياغة أنيقة جداً وتتضمن علاوة على ذلك بعض الأخطاء في الأسلوب وهي ترجع بالطبع لتأثير الإيطالية المألوفة جداً بالنسبة له، ونلاحظ على الفور، عندما نقرأها، أن دون رفائيلي لم يكن خبيراً جداً باللغة العربية الفصحى. فنجد على سبيل المثال، تركيب المبنى للمجهول المتبوع بكلمة "من" الخاصة بالفاعل (وهو غير عربي ومصاغ على غرار اللغات الأوروبية) مستخدماً مرتين (١٨) وهو تركيب معتاد عند دون رفائيلي، الذي يستخدمه أيضاً في مقدمة القاموس الإيطالي - العربي.

وفى ترجمة "الأمير" نجد جملا أبعد ما تكون عن العربية، كما هو الحال، على سبيل المثال، فى الإهداء الموجه إلى لورنتسو دى ميديتشى: إنه لقد يعتاد فى غالب الأوقات أولئك الذين يرغبون نعمة (فى المخطوط كلمة "نعمة" مشكلة بالفتح نعمة) عند الأمير أن يتقدموا له بتلك الأشياء التى فيما بين ما يمتلكونه أعز مما عندهم والذي يروى النبأ تسره أفكار من غيرها. (وفى الأصل: "غالبا ما يعتاد أولئك الذين يرغبون كسب النعمة لدى الأمير، أن يتقدموا بتلك الأشياء التى يعتزون بها فيما بينهم، أو التى يرون أنه يفرح بها").

وفى الفصل الأول: إن كل الأحكام وكل السیادات تلك التى قد ملكت وتملكت سلطانا على الناس كانت لا تزال إما مشیخة وإما أميرية. (وفى الأصل: "كل الدول، وكل الممالك التى كان لها ولا يزال سلطان على الناس، كانت ولا تزال إما جمهوريات وإما إمارات"). وفى كلتا الفقرتين يتضح التقليد الحرفى للإيطالية، وهو ما يجعل العربية مشوشة جدا وبتراكيب غير عربية.

ولم يكن هناك مؤيدون لمشروع الطباعة، ويمكن أن نفترض أن هذا راجع إما لرأى محمد على المذكور أعلاه وغير المشجع جدا لمحتوى كتاب ماكيا فيلى، وإما لأن ترجمة دون رفائلى رخور كانت لابد أن تبدو لمصحى الطباعة فى بولاق، بربرية من الناحية اللغوية وغامضة جدا فيما يتعلق بالمضمون. وقد حفظت لنا بالتالى هذه الرواية الأولى للأمير فى المخطوط الوحيد الذى تحدثنا عنه والذي وصل إلى مكتبة القاهرة عن طريق أحداث غريبة ذكرناها.

وبعد ما يقرب من قرن من عمل دون رفائلى رخور، الذى بقى طى النسيان، ظهر فجأة الحماس لماكيا فيلى فى روح محام وكاتب شهير فى القاهرة لا يزال حيا: محمد لطفى جمعة. ودون أن يعلم اهتمام محمد على بالكتاب ودون حتى أن يشك فى أن مصرى آخر سبقه، نشر فى ١٩١٢ الترجمة العربية للأمير (١٩) التى انجذب إليها بإعجاب لعمل الإيطالى العظيم، وهو ما لم يكن من الممكن أن نتوقعه من كاتب شرقى.

وقد ألف محمد لطفي جمعة بعض الأعمال الأدبية (من بينها مسرحيتان حصلتا على جوائز في ١٩٢٦)، وكتابات في تاريخ الفلسفة وعلم الاجتماع؛ وبعض هذه الأعمال ترجمات من الفرنسية ومن الإنجليزية، ومن بين الترجمات سنلاحظ الـ convito لأفلاطون، الذي نشر في ١٩٢٠. وتوجد قائمة الأعمال التي نشرها حتى ١٩٢٦ في ص ٣١٧ من كتابه "الشباب الرشيد" (نقد لكتاب عن الشعر الجاهلي لطفه حسين)، القاهرة ١٣٤٤ من الهجرة، ١٩٢٦ ميلادية، وبهذا الكتاب وحذف المسرحيتين (اللتين مثلتا ولكنهما لم تطبعوا) قد تصل كتبه المطبوعة إلى ١٥ (٢٠). ويضاف إليها بعد ذلك "تاريخ فلسفة الإسلام في المشرق والمغرب"، القاهرة ١٩٢٧، وهو مأخوذ في معظمه من مقالات "مونك" الشهيرة.

وتسبق ترجمة الأمير سيرة لماكيا فيللي (ص ٣ - ٢٠)، وبعض الأخبار عن أعماله (ص ٢١ - ٢٩)، و"ذكريات ماكيا فيللي" (ص ٣٠ - ٣٩)، و"الليلة الأخيرة" (ص ٤٠ - ٥٠)، ووصف خيالي لموت الكاتب العظيم الذي عاش في فلورنسا.

وأعتقد أن من المناسب تقديم الترجمة الكاملة لـ "ذكريات ماكيا فيللي" المهمة جدا لأنها تبين لنا الحماس الكبير الذي حرك المترجم:

"إن معرفتي بـنيقولا ماكيا فيللي وبأعماله، التي قلما نجد نظيرا لها، حدثت بهذه الطريقة: أنه بينما كنت أجرى محادثة مع شخص يشغل منصبا سياسيا دوليا في مصر، قال لي: "إن الخير يجب أن يوزع على الشعوب مثل المطر الخفيف، وليس كالمطر العنيف، وعندئذ سيلقى تقديرا أكبر وسيكون العرفان أكبر بالفائدة وهذا هو رأي ماكيا فيللي". وبعد أن تناقشت معه سألته: "ومن هو ماكيا فيللي؟" يرد بأنه سكرتير جمهورية فلورنسا في بداية القرن السادس عشر، وأنه مؤلف كتاب الأمير (٢١)، لم يصف شيئا آخر. ولكن في محادثات أخرى كان يذكر أقوالا حافلة بالحكم وفقرات كانت تدهشني لاختصارها وتفرداها وكان ينسبها لسكرتير جمهورية فلورنسا. وقد حدث هذا منذ سبع سنوات، أي في نهاية ١٩٠٥. وقد

سألته بعد ذلك ذات يوم عن كتاب الأمير الذي كان يذكره وقال لى إنه كان قد قرأه بالإيطالية ولم يكن يعرف ما إذا كانت توجد له ترجمة بالإنجليزية. ولكنه كان يعلم أنه ترجم إلى الفرنسية والألمانية. وعندئذ قمت بأبحاث فى المكتبات الأجنبية فى العاصمة باحثا ومستكشفا وأنا أسأل بإلحاح عن كتاب ماكيا فيللى، ولكننى لم أجد لا الأصل ولا الترجمة العربية. وكنت أتوق لدخول فكر هذا الرجل الذى يحمل اسما سحرىا يجذب الروح لمجرد سماعه، ولكننى لم أكن على الطريق القويم، حيث إننى لجأت إلى صديق، وسألته عن الأمر؛ وقد قال لى إن الكتاب محفوظ بعناية ولا شك فى أننى سأحصل عليه فى اللحظة المناسبة. ولكن هذا الرد لم يشف شغفى وحاولت أن أعثر على بعض الأخبار حول ماكيا فيللى فى المكتبات، وكل ما كنت أقرأه فيها كان يزيد من رغبتى فى الكتاب، لاتفاق المؤرخين على تمجيد "الأمير"، ومدح مؤلفه، وللاعتقاد بأن هذا الكتاب، على الرغم من قصره، كان مصدر العلم السياسى الحديث، حتى إن أبطال التاريخ مثل ريشليو وفديريكو الكبير ونابليون بونابرت ومترنيخ نهلوا من مصدره.

"إلا أن المؤرخين يتفقون تقريبا (على التأكيد) على أن اسم ماكيا فيللى أصبح دلالة محددة (٢٢) لكل سياسى قوى الذكاء والفؤاد لا يثنيه النبل والتحفظ وخشية الله عن ارتكاب أسوأ الجرائم للوصول إلى الهدف وخاصة عندما يجتهد الأمير بهذا من أجل مصلحة الدولة التى يمسك بدفتها. قد أصبحت كلمة الماكيا فيللية الآن صفة لكل عمل يقوم على الشر والدهاء المرتبطين بالأنانية وتقديم الهدف على جودة الوسائل.

"وقد قضيت بضعة شهور وأنا ملئ بالشوق لماكيا فيللى وكتابه باحثا عنه فى كل مكان وسائلا عنه كل إنسان، حتى وقع ما لم أكن أتوقعه. فقد كنت أتزده ذات يوم فى ربيع ١٩٠٦، عندما لمحت رجلا يعرض كتبا بائسة على سور بوابة الإسكندرية. وقد نظرت إليها ورأيت أنها مجموعة من الروايات باليونانية والإيطالية والفرنسية، وكلها لغات كنت أجهلها. ولكن كم كانت فرحتى ودهشتى

وانتصاري كبيرا عندما سقطت عيني على كلمة الأمير (مكتوبة) على كتاب صغير مطبوع على ورق من نوعية دون المستوى؛ ثم سقط نظري إلى أعلى الصفحة على اسم نيقولا ماكيا فيللي، ولم يتبق لدى أي شك في أنني كنت أمام الشيء الذي كنت أهدف إليه. وأمسكت بالكتاب بسرعة وسألت البائع عن الثمن، فقال لي: قرش واحد. ولا أعلم كم دفعت، وأخذت الكتاب بين يدي وسرت دون أن ألتفت إلى أي شيء، إلا أنني لم أكن قد سرت ميلا واحدا، محمولا بالحمية والحماس، عندما أدركت خطأي: أنني حصلت على ما لم يكن بوسعي فهمه، لأن الكتاب كان بالإيطالية. وعلى الفور خطر ببالي ألف مشروع للخروج من هذه الهوة، مثل: طلب المساعدة من بعض الإيطاليين للتمكن شيئا فشيئا من فهم تعبيراته، والبدء في دراسة اللغة الإيطالية للوصول إلى هدفى بشأن الكتاب. ولكن حيرتني لم تطل لأن المصير الطيب قادني نحو نسخة بالإنجليزية في مكتبة الإسكندرية، وقرأت الكتاب في أقل وقت يلزم للانتهاء منه. ولكن القراءة الأولى تركتني في حيرة لصعوبة فهم الأفكار وأهمية الكتاب؛ وهكذا كنت مضطرا لإعادة قراءته مرات عديدة. وفي النهاية رضيت بدراسته بعمق وفهم معناه، وبعد قراءة كل فصل كنت كمن ينجح في اكتشاف سر غرفة مفزعة في قلعة مسحورة. وكنت أتوقف مشدوها ومضطربا بعد قراءة كل جملة؛ بل إنني في بعض الأحيان كنت أجول بعيني على السطور بخشية وخوف وكنت أسأل نفسي: "هل يقول الحق فعلا هذا الرجل الرائع؟" ثم كنت أعود بنظري إلى الصفحة وكنت أصطدم بشخصيات معروفة، وأسماء شهيرة، وأخبار معروفة، وأسماء أعلام لأماكن، ومن قبل كنت قد عرفت بالاسم تلك الأشخاص وزرت بعض الأماكن التي يتحدث عنها. ولكن كتاب "الأمير" كان يمثل لي أولئك الأبطال في ساحة الحياة الإنسانية؛ إنهم إرادات قوية ومتنوعة، دفعتهم إلى ساحة الحياة قوى مختلفة، وكل إرادة تجتهد للوصول إلى هدف خاص بها، وفي حياة النشاط الذي رسمته لنفسها أحيانا ما تقودها قوة خفية، وأحيانا ما تكون لها حرية الاختيار، وبين الحالتين تنهض وتخبو، وترتفع وتسقط، وهي سعيدة وتعيسة وتأمل وتيأس. ويمكن القول بأن الأشخاص المذكورين في "الأمير" هم من

جنس آخر من البشر، وهم مجموعة من المزاي والمصالح الخاصة والعامة، يوجد بينهم خلاف أبدي، مستمر من أجل الهيمنة والنفوذ والمجد. وهكذا فإنني تجردت من المشاعر الضعيفة والمسكينة، ونظرت إلى الأمور كما ينظر إليها شخص نكي ودارس يقيم الأمور تبعا لقيمتها المادية والعملية.

"وفي حين ترى أولئك الزعماء الكبار يقودون الأمور بقلب غير رحيم، ترى أمما وممالك ومندا - وهي ساحات هذه الأعمال الكبرى - تارة قوية وتارة أخرى ذليلة؛ وهكذا يبدو لك أنك في معرض رائع، أقامته على ساحة الحياة الفانية آمال البشر؛ لأنك عندما تقتفى آثار بطل يسير أمام الجميع ويشكل مملكة أو يقود دولة، وهو واثق وآمن، يرفع بناء مجده، كما لو كان عليه أن يعيش إلى الأبد، يحدث حدث غير متوقع كالتيار المتدفق ويزيح من طريقه ذلك البطل ويدمر قلاع آماله، بل إنه يدمر تلك التي حشدها. وإذا لم يكن هناك هذا الحدث المفزع، فإن الموت إذن هو المدمر الذي يمحو كل شيء.

"أي مراقب حاد الذهن أنت يا ماكيا فيللي ويا من تراقب من بعيد ومن قريب، بعين جافة، وبقلب بارد وروح جف فيها نبع الدموع، لعبة الشطرنج الأبدية، التي تتكون رقعتها من الليالي والأيام، والقطع من أبطال التاريخ القديم والحديث والبيادق من جيوش ألمانيا وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وأبراج قلاع روما وقلاع بيزا وفلورنسا وحملة الرايات في أساطيل جنوا وفينيسيا، في حين أن الملك هو تشيزاري بورجا.

وعندما قرأت "الأمير" شغفت به وكنت أحمله إلى جانب رباعيات الخيام (٢٣)، وأنا أقرأ الخيام في لحظات حزن النفس وضيق الروح لكي أنتشى بخمره المقدس والمصفى، وأنا أقرأ "الأمير" لكي أفيق من سكر خمر الخيال والعودة إلى ساحة الواقع المؤلم، الذي تصطدم فيه جيوش القوى والرغبات وتتداخل سيوف الأحداث ورماح المصائب.

ثم ذهبت للمرة الأولى إلى الأقاليم الشمالية لكي أتنفس رياح الطموح الأعلى

فى معابد الرومان وللبحث عن معجزة الجمال فى التماثيل الرائعة واللوحات المؤثرة. وبينما كنت أتجول عصرا فى قاعات متحف الفن القديم والحديث فى روما، ها أنا قد وجدت نفسى وجها لوجه مع صورة رجل جالس أمام هيكل سرير مغطى بسجادة مطرزة بالذهب، كانت فوقها كتب وأوراق ملقاة ومبعثرة. وكان ينظر نحوى بعينين مليئتين بالحكمة والدهاء والحزن، وعندئذ حدثت لى حالة عجيبة وقلت (بنى وبين نفسى: "هاهو) ماكيا فيللى مع موضع رغباته".

وأسرعت بالنظر إلى رقم الصورة فى كتالوج المتحف وكان هو بالضبط نيقولا ماكيا فيللى! وكانت هذه هى المرة الأولى التى تقع فيها عيني على صورته. وقد بقيت ثابتا أمامه مندهشا وأنا أفكر، وأتساءل كما لو كنت أرغب فى كسر تلك الجمجمة لكى أرى ما هى الأفكار الواضحة وما هى الأفكار الغامضة التى تضمها. ثم تذكرت أن ذلك الوجه لم يكن سوى لوحة مرسومة بالزيت وتركت المتحف، ولكن مظهر ماكيا فيللى بقى فى ذاكرتى.

"على الرغم من كل هذا لم توح إلى نفسى بترجمة "الأمير" إلى العربية حتى كان ربيع ١٩١٠ عندما نقلتلى الرحلات إلى مدينة تارارى (٢٤) فى الأرض الفرنسية، حيث دعيت مع مجموعة من الأساتذة الفرنسيين كان على رأسهم المتقف إدوارد لامبير، لحضور احتفال علمى وإلقاء محاضرة عن مصر. وكانت اللجنة العلمية التى أعدت لهذا الحفل مكونة من الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق والأعضاء. هل تعلم أنت من كان السكرتير ولا يزال حتى اليوم؟ كان حفيد حفيد ماكيا فيللى، الذى لا يزال يحمل حتى اليوم اسم عائلته. وعندما سمعت لقبه طرت نحوه وحاولت أن أخفى مشاعرى، وأخذت فى سؤاله بلطف عن أعماله، وحالته والطابع الأجنبى فى لقبه، ورد على بقوله: "إن لقبى إيطالى، ولا شك أنك يا سيدى، تعرف اسم نيقولا ماكيا فيللى الشهير". فقلت له: "لقد قرأت عنه فى بعض الكتب". ورد هو قائلا: "إنه جدى الأكبر". وعندئذ قلت فى نفسى: "يا لك من بائس، بل يا لها من عائلة بائسة الحظ! لأنه فى حين أن سلالة آل ميديتشى وسفورنسا

وفيسكونتي وجويتشاردينى يتمتعون اليوم بلذة الثراء الوفير، فإن عليك، وأنت سليل من يحمل أعظم اسم سياسى فى العالم، أن تتحمل مصاعب التدريس، وتستمر مثل جدك فى أن تكون سكرتيرا للجنة، لأنه كان سكرتيرا لدولة ولم يكن له وضع أفضل من وضعك!" ثم عند لحظة الرحيل شددت على يد ماكيا فيللى الفرنسى، واحتفظت بيده طويلا فى يدي، بينما كان لسانه يفيض بالشكر والثناء، على الرغم من أنه لم يكن يعلم أننى كنت أرى فيه جده العبقري، وبصرف النظر عن جماجم سبعة أجيال مضت فإننى كنت أمد يدي لنيقولا العظيم.

"فى تلك السنة نفسها بدأت فى دراسة الإيطالية لميلى الطبيعى للغات اللاتينية (الحديثة)، وقد تعلمتها من الأستاذ مينيون، مدرس الأدب الإيطالى فى كلية الآداب فى جامعة ليون، وقرأت الـ Cortigiano لكاستيليونى بالنثر القديم، و Gerusalemme لـ "تاسو" و فقرات مختارة من باسكولى، الذى كان أستاذا للأدب فى جامعة بولونيا وخليفة كاردوتشى. ومن بين المواقف الجميلة أننى توجهت آنذاك للأنسة ماريا ألبرتيني وهى من بولونيا، وتعلمت منها قواعد الإيطالية، على الرغم من أننى لم أنشغل بها كثيرا لعدائى الطبيعى للقواعد والقيود. وعندما جاء الصيف اتجهت نحو إيطاليا وأمضيت بعض الوقت فى جنوا وراباللو ونيرفى وبيلى وكلها (أماكن) على الرفييرا الغربية. ثم سافرت إلى فلورنسا، مدينة الذكاء والجمال، وبقيت فيها لبضعة أشهر مترددا على جماعة من أدبائها الذين كانوا يملأون صفحات الـ Margorco بالمنتجات الجميلة لذهنهم الفنى. وزرت بعض الآثار، وقد فرحت نفسى بجمال تلك الجنة الأرضية، ولكن هذا ليس مجال الإطالة فى هذا الشأن. سأذكر فقط أننى وجهت اهتمامى لترجمة "الأمير" من الإيطالية إلى العربية فى فلورنسا هذه، حيث كنت أسكن فى شارع ليوناردو دافنتشى رقم ٦، وفى تلك الفترة زرت كنيسة سانتا كروتشى، حيث يرقد قبر ماكيا فيللى. ولكننى غير قادر على وصف الشاعر التى كانت تضرب فى نفسى فى تلك الوقفة (أمام القبر). وكان تأثرى من اليوم الذى زرت فيه منزل ماكيا فيللى، الذى يقع الآن فى الرقم ٧١ من شارع جويتشاردينى. وهناك وصف له (فى الفصل الذى يحمل

عنوان): "الليلة الأخيرة". وقد حدث هذا في نهاية شهر أغسطس. وكان جيران ماكيا فيللي يتجمعون حولي عندما كنت أنسخ الكلمات المكتوبة على أجزاء الرخام المعلقة على الحائط لكي توضح للناس في ذلك الزمن أن ذلك المسكن المتواضع كان مسكن الرجل الذي يتمتع بأقوى ذكاء سياسى إيطالى.

"وفى جنيف أنهيت جزءا مما بقى (من ترجمة) "الأمير". كما لو كان قد جاب معى منذ ما يقرب من ست سنوات كل الأقاليم. تارة ككتاب مقروء، وتارة كترجمة متفرقة، وقد تم الجزء الأكبر من هذه الترجمة فى فلورنسا، وطن ماكيا فيللي، بينما تمت الأجزاء الأخرى فى جنيف وليون وباريس والقاهرة وقد انتهت فى ٢٧ يونيو ١٩١١ فى جنيف، حفظها (الله) فى رقم ٧٩ من شارع بولفار كارلو فوجت، فى الجانب الشرقى من المدينة.

"والآن، أخرج للجمهور هذا الكتاب، الذى كان حليفا لوحدتى فى رحلاتى وصديق عزلتى فى البقاء وفى الترحال، وأنا أنفصل عنه بألم مختلط بالغيرة، لأنه بالأمس كان ملكى وغدا سيصبح ملكا لآلاف من أولئك الذين يقرأون اللغة العربية النبيلة".

ويجب ألا نقول إن ترجمة محمد لطفى جمعة، من الناحية اللغوية، أفضل بكثير من ترجمة رفائيللى، زاخور، فهى عمل شخصى يستخدم العربية جيدا جدا ومن دراساته كان مهيا لفهم الفكر السياسى للكاتب الإيطالى. ولكننا لا نستطيع أن نغفل أن لطفى جمعة أحيانا يترجم بحرية زائدة وغير مفيدة، ولهذا فإن بعض الفروق الطفيفة فى الإيطالية تضيع. لنأخذ مثلا الفصل الأول، الذى سننقل فيما بعد روايته:

نص ماكيا فيللي

ترجمة رواية لطفى جمعة

نرى على الفور أن فكر ماكيا فيللي غير مترجم هنا بالدقة المطلقة، سواء لإدراج بعض الكلمات (على سبيل المثال "giuste" و "moderate" فى البداية) أو لحذف كلمات أخرى، أو لخلط الفعل "acquistare" مع الفعل "comquistare"

لننتقل إلى الجزء الأخير من الفصل الأخير، ذي الإيقاع البطولي لحدث الأمير حتى يحرر إيطاليا من البرابرة، ونضع في مقارنة نص ماكيا فيللي مع إعادة ترجمة لطفى جمعة العربية:

ترجمة رواية لطفى جمعة نص ماكيا فيللي

وقد لا نحتاج للإلحاح على إبراز العيوب التي يمكن أن يكتشفها كل منا من مقارنة العمودين، ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العيوب تفسر غير الهيمنة بالنسبة لعربي، في فهم لغة ماكيا فيللي القديمة إلى حد ما، إذا لم تكن أيضا راجعة جزئيا لبعض الأخطاء في الرواية الإنجليزية، التي ربما كانت مرشدا رئيسيا للمحامى محمد لطفى جمعة الذي نشعر تجاهه على أي حال بعرفان كبير للنشاط الذي قام به في دراسته الأمور الإيطالية وفي محاولة تعريفها للشعوب الناطقة بالعربية.

ونختتم هذا العرض بإعادة الفصل الأول من "الأمير" في روايتي دون رفاتيلي زاخور وطفى جمعة، وسيبدو من الواضح هكذا، دون حاجة لملاحظات خاصة، التفاوت الهائل بين الاثنين، سواء في نوعية العربية أو في الطريقة المتبعة في الترجمة:

ترجمة دون رفاتيلي زاخور

Traduzione di don Rattaele Zahur.

الرأس الأول

في كم هي أنواع الاميريات (٢٥) وبايتما طرايق حازاي يحصل عليها (٢٦) إن كل الأحكام وكل السیادات تلك التي قد ملكت وتملك سلطة على الناس كانت ولم تزل اما مشیخات وأما امیریات، فالامیریات إما انها مستورثة وهذه دم من سادها يكون قد استمر مدة مستطيلة امیرا. واما انها مستجدة. ثم ان المستجدة اما انها جديدة كما كانت اميرية مديولان على الامير فرنسيس سفورزا. واما انها كأعضاء مضافة لحكم الوارث ما للامير الذي يجوزها. كمملكة نابولس لملك اسبانيا. فان هذه سیادات هكذا محافرة او معتادة ان تعيش تحت احكام امیر. او انها

اميريات اعتادت ان تكون محررة وتحاز اما بقوة اسلحة اخرين او باسلحة ناسها خاصة او بواسطة السعد او بواسطة الفضل.

ترجمة جمعة (٢٧)

(ah Traduzione di Muh. Lutft Gum ص1)

الفصل الأول

فى أنواع السلطة وطرق الحصول عليها

كانت الحكومات التى حكمت الأمم فى الأزمان الغابرة إحدى اثنتين، إما جمهوريات عادلة، وإما ملكيات معتدلة. وللمكية نوعان: نوع تحكمه أسرة واحدة عريقة فى القدم يرث أفرادها الملك الواحد بعد الآخر، ونوع حديث التأسيس وملوكه حديثو العهد بالسلطان. ولذلك النوع الأخير صنفان صنف تكون الممالك فيه حديثة بالكلية كما كانت إمارة (ميلانو) فى عهد (فرنسيسكو سفورزا) وصنف يضمه الأمير إلى ما ورثه عن آبائه وأجداده بحق الفتح مثل إمارة (نابولى) التى ضمها ملك (إسبانيا) إلى أملاكه.

على أن بعض الممالك التى تقهر ويغلب أهلها على أمرهم يكون قبل الفتح متعودا حكم أمير من الأمراء. ويكون بعضها حرا مستقلا ووقوع تلك الإمارات فى أيدي الفاتح يحدث إما بقوة الحرب وإما عفوا صفوا.

هوامش

(١) جريدة الملاحظات التي دونها خلال رحلاته في مصر وسوريا والنوبة ج. ب بروكي، وهو مؤلف لم ينشر بعد موت مؤلفه، باسانوما أ. روبرتي، ١٨٤١ - ١٨٤٣، في - ٨، ٥ مجلدات - على صفحات هذا الـ *Giornale*

انظر مقال البروفسيير أ. سان ماركو في *Oriente Moderno* المجلد الثامن، ١٩٢٨، ص ص ٣٧١ - ٣٨٢ و ٤٢٤ - ٤٢٩.

(٢) خطاب للسيد القنصل أتشيري، القنصل العام لـ S.M.I.R.A. في مصر للسيد القنصل جيروني، أمين مكتبة بريرا الإمبراطورية في ميلانو، حول بعض المخطوطات العربية المنقولة من مصر والمرسلة كهدية إلى المكتبة سالفة الذكر والمكتبة الإمبراطورية في فيينا (في *Biblioteca Italiana*)، الكتاب ٦١، ميلانو ١٨٣١، ص ٢٨٩ - ٢٩٨

(٣) في الخطاب نفسه يكتب أتشيري، *Biblioteca Italiana*، العدد ٦١، ص ٢٩٥، السطر ١٩ والسطور التالية: "يجب أن أنكر أيضا لمسة لطف منه (محمد علي) الذي حدثني عنه المسابيكي مدير مطبعة بولاق؛ الذي عندما تذكر محادثتنا والوعد بإعطائي نسخة من ابن خلدون، أمر بأن يطبع لكي يقدم لي منه أكثر من نسخة بسهولة؛ وكان المسابيكي يعني بهذا العمل وبطباعة بعض المخطوطات الكلاسيكية الأخرى، مثل المقرئ لعبد اللطيف، ومخطوطات أخرى شرفني باختيار بعضها، حيث أنني لم أكن غافلا تماما عن هذه المادة. وأخشى جدا في نفس الوقت أن يكون موت المسابيكي قد أوقف كل شيء، حيث أنه لم يكن هناك من يخلفه".

وبالفعل فإن النص العربي (وليس الترجمة التركية التي رقيت دائما دون نشر) لمقدمة ابن خلدون طبع في بولاق فقط بعد ٢٩ عاما من هذا الخطاب (١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م)؛ وقد نشر وصف المقرئ في ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) في بولاق ووصف عبد اللطيف البغدادي في ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ - ١٨٧٠ م) في القاهرة.

وفي الخطاب يتحدث أتشيري بعد ذلك طويلا عن أبحاثه في كتاب ابن خلدون، وهي أبحاث سمحت له بأن يرسل إلى مكتبة بريرا في ميلانو بأول مجلد من المؤلف وإلى المكتبة الإمبراطورية في فيينا بمخطوط يتضمن الفصول الـ ١٤ الأولى من الفصول الـ ٢٥ من العقد الفريد لابن عبد الربيحي مع مخطوطات أخرى.

(٤) هذا خطأ من الـ "بروكي". فدون رفائيلي لم يكن مارونيا، ولكنه كان قسا يونانيا - كاثوليكيًا، وراهبًا في جماعة الـ Basiliani التابعين لسان سلفاتوري. انظر مقال س. باشامكي الذي نشير إليه فيما بعد.

(٥) الباشامكي يذكر بين أعمال دون رفائيلي ترجمة كتاب لـ "ماكير" عن صباغة الحرير؛ ولكن لا يمكن أن نعرف ما إذا كانت كلمات الـ "بروكي" تشير إلى ذلك.

(٦) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والآثار. وذكر دون رفائيلي يوجد تحت تواريخ ٢٥ شعبان ١٢١٥ (١٨٠٠) و ٢٠ شوال (١٨٠١) و ١٤ محرم ١٢١٦ (١٨٠١): وفي هامش "الكامل" لابن أثير، القاهرة مطبعة ١٣٠١ هـ (نهاية ١٣٠٢) المجلد السابع، ص ١٣٦ و ١٥٢، المجلد الثامن ص ٢٣ - Merveilles biographiques et historiques ou chroniques du Cheikh Abd-el-Rahman EL-DJABARTI traduites de l'arabe القاهرة، ١٨٨٨ - ١٨٩٦، المجلد السادس، ص ٢٦٩، ٢٧٩؛ المجلد السابع، ص ٢٦.

(٧) "Dizionario Italiano e Arabo" يتضمن باختصار كل الكلمات المستخدمة والضرورية لتعلم اللغتين بصورة صحيحة - وهو مقسم إلى جزأين - الجزء الأول من القاموس مرتب كما هو معتاد حسب الترتيب الأبجدي - والجزء الثاني يشتمل على مجموعة صغيرة من السماء الضرورية والمفيدة لدراسة اللغتين - بولاق، من المطبعة الملكية، ١٨٢٢، في ٨، ٢٦٦ + ٦ غير مرقمة من "تصويب الأخطاء".

وفي المقدمة المكتوبة باللغة العربية، يقول دون رفائيلي، أنه كان مكلفًا من قبل محمد علي، "نائب السلطان علي مصر" بتعليم الإيطالية، ولكنه لم يقل ما إذا كان ذلك في مدرسة بولاق أو في أماكن أخرى وبالطبع في ١٨١٢، عندما كان الـ "بروكي" يكتب في جريدته الـ Giornale كان مدرس اللغة الإيطالية في المدرسة من بيمبوتتي، هو القس سكاليتي (بروكي)، المرجع المذكور، المجلد الأول، ١٥٩، راجع المذكور عاليه هنا). ويضيف دون رفائيلي، أنه ألف القاموس لخدمة الطلبة والذين مكلفين بترجمة الكتب. ومن الواضح أنه كان معدا لاستخدام العرب الذين كانوا يريدون الترجمة عن الإيطالية، وليس لاستخدام الإيطاليين. وبالفعل لم تكن الكلمات العربية مشكلة ملم تكن هناك إشارة لمعنى الكلمات العربية الموضوعه أمام كلمة إيطالية معينة.

(٨) Un manuscript autographe de Don (sic) Raphaël de l'Institut d'Égypte (1798) بقلم س. بشامكي في Bulletin de l'Institut d'Égypte ، الكتاب الثامن، دورة ١٩٣٠ - ١٩٣١، القاهرة، ١٩٣١، ص ٢٧ ٣٥.

(٩) في هذا المزيج تظهر أربعة خطابات كتبها دون رفائيلي بالإيطالية: ثلاثة منها موجهة لنابليون بونابرت وواحد موجه لقاليران - بيريجورد وزير "العلاقات الخارجية" في باريس.

(١٠) في قسم "litterature et beaux arts"، باشامكي، المرجع المذكور، ص ٢٧. وقد أسس

نابليون بونابرت l'Institut d'Égypte الشهير في القاهرة بمرسوم في ٢١ أغسطس ١٧٩٨ وكان يضم ٤٨ عضوا موزعين على أربعة فصول أو أقسام وكلهم من الفرنسيين، باستثناء "دون رفائيلي" الذي كان يوصف بـ "القسم اليوناني في أميديه ريم" moderne: période de Égypte la domination française باريس، فيرمين ديدو، ١٨٤٨، في مجموعة l'Univers، ص ٦٦، للمجموعة ١

(١١) "الديوان" الذي أصلحه نابليون بونابرت في ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨، كان مؤلفا من عشرة شيوخ وكان يؤلف مجلسا يناقش ويقر التعليمات الإدارية والمالية للفرنسيين فيما يتعلق بالسكان المحليين.

(١٢) هكذا يقول دون رفائيلي في مقدمة تاريخ مصر وجبل الدروز، الذي ظل غير مكتمل، باشامكي، المرجع المذكور، ص ٣١. وبالتالي فإن رأي باروكي (١ - ١٧٣) بأن دون رفائيلي كان في باريس "أمين مكتبة المخطوطات الشرقية" غير صحيح.

(١٣) انظر باشامكي، المرجع المذكور، ص ٢٨.

(١٤) "تاريخ" ٤٣٥. في الكتالوج القديم المطبوع في ١٣٠٨ هـ (والمرتب مثل الكتالوجات اللاحقة، تبعا للترتيب الأبجدي للكلمة الأولى للعناوين ودون فهرس للمؤلفين) يظهر المخطوط فقط تحت كلمة مصنفات؛ وفي الكتالوج الجديد (المجلد الخامس، تاريخ، ١٩٣٠ م، ١٣٤٨ هـ) وضع تحت كلمة "الأمير، ولكن الوصف، على الرغم من أنه أدق بكثير من السابق، إلا أنه يحتوى على الإشارات لأرقام الفصول حتى أنه قال أن المخطوط مكتوب بالزنكوغراف!.

(١٥) هكذا يتضح من التعليق في الورقة 3V من المخطوط بالخط الثلث: "وقف الله تعالى"، الذي وضع تحته الموظفون في المكتبة الخديوية آنذاك: محضر من سيدنا الحسين في مارس سنة ١٨٧٦.

(١٦) المقدمة تبدأ بالثناء على الله؛ "تبتدى بعون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. الحمد لله الذي على مشيئته وتكبيره تتعقد سلاسل الأحاديث والأخبار، ومن فيض أحكامه ونجد (?) تقديره يجرى مجرى ما وقع في الدهور والأثمار". الخ. ثم يستطرد قائلا: "ثم يقول وهو يطلب عون القوى الرحمن الرحيم والكريم الوهاب، عبد (الله) القس رفائيلي أنطونيو زخور الراهب: عندما أضطرنى واجب وظيفتي، نزولا على أوامر من أعمل عنده، أي صاحب الفخامة الحاج الخير محمد علي، صاحب القوة والنصر والوزير المكرم وولى الحكم في مصر، وفريد زمانه وعصره، والمتفرد بين أقربائه وزملائه - أطال الله في عمره وأطال سلطانه ورفعته - تلقيت الأمر بترجمة الكتاب الشهير (الذي يحمل عنوان) "كتاب الأمير" الذي ألفه المعلم ماكيافيللي، حول علم السياسة والحكم، ترجمته إلى اللغة العربية لفائدة أولئك الذين يشغلون مناصب إدارية، مع ترجمته بدقة وصحة حتى يكون واضحا وميسرا على من يقرأه: وفي هذا بذلت قصارى الجهد والنشاط وكل عناية وتعب، لأن (الكتاب) قديم في تراكيبه وصعب

فى مفاهيمه، لأنه ألف فى عام ١٦٠٠ (هكذا). وندعو الله أن يعيننا فى البداية والله المجيد الحمد فى النهاية".

(١٧) حرف الـ f بدلا من الـ n يتوقف على عيب الكتابة المشار إليه عاليا.

(١٨) عنوان ترجمة دون رفائيلى يبدو هكذا: "هذه هى مؤلفات عن تاريخ وعلم التنظيم السليم للحكومات، من تأليف نيقولو ماكيافيللى، السكرتير والمواطن الفيورنتينى. المجلد الرابع، حول صفات الأمير وواجباته". يلى ذلك الإهداء إلى لورنتو دى بييرو دى ميديتشى وبعد ذلك فى الورقة ٥ الوجه الأمامى، العنوان من جديد: "حول أمير نيقولو أو حول صفات الأمير" التى يبحث عن وجودها نيقولو ماكيافيللى، السكرتير والمواطن الفيورنتينى.

(١٩) فصول "الأمير" تسمى "رأس" حتى السابع "وفصل" حتى الثانى عشر ثم "رأس" من جديد.

(٢٠) ليس ٢٧، كما قيل خطأ فى الكتالوج المطبوع (المجلد الخامس، تاريخ، ١٩٣٠، ص ٣٩).

(٢١) أمرت ممن أوجب على حق الوظيفة الإذعان لأوامره؛ وفيما بعد، بكتاب الأمير المؤلف من المعلم ماكيافيللى.

(٢٢) كتاب الأمير وهو تاريخ الإمارة الغربية فى القرون الوسطى تأليف نيقولا ماكيافيللى، تعريب محمد لطفى جمعة، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٢٢، المجلد الأول - فى ١٦، ١٩٨ صفحة + ٢ فهرس وصورتان خارج النص: صورة ماكيافيللى وصورة المترجم.

(٢٣) فى Dictionnaire encyclopédique de Bibliographie Arabe، ج. أ. سرقس، القاهرة، ١٩٢٨ - ١٩٣٠، المجموعة ١٦٩٢ - ١٦٩٣، قائمة الأعمال التى نشرها حتى ١٩٢٥ غير مكتملة.

(٢٤) فى النص، كلمة؛ Principe مترجمة بالعربية "الأمير"، ولكنها متنوعة بنسخ عربى تقريبى للكلمة الإيطالية Principe

(٢٥) أصبح عالمان على، راجع ر. دوزى، Supplément aux dictionnaires arabes، ليد ١٨٨١، المجلد الثانى، ١٦٤، المجموعة ١.

(٢٦) أى الشاعر الفارسى الشهير عمر الخيام، الذى عاش فى بداية القرن السادس من الهجرة، الثانى عشر الميلادى.

(٢٧) مدينة فى قطاع رودانو.

(٢٨) المترجم كما نرى وقع فى بعض اللبس فى تفسير أبيات بترارك: فقد أخذ "virtù" بمعناها الأخلاقى الضيق، وبالتالي ترجمها "فضيلة" بينما كان بترارك يعطى الكلمة معنى الـ virtus اللاتينية، أى الشجاعة العسكرية المرتبطة بأفضل الصفات النفسية، ولم يدرك أن تعبير "contro a" يتوقف على الفعل prenderà l'armi (الذى يعنى هنا "سيثور") ولهذا فقد المنفذ

أن هذا يعنى "contraria a." ، "nemica a"، لبخ. وفى الواقع، كان يجب أن تكون الترجمة هكذا: ستقوم المروءة على الحميا الجاهلة ويكون القتال قصيرا إذ الشجاعة القديمة لم تمت بعد فى قلوب الإيطاليين.

(٢٩) إعادة الترجمة الإيطالية كتبت هنا عاليه، ص ٦١٤ وأمامها نص ماكيافيللى الأصلى.

(٣٠) فى المخطوط، هذه الكلمة صاغها رفائلى زخور لترجمة الكلمة الإيطالية "principato" وهو مكتوب باستمرار بدون النقاط تحت الـ ... الأولى.

(٣١) البداية الإيطالية، طبقا للطبعات القديمة، مثل الطبعة التى استخدمها دون رفائلى، هى:

"Quante siano le specie de' principati, e con quali modi si acquistino"

القضية المصرية من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٤١

كارلو جيليو

١ — اهتمت إنجلترا بمصر متأخرا نسبيا. ولكن فرنسا كانت أكثر نشاطا بكثير، فبعد سلام باريس في عام ١٧٦٣، الذي فقدت فيه جانبا كبيرا من إمبراطوريتها، بدأت فرنسا في النظر إلى مصر كمستعمرة محتملة لها وكقاعدة للهجوم على الهند، وأيضا على خطوط الاتصال الإنجليزية عبر رأس الرجاء الصالح. وفي عام ١٧٨٥ أبرمت معاهدة للصدقة والتجارة مع الحاكم المملوكي في القاهرة^(١)، وبعد أن اندلعت الحرب ضد النمسا (١٧٩٣)، أعادت القنصلية الفرنسية إلى القاهرة، التي أغلقت في عام ١٧٧٧. وفي عام ١٩٧٨ بدأت مفاوضات مع إيران من أجل معاهدة معادية للهند، وفي عام ١٧٩٦ أرسلت بعثة ذات طابع علمي — دبلوماسي إلى طهران. ولم تكن لفرنسا علاقات وثيقة فقط مع مصر وإيران ضد إنجلترا، ولكن أيضا مع شريف مكة ومع إمام مسقط (شبه الجزيرة العربية) الذي أسست عنده في عام ١٧٩٥ قنصلية، نظرا أيضا للتبادلات التجارية النشطة مع جزيرة ماوريشيوس، ومع سلطنة ميسوري في الهند.

وبالتالي فإنه يمكن القول بأنه في عام ١٧٩٣ كانت قد تبلورت فكرة القيام بعملية مصر كخطوة أولى نحو احتلال الهند^(٢).

ويقابل النشاط الفرنسي المكثف ذلك النشاط البريطاني المحدود^(٣). فقد وصل أوائل التجار الإنجليز إلى مصر في القرن السابع عشر، ولكن على خلاف زملائهم الفرنسيين، لم تكن لهم قنصليات إلا على فترات متقطعة: في ١٦٣٠ و ١٦٤٥

و١٦٥٨. وحدث فقط بين عامي ١٦٩٦ و١٧٥٦ أن كان لهم قنصل بصورة متواصلة وحاولوا منافسة التجار الفرنسيين، ولكن في عام ١٧٥٦ أغلقت القنصلية نظرا للأنشطة الهزيلة التي قام بها العدد الضئيل من الإنجليز المقيمين في مصر. ومع ذلك فإن إنجلترا، بعد ذلك ببضع سنين، حاولت استخدام طريق السويس للتجارة مع الهند وأبرمت اتفاقيتان بهذا المعنى في عام ١٧٧٣ و١٧٧٥ مع حاكم مصر والرحالة ج. بروس وحاكم البنغال البريطاني وارين هاستينجز^(٤). ولكن سلطان القسطنطينية احتج على الاتفاقيتين مذكرا بالخطر القديم المفروض على الأوروبيين بالنسبة للملاحة في البحر الأحمر وشمال جدة. وقد اضطرت لندن للتنازل والاقتصار على استخدام طريق السويس لإرسال المراسلات بشرط أن ينقلها السكان المحليون بين جدة والسويس^(٥).

ولكن حكومة وشركة الهند استخدمتا طريق السويس قليلا جدا بين عامي ١٧٧٧ و ١٧٨٠ للمراسلة بين الهند وإنجلترا. وفي أعقاب طلب من الـ India Board بشأن إمكانية تنظيم اتصال مع الهند عبر مصر، قررت الحكومة الإنجليزية إعادة فتح قنصلية القاهرة في عام ١٧٨٦^(٦). ولكن النفقات المتعلقة بذلك وجد أنها غير مجدية، ولذا فقد ألغيت القنصلية في عام ١٧٩٣، في الوقت الذي كانت فرنسا تفتح فيه قنصليتها. وقد بقي القنصل بالدوين بمبادرة منه في القاهرة معتقدا أن وجوده هناك أثناء الحرب مع فرنسا كان يمكن أن يكون مفيدا لإنجلترا. بل إنه أبرم في ٢٠ مايو ١٧٩٤ معاهدة مع حاكمي مصر في السلطة آنذاك^(٧).

وقد استشفت إنجلترا من عملية مصر جسامة الخطر في أن تنتقل تلك الدولة ودول عربية أخرى إلى أيد معادية. ومنذ ذلك الحين زاد الاهتمام الإنجليزي بمصر وبشبه الجزيرة العربية بصورة ملموسة؛ ومنذ ذلك الحين، وبعد تردد وصعوبة، بدأت سياسة السيطرة الإنجليزية في البحر المتوسط مع معاقبتها الثلاثة في جبل طارق ومالطة والإسكندرية^(٨)، التي ستضاف إليها بعد ذلك قبرص وحيفا.

٢ - بعد أن عاد نابليون منتصرا من حملة إيطاليا، تلقى من الحكومة التكليف بتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة الفرنسية: فبعد الانتصار على الخصم

الأضعف وهو النمسا، كان لابد من محاربة الخصم الأقوى وهو إنجلترا والقضاء عليه.

وفى البداية عاد نابليون لبحث إمكانية تنظيم غزو لإنجلترا، ولكن اعتبارات عديدة جعلته يتخلى عن المشروع مثل الفترة الزمنية الطويلة اللازمة للإعداد ونقص السيطرة البحرية واستحالة المفاجأة. ولكنه اقترح تنظيم حملة إلى الشرق^(٩)، بهدف ضرب إنجلترا فى خطوط التجارة التى لا غنى عنها لحياتها.

والميل للشرق لم يكن جديدا فى نابليون، حتى إن بعض المؤرخين اعتقدوا أن هذا يفسر بوجود آثار من دماء شرقية نتيجة انحدار نسله من بعض الأجداد من أصل شرقى^(١٠) حتى إنه، فى أثناء حملة إيطاليا، وعند وصوله إلى أنكونا فى فبراير ١٧٩٧، قال: "فى ٤٢ ساعة من هنا نصل إلى مقدونيا". ولكن فكرة القيام بحملة فى الشرق، سواء لإسقاط إنجلترا أو لتكوين إمبراطورية استعمارية لفرنسا، بدأت تشق طريقها بوضوح فى عقل نابليون فى الفترة التى انقضت بين مقدمات سلام ليون (١٨ أبريل ١٧٩٧) ومعاهدة كامبوفورميو (١٧ أكتوبر ١٧٩٧). وبعد الحصول على خطابات للقيصر باولو لفرسان مالطة، يطلب فيها القيصر السيطرة على الجزيرة، كتب نابليون فى ٦٢ مايو ١٧٩٧ إلى الحكومة حول ضرورة احتلال الجزيرة. وبعد ذلك بقليل، ومع وعود كثيرة بالحرية والاستقلال نجح نابليون فى الحصول على أسطول من جمهورية فينيسيا لاحتلال الجزر الأيونية. وهكذا كتب فى ١٣ سبتمبر ١٧٩٧ لوزير الخارجية تاليراند: "إننى أعتقد أن المبدأ الرئيسى للجمهورية الفرنسية من الآن فصاعدا يجب أن يكون عدم التخلي أبدا عن كورفو وزانتى... إلخ، بل إننا على العكس من ذلك، يجب أن نتمركز هناك بقوة؛ وسوف نجد هناك موارد هائلة للتجارة وستكون على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لنا فى التحركات القادمة لأوروبا. ولماذا لا يتعين علينا الاستيلاء على مالطة؟". "وإذا حدث عند إبرام السلام مع إنجلترا أن اضطررنا للتنازل عن رأس الرجاء الصالح، فإننا يجب أن نستولى على مصر فمصر يجب ألا تنتمى للسلطان".

وفى نوفمبر ١٧٩٧، أرسل مبعوثه إلى مالطة لدعوة الفرسان لبيع الجزيرة لفرنسا. ولكي يحتفظ بجزر إيونية التي كانت قاعدة، فى ذهنه، لخطته القادمة للسيطرة على الشرق والبحر المتوسط، سمح نابليون بالتنازل عن فينيسيا للنمسا بمعاهدة كامبو فورميو مخلا بوعوده المتكررة.

بمعرفة هذه الأحداث السابقة، يصبح من السهل فهم اقتراح نابليون بإرسال بعثة إلى مصر. وفى الوقت نفسه، كانت تتجمع فى ذهنه ذكريات روما القديمة.

الصراع بين روما وقرطاجة للهيمنة على البحر المتوسط، والصراعات بين أنطونيو وبومبيو، والفرق الرومانية المنتصرة فى مصر. وتحت تأثير هذه الذكريات، كان حماس نابليون يشتعل فى رؤية مصر مجددة. وهكذا اصطحب معه مجموعة مختارة من العلماء^(١١).

وكانت هناك مشروعات وخطط لمثل هذه البعثة قدمها فى عام ١٦٧٢ لابينتس إلى لويس الرابع عشر، وسان بريست، السفير الفرنسى فى القسطنطينية، فى عام ١٧٨١؛ ولكن نابليون لم يكن على علم بها^(١٢) وأيضاً تاليران، الذى كان قد عقد مؤتمرا فى ٣ يوليو من عام ١٧٩٧ فى معهد فرنسا حول ضرورة إنشاء إمبراطورية استعمارية فرنسية، قدم فى فبراير من عام ١٧٩٨، باتفاق مع نابليون، على ما يبدو، مشروعا لاحتلال مصر.

وعلى أساس هذا المشروع والمشروع التالى لنابليون فى ٢٣ فبراير من عام ١٧٩٨، قررت الحكومة فى ٢٥ فبراير إرسال البعثة^(١٣). كانت الذرائع متوافرة، وأولها المظالم التى يتعرض لها الرعايا الفرنسيون على أيدى الحكام الذين أصبحوا مستقلين عن السلطان^(١٤).

وقد أفلت الأسطول الفرنسى من مراقبة فريق من سفن الأسطول الإنجليزى، بقيادة نلسون، وأبحر من طولون فى ١٩ مايو لوجهة غير معلومة، وهو يضم ثلاث عشرة سفينة ملاحية، وثلاث عشرة فرقاطة وغيرها من السفن الأصغر، مع ٣٣٦٢٩ رجلا فى البعثة^(١٥). وقد احتل نابليون الجزيرة فى ١٠ يونيو، محققا بذلك

مطمحا قديما لفرنسا، وساعدت على ذلك جماعة الفرسان الفرنسيين في جمعية سان جوفاني بالقدس، والتي كانت قد حصلت على مالطة كإقطاعية من كارلو الخامس، مع التزامات محددة نحو مملكة صقلية^(١٦). وقد احتل نابليون الجزيرة في ١٠ يونيو. وعندئذ أعلن الهدف لبحارته. واحتلت الإسكندرية في ٢ يوليو. وفي ١٢ يوليو وقعت معركة الأهرام، التي دمر فيها نابليون الجيش المصري.

وبعد أن علم نلسون برحيل الأسطول الفرنسي دعم أسطوله بوحدات أخرى (بلغت في مجموعها ثلاث عشرة) انطلق لمطاردة نابليون، ووصل إلى مالطة بعد أن كان هذا الأخير قد رحل عنها، وواصل طريقه بعد ذلك إلى الإسكندرية، حيث وصل إلى هناك قبل نابليون بيوم واحد. ولكن عندما لم يجده هناك، عاد نلسون إلى الوراء حتى سيراكوزا، ولكنه انقض على الأسطول الفرنسي الذي انتقل إلى خليج فير ودمره بالكامل تقريبا (١ - ٢ أغسطس ١٧٩٨). وكان الانتصار البحري الكبير، المعروف بمعركة النيل عملا استثنائيا لمهارة وشجاعة وقوة نلسون، الذي وجد الإنجليز فيه بطلا قوميا يمكن أن يقوى على مواجهة نابليون^(١٧).

وفي تلك الفترة الزمنية نفسها (يونيو ١٧٩٨) انفجر تمرد الأسطول الإنجليزي، الذي كان يحاصر قاذش، وقمع بسرعة^(١٨).

وقد رفع انتصار نلسون من مكانة إنجلترا، التي كانت أحداث عامي ١٧٩٦ - ١٧٩٧ قد هبطت بها، وشجع النمسا وروسيا على قبول عروض إنجلترا لتكوين تحالف ثان، وأعاد التأكيد على السيطرة الإنجليزية في البحر المتوسط. وبإيعاده لتهديد نابليون، أسهم في التخفيف من الموقف الهندي الخطير. وأصبحت مالطة وصقلية، التي لجأ إليها ملك نابولي، صديق نلسون، القاعدتين الإنجليزيتين الكبيرتين في البحر المتوسط^(١٩).

وقد غضب السلطان من احتلال نابليون للعديد من الأراضي فأعلن الحرب على فرنسا (١١ سبتمبر ١٧٩٨) وعقد تحالفا دفاعيا مع بولس الأول قيصر روسيا (٢٣ ديسمبر ١٧٩٨)^(٢٠). ونتيجة لهذه المعاهدة، كانت روسيا تلتزم بتقديم اثنتى

عشرة سفينة حربية إلى تركيا، وتحصل في مقابل ذلك على حق مرور سفنها عبر الدرنيل. وكانت روسيا آنذاك معادية جدا لفرنسا بسبب احتلال مالطة (١٠ يونيو ١٧٩٨)، التي كانت جمعيتها قد اقترحت وعينت القيصر بولس الأول "معلما كبيرا" (١٠ أكتوبر ١٧٩٨)، على الرغم من الاحتلال الفرنسي^(٢١). وقام أسطول روسي - تركي باحتلال جزر إيونية (أكتوبر ١٧٩٨) في الوقت الذي قام فيه أسطول بريطاني آخر باحتلال مينوركا (٥ نوفمبر)^(٢٢). وقد انضمت إنجلترا عمليا للتحالف التركي - الروسي بالاتفاق الأنجلو - تركي في ٢ يونيو من عام ١٧٩٩^(٢٣).

وباتفاقية أخرى في ٥ يناير ١٧٩٩، ضمنت إنجلترا وتركيا، كل منهما للآخرى، ممتلكاتهما لفترة ثماني سنوات. وكان "بيت" قد أعطى مثل هذا الضمان لتركيا لاقتناعه بالعواقب الضارة لتفكيك أوصالها وأبقى على سرية المعاهدة بسبب العداء الشديد لتركيا في البرلمان (فوكس، بيرك)^(٢٤). وفي الوقت نفسه كانت إنجلترا قد سمعت لوضع حد لعمل نابليون بالدبلوماسية أيضا، بأن أرسلت وفدا إلى بغداد في عام ١٧٩٧ برئاسة هـ. جونز، بهدف خلق توازن لتأثير العناصر الفرنسية، وفي الوقت نفسه كان الحاكم العام للهند ويلزلي يستعين بعميل إيراني في "شركة الهند الشرقية" لإبرام معاهدة مع إمام مسقط (١٢ أكتوبر ١٧٩٨)، وكان هذا هو الفصل الأول في السياسة الإنجليزية في شبه الجزيرة العربية. وفي يناير من عام ١٨٠٠ قام بتجديده القبطان جون مالكولم. فقد أبرم هذا الأخير معاهدة أيضا مع شاه إيران مؤكدا على المساعدة الفرنسية ضد أي هجوم فرنسي. وفي عام ١٧٩٩، قام أسطول رحل من بومباي باحتلال جزيرة "بريم" وبعد ذلك، عندما وجد أنها غير صحية، احتل عدن، التي أبرم قائد الأسطول مع سلطانها معاهدة صداقة وتجارة (٢٠٨١/٢٥)^(٢٥).

ومع بعثة مصر، ارتكبت فرنسا خطأ من ناحية، لأنها علاوة على تشجيع تكوين التحالف الثاني وجذب الاهتمام الشره لإنجلترا تجاه مصر، خسرت السلطان، الذي اعتمدت عليه دائما لوقف القوات النمساوية والروسية على الحدود مع الإمبراطورية العثمانية، في الوقت الذي كانت تخوض فيه حربها؛ ولكنها من

الناحية الأخرى، أرسى القواعد الصلبة لنفوذها القائم في مصر^(٢٦).

وكان انتصار أبو قير قد عزل عن الوطن جيش نابليون الذي قرر مع ذلك البقاء في موقعه، استعدادا لمواجهة الجيشين اللذين كان السلطان قد أرسلهما ضده عن طريق البر والبحر، بالقوة نفسها. وفي هذا الظرف كتب نابليون في خطاب ٧ أكتوبر ١٧٩٨ إلى الحكومة: "إن القوة التي تحكم مصر، هي التي تحكم الهند، على المدى الطويل"^(٢٧).

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا، كما يقول الـ"روز"، أنه إذا كان نابليون يهدف لوضع الأسس لعمل قائم محتمل ضد القسطنطينية والهند، باحتلال مصر وبالاتفاقات مع إمام مسقط، وكما حدث فيما بعد في محاولة احتلال سوريا، فإن كل مراسلاته مع الحكومة تبين مع ذلك أنه لم يكن يفكر في تحقيق مثل هذه الخطة في تلك اللحظة، سواء لضالة الإمكانيات المتاحة، أو بسبب الموقف السياسي الدولي، أو لعدم وجود أسطول. وبعد هزيمة الجيش التركي في العريش (٢٠ فبراير ١٧٩٩) واحتلال يافا (٧ مارس ١٧٩٩)، فرض نابليون الحصار على سان جوفاني داكري التي قاومت بعناد، بعد أن قام الإنجليز بتزويدها بالإمدادات. وقد اضطر نابليون في النهاية للتخلي عن مشروعه والعودة إلى مصر (٢١ مايو ١٧٩٩)^(٢٨)، حيث حقق نصرا كبيرا في أبو قير على الجيش الآخر الذي أرسله السلطان (٢١ يوليو ١٧٩٩)^(٢٩). وفي المقابل، قامت إنجلترا، من خلال فرقة بحرية تابعة لها، باحتلال بريم (١٧٩٩) التي تخلت عنها بعد ذلك للاستيلاء على عدن. وفي أعقاب ذلك تخلت أيضا عن عدن لكي تستعيدنها نهائيا في عام ١٨٣٩.

وقد ترك نابليون مصر، وركب السفينة متجها إلى فرنسا في ٩ أكتوبر بعد أن استدعته الحكومة للعودة إلى الوطن، بسبب الأحداث الجديدة التي كانت تتطور في أوروبا.

وقد عقد الجنرال كليبر، الذي تركه نابليون لقيادة القوات الفرنسية، اتفاقا مع تركيا (معاهدة العريش، ٢٤ يناير ١٨٠٠)^(٣٠) للجلء عن مصر، ولكن أمام فرض

إنجلترا منح السلام بشرط اعتبار كل أفراد الحملة أسرى حرب، استأنف الحرب وأوقع هزيمة بالأتراك في هليوبوليس (٢٠ مارس ١٨٠٠). وبعد ذلك بقليل اغتيل كليبر، وفي مارس من عام ١٨٠١ هبطت قوات بريطانية بقيادة السير أبركرومبي في أبو قير وأسرت حاميات الإسكندرية والقاهرة في حين قامت قوات أخرى، قادمة من الهند ومن مدينة رأس الرجاء الصالح بالهبوط في القصير. وقد استسلمت القوات الفرنسية نهائياً في أغسطس من عام ١٨٠١. ومن ناحية أخرى، أدى اغتيال القيصر بولس الأول (٢٤ مارس ١٨٠١) إلى غروب خطة غزو الهند، المتفق عليها بين القيصر ونابليون والتي كانت بالفعل في طريقها للتنفيذ^(٣١).

وبعد الجلاء عن مصر، عقدت فرنسا السلام أيضاً مع تركيا، وتم التوقيع على المقدمات في ٩ أكتوبر من عام ١٨٠١. وقد أعاد السلام مصر للسلطان وضمن سلامة أراضي الإمبراطورية العثمانية، بينما وضعت جزر إيونية تحت حماية تركيا وروسيا. وبعد ذلك بيومين أرسل نابليون في مهمة خاصة إلى القسطنطينية الكولونيل سيباستيانى، حاملاً رسالة منه إلى السلطان^(٣٢). وقد وقع السلام النهائي في ٢٢ يونيو من عام ١٨٠٢.

وهكذا غرب حلم نابليون في إمبراطورية فرنسية كبيرة في الشرق. وإلى الآن، لأنه حتى إذا كانت الفكرة قد داعبته من جديد في ١٨٠٣ و ١٨٠٧ و ١٨١٠، فإنه لم يكن بوسعها تحقيقها^(٣٣).

٣ - كانت انتصارات أبركرومبي والقضاء على العامل الفرنسي قد فرضت على الحكومة الإنجليزية مشكلة التوجيهات الواجب اتخاذها إزاء مصر. وقد أبلغ وزير الخارجية، اللورد هوكسبرى (١٩ مايو ١٨٠١) السفير في القسطنطينية، اللورد إلجين، بأن إنجلترا قد عقدت "العزم الراسخ والأكيد على إعادة كل مصر للباب العالي"، باستثناء الحق في إقامة حامية إنجليزية بطول الساحل طوال مدة الحرب أو لفترة أقل "بهدف حماية مصر ضد أي مخطط للغزو في المستقبل"، وهو ما ستنفذه الحكومة الفرنسية بالتأكيد إذا سنحت لها الفرصة المواتية^(٣٤). ولكن هذه

التوجيهات لم يكن لها أن تستمر طويلا أمام سير الأحداث في مصر والتدخلات التركية. وبالفعل، في الوقت الذي كانت فيه حكومة لندن واللورد إلجين والجنرال هتشنسون، الذي خلف السير أبركرومبي في قيادة القوات في مصر يؤيدون حكام مصر المماليك — الذين ساعدوا الإنجليز على نطاق واسع، والذين كان يبدو أنهم القوة الوحيدة المنظمة تنظيما جيدا والقادرة على التعاون لصد أي غزوات محتملة أخرى. وكانوا ينوون تثبيتهم في امتيازاتهم وممتلكاتهم المكتسبة، كانت الحكومة العثمانية تنوى طردهم من مصر لأنها كانت تعتبرهم مغتصبين للسلطة التركية في البلاد، وكانت تخشاهم بصفة خاصة لأنهم كانوا موضع إعجاب من السكان الذين كانوا، على العكس من ذلك، يكرهون الموظفين الأتراك^(٣٥). وفي مبادرة خاصة من الجنرال هتشنسون، أكد رسميا لزعماء المماليك، الذين كانوا منقسمين إلى ثلاث مجموعات (إبراهيم، عثمان البرديسي ومحمد الألفي) على حماية إنجلترا (٥ مايو ١٨٠١)^(٣٦)، وأعطى بيانا بذلك لوزير الخارجية التركي (٧ يوليو)^(٣٧)، ودعاه لإعطاء تعليمات للوزير الكبير، الذي كان آنذاك في القاهرة، حتى يعيد لزعماء المماليك ممتلكاتهم وقراهم. وقد اقترحت حكومة لندن، بدورها، الاعتراف بحقوق الزعماء المماليك (٢٨ يوليو ١٨٠١)^(٣٨)، عندما طلب منها الباب العالي النصح بشأن شكل الحكومة المصرية. ولكن تركيا كانت محجمة عن قبول هذه النصائح^(٣٩). بل إن الوزير الكبير يوسف باشا، قائد القوات البرية والأدميرال الكبير أو الكابتن الباشا، حسين، بأمر من السلطان، وأوقعا زعماء المماليك في كمينين، فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر (أكتوبر). وبتدخل قوى من الجنرال هتشنسون، الذي وصف الواقعة بأنها إهانة لإنجلترا، التي كان الحكام المماليك تحت حمايتها، أعاد الأدميرال الكبير الأسرى ودفن القتلى مع تكريمهم^(٤٠). ووافقت الحكومة الإنجليزية تماما على عمل الجنرال هتشنسون (٢٧ يناير ١٨٠٢)^(٤١)، فتدخلت هكذا صراحة في الصراع بين الإمبراطورية العثمانية وحكام المماليك لصالح هذا الفريق الأخير.

وهناك محاولة تمت عن طريق ستراتون، سكرتير السفير البريطاني في

القسطنطينية والورد كافان؛ القائد الجديد للقوات الإنجليزية، لدفع الحكام المماليك للتخلي عن مصر بالذهاب إلى القسطنطينية أو إلى أرض بريطانية، وباعت بالفشل (يناير - مارس ١٨٠٢)^(٤٢) وعندئذ بدأ صراع عنيف بين العناصر التركية والمملوكية، خاصة بعد أن عين محمد خوسريف باشا على مصر (يناير ١٨٠٢).

وفي أعقاب معاهدة أمينز في ٢٥ مارس ١٨٠٢، التي كانت تفرض في الوقت نفسه على فرنسا وعلى إنجلترا الجلاء من النقاط المحتلة في البحر المتوسط بالقوات المسلحة للبلدين، كان على إنجلترا الجلاء عن مصر. وقد فكرت في الحفاظ على مصالحها في البلاد بتدعيم قوة الحكام المماليك، الذين كان عليهم أن يتولوا من جديد زمام الأمور بدفع جزية كبيرة في مقابل ذلك للباب العالي. وبهذه الطريقة ستكون لها في مصر حكومة ودية وفي الوقت نفسه قادرة على مواجهة أي عمليات فرنسية محتملة. وقد عهد بتنفيذ هذا المشروع للعميد ستيوارت، الذي كان قد نصح به في الوقت نفسه^(٤٣). وقد أعطيت أيضا لستيوارت التعليمات بالمرور بالقسطنطينية، للحصول على موافقة الباب العالي على المشروع المذكور أو ما يتبع ذلك من موافقة على مشروع إبعاد الحكام المماليك إلى أقاليم صعيد مصر (١٠ أغسطس ١٨٠٢)^(٤٤). وعند وصوله إلى القسطنطينية، قابل ستيوارت المعارضة الحاسمة للباب العالي لأي مشروع لا يتضمن إبعاد المماليك عن مصر (يوليو - أغسطس ١٨٠٢)^(٤٥). وبعد انتقاله إلى مصر، حيث تولى بعد ذلك بقليل قيادة القوات البريطانية (١٠ أكتوبر)، حاول ستيوارت الوصول إلى اتفاق بشأن المماليك مع خوسريف باشا، ونصح الحكومة البريطانية في الوقت نفسه بإطالة أمد الاحتلال لتسهيل مباحثاته واحتلال بعض حصون الإسكندرية^(٤٦).

وفي ١٦ أكتوبر وصل الإسكندرية الكولونيل سيبياستياني، الذي بعثه نابليون في مهمة، تجارية على ما يبدو، في البحر المتوسط، والذي أعرب عن احتجاجه للجنرال ستيوارت لأن القوات الإنجليزية كانت لا تزال في مصر على الرغم من الالتزام بمعاهدة أمينز؛ وعندئذ واصل طريقة إلى القاهرة حيث أبلغ خوسريف باشا

بنية القنصل الأول إعادة العلاقات التجارية بين فرنسا ومصر وقدم مساعيه الحميدة للوصول إلى اتفاق بينه وبين المماليك، وهي خدمات رفضها الباشا^(٤٧). واستجابة لاحتجاج سياستيانى وإلحاح الباب العالي، على الرغم من المخاوف من عمل العميل الفرنسى، أصدرت الحكومة البريطانية الأمر فى ٢٦ نوفمبر للجنرال ستوارت بالسعى للجلء عن مصر^(٤٨). وفى الوقت نفسه، كانت قد حدثت هناك فى شهر نوفمبر مصادمات شديدة بين قوات الحاكم المملوكى الألفى وقوات خوسريف التركية، وهى مصادمات انتهت لصالح الفريق الأول.

وقد بقى ستوارت محايدا بين الجماعتين، وبعث مساعده فى الميدان، اللورد بلانتير إلى القسطنطينية لدفع اللورد إلجين للتدخل لدى الباب العالي للحصول على تسوية للموقف المصرى لصالح الحكام المماليك (٢١ نوفمبر ١٨٠٢)(٤٩).

وقد دفعت الأخبار المرسله من خوسريف حول النشاط الذى قام به سياستيانى فى القاهرة وتلك التى نقلها من باريس دبلوماسى تركى حول نوايا نابليون فى الاهتمام بإعادة سلطة المماليك، بالإضافة إلى الأخبار التى قدمها عند عودته اللورد بلانتير حول الهزائم التى تعرضت لها القوات التركية فى مصر (٥٠)، كل هذه الأخبار دفعت الباب العالي (٣ - ٥ يناير ١٨٠٣) لإعطاء الحكام المماليك إقليم أسوان، فى صعيد مصر، ومعاشات ضعف تلك التى كانوا يتقاضونها فى السابق، بشرط عدم التدخل فى حكم البلاد (٥١).

وفى الوقت نفسه كان الجنرال ستوارت قد استمر فى إجراء المفاوضات بين المماليك وخوسريف؛ ولكن بعد تلقيه الأمر فى ١٩ يناير ١٨٠٣ بالجلء بتاريخ ٢٦ نوفمبر، نصح المماليك بانتظار قرارات القسطنطينية (٥٢) إلا أنه عندما وصل اللورد بلانتير إلى القسطنطينية، لم يشعر بضرورة إبلاغ المماليك بالقرارات المتخذة حيث إن إقليم أسوان كان صغيرا وبائسا، وغير كاف لإعاشة القوات والزعماء المماليك (٥٣)؛ ولذا فإنه رحل من الإسكندرية مع القوات فى ١١ مارس ١٨٠٣، مصطحبا معه الحاكم المملوكى الألفى ليستخدمه فى اللحظة المناسبة.

وهكذا فشلت السياسة الإنجليزية، التي كانت تهدف للوصول إلى اتفاق بين الباب العالي والمماليك وتدعيم قوة هذا الفريق الأخير.

٤ - وعند رحيله، ترك الجنرال ستيوارت في القاهرة "وزيراً بريطانياً مقيماً لدى باشا مصر"، وهو الميجور ميسير، مع الأمر بمراقبة نشاط نابليون في مصر ومنع استخدام الباشا أو السلطان لعناصر فرنسية، مع البقاء بعيداً عن قضية المماليك (٥٤). وقد تلقى ضابط مدفعية بقى مع ميسير، من الجنرال تعليمات تفصيلية للدفاع عن ميناء الإسكندرية، التي كان من المقرر أن تكون النقطة الحصينة الرئيسية ضد أى هجوم محتمل لنابليون (٥٥).

كان نشر التقرير الشهير لسياسيائي (٣ يناير ١٨٠١) الذى كشف المخططات الطموحة لنابليون بشأن الشرق الأدنى وخاصة بشأن مصر، قد دفع إنجلترا للاحتفاظ بمالطة (التي كان يتعين عليها بموجب معاهدة أمينز، إعادتها لجمعية الفرسان)، وبالتالي لبدء الحرب من جديد مع نابليون (مايو ١٨٠٣). وكان من المقرر أن تتطلق من مالطة القوات البحرية وقوات الإنزال لحماية مصر أو أى نقطة أخرى فى البحر المتوسط يحاول نابليون التمرکز فيها.

وفى الوقت نفسه كان الجنود الألبان (الأرناؤوط) الغاضبون فى مصر لعدم تقاضيهم أجرهم منذ زمن طويل، قد تمردوا وطردهوا خوسريف، وكونوا بالتالى تحالفاً مع الحكام المماليك لمواجهة الانكشاريين، القادمين لمساعدة خوسريف. وباتحادهم على هذا النحو، احتل الألبان، بقيادة محمد على والمماليك كل مصر باستثناء الإسكندرية (أبريل - يوليو ١٨٠٣)، واقتسموا السلطة فى البلاد (٥٦). كان الباب العالي قد قبل بالأمر الواقع، وعين الباشا الجديد، محمد على، معترفاً بسلطة المماليك (٥٧)، ولكن المماليك لم يقبلوا ذلك ولا حتى الباشا الجديد، الذى بقى فى منصبه حتى ديسمبر ١٨٠٣ (٥٨). وقد قام حاكم مالطة، عن طريق المبعوث الإيطالى (الكابتن فينتشنتسو تابيرنا)، وحكومة لندن، عن طريق الألفى المملوكى، المبعوث من جديد إلى القاهرة، والميجور ميست والقنصل العام الجديد

"لوك"، قاموا بالاتصال من جديد بالحكام المماليك ووعدهم بالتدخل لدى الباب العالي للاعتراف بحقوقهم (٥٩). بعد أن انزعجوا من أن المماليك قد لقوا مساندة القنصل الفرنسي ديليسبس، ولذا فإنهم يمكن أن يشجعوا إنزالا بحريا فرنسيا في مصر.

وقد توجه ديليسبس بدوره نحو الألبان (٦٠) إلا أن الخصومة فيما بينهم، والتوتر مع القوات الألبانية، بقيادة الماهر محمد علي، والاستياء الذي تولد بين السكان بسبب إدارتهم السيئة أدى بالمماليك إلى الدمار. وفي ١١ مارس ١٨٠٤ هاجمت القوات الألبانية المماليك الذين نجحوا بصعوبة في الهروب من القاهرة. وقد أصدر محمد علي فرمانا زائفا يعين خورشيد باشا حاكما لمصر، بعد أن أعيد وضع خوسريف مكانه لمدة ٤٠ ساعة فقط (٦١). وفي أثناء عام ١٨٠٤ احتدمت الحرب الأهلية في مصر؛ في البداية، محمد علي وخورشيد ضد المماليك، وبعد ذلك محمد علي ضد خورشيد والقوات المبعوثة من تركيا. وكانت نتيجة هذه الحرب أن محمد علي عمل على تعيين نفسه باشا للقاهرة (أي لمصر) بمساعدة علماء الدين والقضاء في ١٣ مايو ١٨٠٥، بعد أن اتضح أنه الأقوى والأقدر، حيث وعد بإصلاحات واسعة في الوقت نفسه. وقد قام مندوب من السلطان بالتصديق على هذا المنصب في ٢٤ يوليو التالي (٦٢). وقد اعتبر الـ"ميسر" انتصار محمد علي نجاحا للنفوذ الفرنسي، ولذا فقد توجه من جديد نحو الحكام المماليك وهاجم "الإجراءات الإجرامية" التي استولى بها محمد علي، على السلطة (٦٣). وهناك موقف مماثل اتخذه الباب العالي الذي أجرى مفاوضات مع الألفي، الحاكم المملوكي، الذي كان قد حقق في الشهور الأولى من عام ١٨٠٦ نجاحات ضد القوات الألبانية. وفي ٢ يونيو ١٨٠٦ تم التوصل إلى اتفاق بين ممثل الألفي المملوكي والباب العالي: كان من المقرر أن يعين محمد علي باشا لسوريا، وكان سيأخذ مكانه موسى باشا وهو من مدينة سالونيك، في حين أن المماليك كانوا سيحصلون على بعض الامتيازات (٢ يوليو ١٨٠٦) (٦٤)، ولكن عندما أبلغ الأدميرال الكبير محمد علي بقرارات الباب العالي (٦٥)، فإن هذا الأخير، بمساندة

ونصح من القنصل الفرنسي دورفيتى، اعترض بشدة (٦٦). وبعد أن خلق خلافات بين الزعماء المماليك، وتصرف بمهارة بين علماء الدين والقضاء، أقنع محمد على الأدميرال الكبير باستحالة تحقيق مشروعه. وفي ٢٩ سبتمبر صدق الباب العالي من جديد على تعيينه باشا لمصر (٦٧).

وخرجت السياسة الإنجليزية مهزومة مرة أخرى، فقد فشلت تماما محاولة خلق حكومة مملوكية قوية، موالية لإنجلترا ومعادية لفرنسا، وقادرة على مواجهة أية مشروعات نابليونية محتملة للإنزال في مصر.

ولكن الحقيقة هي أن وزير الخارجية هاروبى منذ الـ ١٩ من أكتوبر ١٨٠٤، على الرغم من عدم موافقته على الاقتراح المقدم للباب العالي بإرسال حامية إنجليزية إلى الإسكندرية، فإنه أعطى تعليماته لستراتون حتى يحذر الباب العالي من أنه فى حالة حدوث تهديد من جانب فرنسا بالقيام بإنزال فى مصر، فإن إنجلترا ستتدخل على الفور، دون انتظار موافقة الباب العالي (٦٨).

٥ - وفى الوقت نفسه أبرمت روسيا فى القسطنطينية معاهدة تحالف مع تركيا (٢٣ سبتمبر ١٨٠٥) بفضل التدخل الفعال للسفير الإنجليزى أربوثنوت، وبعد أن قضى على نفوذ السفير الفرنسى برون فى عام ١٨٠٤، وبموجب هذه المعاهدة دخلت روسيا عمليا لتكون جزءا من التحالف الثالث المناوئ لنابليون، والذى كان يقوم "ببيت" بتكوينه شيئا فشيئا. وقد صدقت المعاهدة من جديد علاوة على ذلك على حق السفن الحربية الروسية فى المرور فى الدردنيل (٦٩). إلا أن خبر انتصار نابليون على الجيوش النمساوية الروسية فى أوسترليتس (٢ ديسمبر ١٨٠٥)، وما أعقب ذلك من إبرام للسلام فى برسبورج (٢٦ ديسمبر) مع التنازل عن دالماتسيا لفرنسا، مما جعلها على اتصال بالأراضى العثمانية، كل هذا قدم مبررات ممتازة لرجال الدبلوماسية الفرنسيين فى القسطنطينية لإبعاد السلطان عن التحالف مع روسيا وإنجلترا وتوجيهه من جديد نحو فرنسا. وهكذا رفض السلطان تجديد المعاهدة مع إنجلترا واتخذ موقفا معاديا تجاه روسيا، واضعا بعض

المصاعب عند مرور السفن الحربية الروسية في الدردنيل، وهو ما تنص عليه معاهدة ٢٣ سبتمبر المذكورة، وألغى في الوقت نفسه امتيازات الرعايا الروس في تركيا (٧٠). وقد تدخل السفير الفرنسي الجديد سيياستياني ليحسم نهائيا موقف السلطان المناوئ لروسيا، فقد أعطاه نابليون توجيهات محددة (٩ يونيو ١٨٠٦) (٧١): إبرام تحالف بين فرنسا والباب العالي وإيران، ونزع الثقة عن روسيا وإغلاق البوسفور أمام سفنها؛ واستعادة السيطرة على فالاكيا ومولدافيا.

كان سيياستياني قد وصل منذ عدة أيام إلى القسطنطينية (١٠ أغسطس ١٨٠٦) عندما وصل الخبر بأن سلاما منفصلا قد تم التوقيع عليه في باريس بين روسيا وفرنسا (وهو ما يسمى بمعاهدة أوبريل في ٢٠ يوليو ١٨٠٦). وقبل أن تبلغ بطرسبرج الباب العالي أن السفير الروسي دوبريل لم يكن مفوضا لإبرام هذا السلام، كان سيياستياني قد استغل الخبر للإيعاز للسلطان بأن روسيا أصبحت خارج القتال ولدفعه لإقالة الـ *gospodar* في مولدافيا وفالاكيا، في انتهاك للاتفاقيات القائمة مع روسيا. وقد حاول السفيران الروسي والإنجليزي بكل السبل العمل على تراجع السلطان عن موقفه. وكانا على وشك النجاح في ذلك، ولكن الحضور اليقظ لسيياستياني، الذي مجد انتصار وقوة نابليون، أحبط كل جهودهما. وعندما لم ترض روسيا بما حدث قامت بغزو مولدافيا وفي ٢٣ ديسمبر ١٨٠٦ أعلن السلطان الحرب على روسيا (٧٢).

وفي الوقت الذي كانت تحدث فيه هذه الأحداث في القسطنطينية، كان نابليون قد أجرى مفاوضات مع إنجلترا وروسيا لإبرام السلام (مارس - سبتمبر ١٨٠٦)، وهي مفاوضات لم تسفر عن شيء بالنسبة لمحاولة نابليون الفصل بين القوتين. وفي تزامن مع هذه المفاوضات، كانت روسيا قد اقترحت على إنجلترا اعتبار اليونان والإمارات السلافية دولا مستقلة مع وضعها تحت سيطرتها. وكانت قد تقدمت بمثل هذا الاقتراح ضد الإمبراطورية العثمانية لتعويض الخسائر التي تعرضت لها في أعقاب معركة أوستيرليتس ومعاهدة بريسيرج. وكان فوكس الذي أصبح وزير للخارجية قد غير موقفه المناوئ لتركيا، ورد بصورة غير مباشرة

على روسيا بأن المصلحة الإنجليزية تقتضى الحفاظ على سلامة الأراضي العثمانية، حيث إن كل استيلاء روسي سيؤدي إلى استيلاء فرنسي آخر في الجنوب وهو الاستيلاء على مصر، وهو أمر لا يمكن قبوله بالنسبة لإنجلترا لأنها ستري فيه تهديدا لطريق الهند. ومع ذلك فإنه في حالة تقسيم تركيا، في رأى فوكس، ستقوم إنجلترا باحتلال الإسكندرية في مصر وكريت (٧٣).

وبعد اندلاع الحرب بين روسيا وتركيا وإغلاق المضائق (١٦ يناير) أصبحت العلاقات بين السفير الإنجليزي والباب العالي متوترة، حتى إن السير أربوثنوت اضطر للهروب على متن سفينة حربية إنجليزية والخروج من الدردنيل (٢٩ يناير ١٨٠٧) (٧٤) ولمساندة الحليفة روسيا، ودون إعلان الحرب، كانت لندن في الوقت نفسه قد أرسلت فرقة بحرية إلى الدردنيل، بقيادة السير دكورت لإجبار تركيا بالقوة على إبرام السلام مع روسيا واستعادة الوضع السابق. وبعد اقتحام ممر الدردنيل وتدمير الأسطول التركي (١٩ فبراير ١٨٠٧) أجرى دكورت وأربوثنوت مفاوضات مع وزير الخارجية التركي، ولكن دون أى نتيجة. ونظرا لأن تركيا، في الوقت نفسه، وبالتعاون مع الفنيين وضباط سلاح المهندسين الذين استدعاهم سياستيانى من دالماتسيا، كانت قد حصنت الساحلين بقوة، فإن السير دكورت اعتبر أن من الممكن القيام بعملية قوة ضد القسطنطينية، على الرغم من إلحاح الأدميرال الروسي الذى وصل بفرقة أخرى؛ ولهذا فقد أصدر الأمر بعبور الدردنيل من جديد والتوجه نحو الإسكندرية في مصر (١٣ مارس ١٨٠٧) (٧٥).

وهناك كان يجرى (١٦ - ١٩ مارس) إنزال قوة من ٦٠٠٠ رجل، بقيادة الجنرال فريزر، التابع للقيادة البريطانية في صقلية. وبعد احتلال الإسكندرية في ٢٠ مارس، تعرض الإنجليز لهزيمة شديدة في رشيد (٣١ مارس). وقد تعرضوا لهزيمة أكبر في المنطقة نفسها في ٢١ أبريل عندما وصل محمد على. وعند إنزال الإنجليز كان محمد على مشغولا في صعيد مصر ضد المماليك، ولكن بعد إبرام السلام معهم، هرع إلى الشمال، بعد أن نصحه أيضا القنصل الفرنسي دروفيتى، القادم من إقليم بيمبونتى، والذي كان على اتصال بسياستيانى في القسطنطينية. وقد

واجه محمد على الإنجليز، وهزمهم في رشيد وأجبرهم على التحصن في الإسكندرية، حيث بقوا حتى سبتمبر، أي حتى تم الوصول إلى اتفاق بينه وبين فريزر للجلاء عن المدينة وتبادل الأسرى (٧٦). وقد فرض الجلاء على السلطات الإنجليزية أيضا لنقص التعزيزات، التي لم يكن من الممكن نقلها من سوريا ولا إرسالها من الوطن الأم. ومع استمرار الحرب مع تركيا، كانت صقلية تبدو أكثر أهمية من مصر؛ ولهذا كان يبدو من الأنسب التخلي عن مصر. وكان الناس في إنجلترا تشعر بمرارة بهزائم القسطنطينية والإسكندرية.

٦ - بعد تكوين حكومة بورتلاند (مارس ١٨٠٧)، فكر وزير الخارجية جورج كانينج في تكرار المحاولة لدى الباب العالي من أجل سلام مع روسيا والقضاء على النفوذ الفرنسي (١٥ مايو ١٨٠٧) (٧٧).

وعندما أبرمت روسيا السلام مع نابليون بوقوفها إلى جانبه وبعد ذلك مع تركيا (هدنة سلوبورزي، ٢٤ أغسطس ١٨٠٧) (٧٨)، قرر كانينج الوصول إلى سلام منفصل مع تركيا، ومساعدتها على الإبقاء على سلامة أراضيها بمساندة الأسطول الإنجليزي والإمداد بالأسلحة والذخائر (٧٩).

وفي تيلسيت، كان نابليون والإسكندر الأول قد اتفقا على اقتسام الأقاليم الأوروبية من تركيا، المطلة على البحر الأسود وبحر إيجه، لأن نابليون أيضا لم يكن يريد السماح بدخول الأسطول الحربي الروسي في البحر المتوسط. وكانت تركيا قد تصورت وجود هذا الاتفاق الفرنسي - الروسي ضدها، ولكن نفوذ سيباستيانى كان هائلا. ولهذا فإن محاولة السلام عن طريق السير باجيه فشلت (٢٠ أكتوبر ١٨٠٧) (٨٠). وفي الوقت نفسه لم تكن تركيا مخطئة في التشكيك أيضا في إنجلترا. ففي الواقع، عندما استؤنفت المفاوضات في عام ١٨٠٨ عن طريق السفير أدير، من أجل المساعدة الواجب تقديمها لتركيا، سبق كانينج في هذا ديزرائيلى، وأعطى تعليمات للسفير للمطالبة (٢٦ يونيو ١٨٠٨) بالامتلاك أو الاحتلال المؤقت بجزيرة أو ميناء في الأرخبيل، مركزا اهتمامه بعد ذلك على كريت، "أفضل عقبة أمام تجمع القوات البحرية لفرنسا وروسيا"، سواء ضد القسطنطينية أو ضد

مصر (٨١). وكان هذا الاختيار فى الحقيقة أفضل من ذلك الذى تقدم به بعد ذلك ديزرائيلى فى عام ١٧٧٨ عندما طالب بقبرص وحصل عليها.

وقد استمرت مفاوضات السلام طوال عام ١٨٠٨. وتم التوقيع على السلام فى ٥ يناير ١٨٠٩ (٨٢). وفى حين لم تحصل إنجلترا على الملكية أو الاحتلال المؤقت لآى جزيرة، فإنها قبلت الاعتراف "بالقاعدة القديمة للإمبراطورية العثمانية" (٨٣) بشأن حظر دخول السفن الحربية الأجنبية المضائق، ووعدت، فى بند سرى بـ ٣٠٠٠٠٠ جنيه استرليني لتركيا إذا دخلت الحرب إلى جانبها ضد نابليون. ومن خلال الإمبراطورية العثمانية استطاعت العديد من المنتجات الاستعمارية الإنجليزية دخول أوروبا، وأفلتت هكذا من الحصار المضاد لنابليون.

وجدير بالذكر أن السلطان سليم الثالث تمت تـحيته فى ٢٩ مايو ١٨٠٧ فى أعقاب ثورة. ولفترة تزيد قليلا عن العام تولى منصبه ابن عمه مصطفى الرابع. ثم أعلن محمود الثانى سلطانا، فى أعقاب ثورة أخرى (٢٨ يوليو ١٨٠٨).

ويجدر بنا أن نوضح، علاوة على ذلك، أن كانينج، فى إعطائه للتعليمات الموجزة للسـير أدير، كان أيضا قد صاغ السياسة البريطانية بشأن الحفاظ على سلامة أراضي الإمبراطورية العثمانية، وهى سياسة سـيـتبعها بعد ذلك الذين سيخلفوه، باستثناء انتهاكها لصالح بريطانيا. وفى الوقت نفسه كان كانينج نفسه قد عنى فى تعليماته بأن قال لأدير أن يتجنب أى التزام فى الاتفاق يمكن أن يعنى "ضمانا رسميا بسلامة الأراضي العثمانية". وقد كان التزام "بيت" فى عام ١٧٩٩ الأول والأخير من هذا النوع. ومن كانينج فصاعدا، دافعت السياسة البريطانية عن مبدأ سلامة الأراضي العثمانية ضد كل من يمكن أن يلحق الضرر بأوضاعها، وقد انتهكت هذا المبدأ فى كل مرة كان هذا مناسبا لها. وفى عام ١٨٠٨، تجنب كانينج إعطاء ضمان إنجليزى لأنه "كان قد شعر بأنه لم يكن بوسعـه ضمان مصر" (٨٤)، أى من الاحتلال البريطانى، لو كان هذا ضروريا فى حالة حدوث غزوات روسية أو فرنسية للأراضي العثمانية.

٧ - فى السنوات التالية مباشرة لجلاء القوات الإنجليزية عن الإسكندرية (١٨٠٨ - ١٨١٢) كانت لمصر أهمية من أربع جهات نظر (٨٥):

أولا - الموقف الداخلى، أى العلاقات بين محمد على والمماليك.

ثانيا - خطة نابليون لغزو مصر من جديد.

ثالثا - العلاقات بين محمد على وإنجلترا.

رابعا - العلاقات بين محمد على وتركيا.

وقد قيل من قبل أنه لحظة الإنزال الإنجليزي فى الإسكندرية (مارس ١٨٠٧) كان الباشا فى حرب مع المماليك فى صعيد مصر. ولو أن الإنجليز نسقوا عملهم مع هؤلاء، لوجد محمد على نفسه فى موقف سيئ، وربما مميت. وخوفا من احتمال تكرار هذا الخطر، قرر الباشا التخلص نهائيا من خصومه، بعد أن حاول التوصل إلى اتفاقيات أو الفصل بين مختلف الزعماء عن طريق الهدايا والوعود. وهكذا هاجم زعماء المماليك فى الفيوم بقوات هائلة فى أغسطس ١٨١٠، وهزمهم هزيمة منكرة. ونظرا لأن بعض الباقين على قيد الحياة استأنفوا التآمر ضده، فقد استدرجهم محمد على إلى كمينين فى القاهرة (١ مارس ١٨١١) وإسنا (مايو ١٨١٢) وقتلهم جميعا. وقد انتهت القضية المملوكية نهائيا بهذه الأساليب السريعة (٨٦).

وفى الشهور الأولى من عام ١٨٠٨ فكر نابليون فى خطة لإعادة غزو مصر.

وقد نصح قيصر روسيا نفسه نابليون باحتلال سوريا ومصر، حيث كان يريد تنفيذ خطة تقسيم الإمبراطورية العثمانية التى ناقشها الزعيمان فى تيلسيت (٨٧). وقد كان نابليون، بدوره، بالخطاب الشهير فى ٢ فبراير ١٨٠٨، يحاول أن يدفع القيصر نحو الهند (٨٨). ويبدو أن إنجلترا كانت على علم بهذه المشروعات، إذا كانت فى فبراير ١٨٠٨ قد أبلغت محمد على مسبقا، عن طريق قنصلها، بالإنزال الفرنسى على سواحل مصر (٨٩).

وفى مايو ١٨٠٨ فكر نابليون فى حملة متزامنة ومزدوجة ضد الهند وضد مصر وأعطى أوامره فى هذا الشأن لوزير البحرية (١٣ و ٢٦ مايو) (٩٠). ولكن شئون إسبانيا والحرب الجديدة ضد النمسا أثتته عن مثل هذا المشروع. وقد عاد إليه فى ١٨١٠، حتى إنه أعطى تعليماته (١٥ يوليو) لبناء أسطول صغير للنقل فى البحر المتوسط ومطالبة القناصل الفرنسيين (٣١ أكتوبر و ٦ ديسمبر) بأخبار عن الوضع السياسى والاقتصادى والعسكرى لسوريا ومصر. وفى اللحظة المناسبة، أرسل إلى هذه الأقاليم أيضا ضابطين، أنيرسيا وألبوتان. وكان نابليون يخطط لتنفيذ الحملة ضد مصر (١٧ سبتمبر ١٨١٠ و ٨ مارس ١٨١١) (٩١). ومن القاهرة، كان القنصل دروفيتى والكولونيل بونتان يخبرانه (٥ يونيو ١٨١١)، ولكن ربما دون دقة كبيرة، بأن محمد على لن يستطيع الوقوف فى وجه غزو فرنسى؛ بل إنه، فى رأيهم كان يقوم بدراسة خطط للانسحاب، مع اعتماده على مساندة إنجلترا فى مثل هذا الاحتمال (٩٢).

إلا أن الأمور سارت بصورة مختلفة ولم يستطع نابليون تحقيق مشروعه؛ وهذا بصفة خاصة لأن التحالف الفرنسى - الروسى لم يدم طويلا. وفى أبريل ١٨٠٩، وبعد فشل المفاوضات لإبرام السلام بعد هدنة سلوبودزى، كانت تركيا قد شنت الحرب من جديد على روسيا (٩٣). وقد أعادت الخلافات مع نابليون، وخاصة فى تطبيق الحصار القارى، أعادت روسيا إلى إنجلترا. وبفضل التدخل الماهر للسفير البريطانى فى القسطنطينية، ستراتفورد كانينج البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما، والذى أحبط محاولة للسفير الفرنسى، الذى ساندته السفير البابوى للنمسا، التى أصبحت حليفة الآن لنابليون، لجذب تركيا لصفها، قبل الإسكندر الأول مطالب السلطان (إعادة مولدافيا وفالاكيا وصربيا) وأبرم السلام معه (معاهدة بوخارست، ٢٨ مايو ١٨١٢) (٩٤).

وفى ١٨ يوليو ١٨١٢، أبرمت روسيا أيضا معاهدة سلام وتحالف (٩٥) مع إنجلترا، بعد أن كانت بعض الأعمال العدائية قد بدأت فى يونيو. وفى اليوم نفسه أبرمت أيضا معاهدة سلام وتحالف بين إنجلترا والسويد (٩٦)، اللتين كانتا فى حالة حرب من نوفمبر ١٨١٠. وهكذا تكون التحالف السادس ضد نابليون.

وأصبحت العلاقات بين محمد علي وإنجلترا، بعد عام ١٨٠٧، وثيقة جدا لسببين:

أولاً: لأن إنجلترا جعلت من مصر المركز الرئيسى للإمداد لمالطة (وخاصة من القمح)، مع ميزة كبيرة لمحمد علي، الذى طلب دفع ثمن باهظ لمنتجاته، التى لم يكن من الممكن فى الوقت نفسه تصديرها إلى فرنسا (٩٧)، نتيجة لفاعلية الحصار الإنجليزى؛ ثانياً: لأنه كان يعتمد على مساندة إنجلترا للحصول على استقلال مصر عن تركيا وتنازل تركيا عن ولاية سوريا (٩٨)، وبعد ذلك أيضاً ولاية درنة فى أعقاب زواجه من ابنة حاكم درنة (٩٩). والحقيقة هى أنه فى أثناء عام ١٨١٠ وبالذات عندما كان يلوح فى الأفق تهديد الغزو الفرنسى، أعرب محمد علي عن عدائه تجاه إنجلترا وبحث عن المساعدة الفرنسية لتحقيق استقلاله (١٠٠)، ولكنها كانت ظواهر عابرة. وفى عام ١٨١١ استند صراحة إلى إنجلترا، وفى هذا العام عين قنصلاً عاماً إنجليزياً الكولونيل ميست، الذى كان قد شارك من قبل فى الحملة ضد نابليون (١٠١). وفى يوليو من عام ١٨١٦ وقع الإنجليز على معاهدة تجارية مفيدة مع مصر عن طريق القنصل الجديد سولت (١٠٢).

ويجب أن نذكر هنا الحملات المصرية فى الجزيرة العربية فى السنوات ١٨١١ – ١٨١٨، فى إطار تاريخ مصر وعلاقاتها مع حكومة القسطنطينية والعالم الإسلامى المحيط بها.

وبعد أن حصل من الباب العالى فى عام ١٨٠٩ على تكليف بقمع الثورة الوهابية فى الجزيرة العربية (١٠٣)، نظم محمد علي حملة (١٠٤) وعهد بقيادتها لطوسون باشا، الذى احتل ينبع، وميناء المدينة، فى سبتمبر ١٨١١ ولكنه تعرض لهزيمة منكرة فى ممرات بدر الضيقة، فى كمين وهروب بعض القادة. وقد تصرف محمد علي آنذاك بمنتهى القوة؛ فاستدعى إلى القاهرة مختلف القادة، عهد بقواتهم للقيادة المباشرة لطوسون. وعند استئناف الهجوم، احتل طوسون المدينة فى نوفمبر ١٨١٢، ومكة فى يناير ١٨١٣، ولكنه تعرض لهزيمة جسيمة على أيدى

الوهابيين فى القنفذة (مارس ١٨١٤). فى يناير من عام ١٨١٥ تولى محمد على بنفسه قيادة القوات، فاحتل الطائف والترابة والقنفذة. وفى عام ١٨١٦، أعدت حملة أخرى بقيادة إبراهيم، ابن محمد على. فهاجم الوهابيين بقوة، وتغلغل فى نجد وفى ٩ سبتمبر ١٨١٨ احتل الدرعية عاصمة الوهابيين. ونقل ملكهم، عبد الله إلى القسطنطينية وقطعت رأسه. وقد رفعت النجاحات التى تحققت فى سبع سنوات من الحرب فى الجزيرة العربية من مكانة محمد على بصورة هائلة وشجعت خططه وطموحاته. ويبدو أنه فكر أيضا فى غزو اليمن، ولكن إنجلترا أثنته عن ذلك (١٠٥).

وبعد إخضاع الجزيرة العربية الوهابية، وجه محمد على اهتمامه إلى السودان (١٨٢٠ - ١٨٢٣)، ولكننا سنتحدث عن هذه العملية فى دراسة مستقلة.

٨ - بعد عمليات الجزيرة العربية والسودان، كرس محمد على نفسه للتنظيم الإدارى والعسكرى والتنمية الاقتصادية لمصر. وبالتعاون مع ضباط فرنسيين ماهرين - مثل الكولونيل سيف (المعروف باسم سليمان باشا) والجنرال بوير (١٠٦) - وإيطاليين (١٠٧)، نجح الباشا فى خلق كوادى وقوات من الطراز الأول، فأصلح تنظيم الجيش، مما أدى إلى ثورة فى الإسكندرية فى مارس ١٨٢٤ (١٠٨). وقد امتد نشاطه الإصلاحى إلى كل المجالات تقريبا، من المجال الإدارى (بإنشاء الإدارات الإقليمية واستبدال الموظفين) إلى المجال الاقتصادى وخاصة فى مجال إنتاج وتصدير القطن (١٠٩).

وكمكافأة قدم السلطان لمحمد على ولاية دمشق، ولكنه رفضها بعد ذلك، ويبدو تحت ضغط من خصمه القديم خوسريف، الذى كان قد طرده من القاهرة (١١٠). وكانت طموحات الباشا تتجاوز ذلك بكثير، فقد كانت تتعلق بولايات سوريا وموريا. وقد سنحت الفرصة المواتية فى يناير ١٨٢٤ عندما منحه السلطان ولاية موريا بشرط محاربة المتمردين اليونانيين (١١١). وقد قبل محمد على التكليف عن طيب خاطر لأنه رأى فيه فرصة جميلة لكى يظهر للعالم أجمع قوة

دولته الشابة، وأن يظهر للقاصي والداني تفوقه على الباب العالي، ويحاول الإفلات من سيطرته بالخدمات المقدمة، وتنظيم ولاية موريا، ووضع نشاط اليونانيين في خدمة مصر، بالسيطرة على جنوب أوروبا وتحويل البحر المتوسط الشرقي إلى بحيرة مصرية" (١١٢).

وأعد محمد علي حملة لغزو موريا، بقيادة ابنه إبراهيم (١١٣). وبعد رحيلها من الإسكندرية في ١٩ يوليو ١٨٢٤، عملت هذه الحملة في البداية تحت الأوامر المباشرة للأدميرال الكبير التركي، وهو خوسريف نفسه الذي سبق نكره، الذي تعرض لخسائر جسيمة على أيدي البحرية اليونانية بالقرب من رودس وسامو (أكتوبر)، وعندئذ توقف في كانديا لكي ينزل بعد ذلك في مودون بالقرب من نافارينو في موريا (فبراير ١٨٢٥) (١١٤). وفي تلك الأثناء كان أسطول خوسريف يتعرض لخسائر جسيمة (يوليو ١٨٢٥) (٧)، وقام إبراهيم خلال عام ١٨٢٥ — ١٨٢٦ بغزو كل موريا تقريبا بما في ذلك قلعة نافارينو (٨١ مايو ١٨٢٥) وميسولونجي (٤٢ أبريل ١٨٢٦) (١١٥).

وقد حدثت هجمات من سفن حربية يونانية لميناء الإسكندرية في أغسطس ١٨٢٥ وفي يونيو ١٨٢٧، ولكن دون نجاح، كما كانت هناك لم يكتب لها النجاح أيضا للإنزال في سوريا في أبريل ١٨٢٦ (١١٦).

وفي الوقت نفسه كانت هناك مصالحة بين محمد علي وخوسريف في أغسطس ١٨٢٥. وفي أكتوبر تلقى الباشا من السلطان فرمانا بالتعيين رئيسا للوزراء في الإمبراطورية مع الوعد بالتعيين مرة أخرى كوال لدمشق (١١٧).

وقد كان محمد علي مسرورا من ذلك ومرت في ذهنه مشروعات كبيرة: حتى المشروع النابليوني بمهاجمة إنجلترا في الهند بوضع قاعدته في دمشق (١١٨). ولكن الخصومة بين محمد علي وخوسريف، وتدخل الدبلوماسية الأوروبية (البروتوكول الإنجليزي — الروسي في ٤ أبريل ١٨٢٤، والمعاهدة الروسية — التركية في فبراير ١٨٢٦) والأسطول الإنجليزي (الأدميرال كوشرين)

لصالح اليونان والسلوك المتردد لفرنسا، كل هذا منع إبراهيم ومحمد علي من تحقيق كل مزايا انتصار ميسولونجى. وفي الحقيقة، كانت إنجلترا قد حاولت أيضا إبعاد محمد علي عن موريا، وبالتالي عن أوروبا، بتشجيعه لتنفيذ مخطمحه بشأن سوريا. حتى إن فرنسا نصحتة بإعلان استقلال مصر عن الباب العالي. ولكن إعلان الاستقلال كان سيشعل الحرب مع تركيا، علاوة على عداء إنجلترا. ولهذا عاد محمد علي لفكرته المفضلة فى تحالف إنجليزى - مصرى، مفيد لكلا الطرفين. وكان علي إنجلترا أن تساند وتضمن الاستقلال المصرى. وكانت مصر ستصبح حليفا جيدا لإنجلترا المهمة بخطوط الاتصال مع الهند (١١٩). وبسبب هذه المباحثات ترك محمد علي إبراهيم دون نشاط وآخر إرسال حملة جديدة (١٢٠). ولكن المهمة الخاصة لبروكسن أوستن (أكتوبر ١٨٢٦) باءت بالفشل (١٢١).

وفى يناير ١٨٢٧، قرر السلطان استبدال خوسريف كأدميرال كبير وتعيين محمد علي قائدا عاما لكل القوات فى البحر والبر فى الإمبراطورية العثمانية ضد اليونان. وقد سلم الفرمان الخاص بذلك فى ٢٤ مارس ١٨٢٧ (١٢٢). وبعد أن تحمس محمد علي للمنصب، فكر علي الفور فى مشروعات كبيرة؛ الأمر بتجنيد ١٥ ألف رجل آخرين، وقيادة فرقة بحرية لنقل الحرب للأرخبيل والمساعدات لابنه فى موريا (١٢٣). وفى شهرى أبريل ومايو وصلت إلى الإسكندرية الفرقاطات والسفن الحربية، والمصنوعة فى مرسيليا وليفورنو علاوة على الأسطول التركى المصرى الخاص بالإمداد من نافارينو بناء على أمر منه (١٢٤). إلا أن التعيين المفاجئ لخوسريف كوزير للحربية (يونيو ١٨٢٧) كان له انعكاس قوى على روح محمد علي، حتى إنه لم يعد يعبأ إطلاقا بمشروعاته (١٢٥)، حتى إنه بدا ميالا لتنفيذ المقترحات الإنجليزية - الفرنسية فى التمرد على الباب العالي، بإعلان استقلاله وسحب قواته من اليونان. وقد أحبط رفض القوتين إعطاء ضمانهما للدولة المصرية الجديدة نوايا محمد علي (١٢٦) الذى سارع بالاستعداد للحملة.

وقد كان مدفوعا أيضا من القنصل النمساوى، الراغب فى هزيمة

اليونانيين (١٢٧). وفي أغسطس ١٨٢٧ رحل الأسطول المصري، الذي كان يضم تسعا وثمانين وحدة، من الإسكندرية ووصل إلى نافارينو في سبتمبر.

وبمعاهدة لندن في ٦ يوليو ١٨٢٧، كانت روسيا وفرنسا وإنجلترا قد قررت في الوقت نفسه الاعتراف بالحكم الذاتي لليونان تحت حكم السلطان، وبالتالي ضرورة السلام بين تركيا والمتمردين وإرسال فرقها إلى مياه موريا لفرض الحصار. وقد أقرت المعاهدة التوجه المناوئ لتركيا. والمناوئ لمصر من جانب القوى الثلاث. وقد أظهر مترنيخ عداؤه لمصر أيضا (١٢٨). وعلى الرغم من هذا فقد أرسلت إنجلترا الكولونيل كرادوك إلى محمد علي لحثه مرة أخرى على أن يستقل بنفسه عن الباب العالي، ولكنها امتنعت عن إعطائه أي ضمان بالمساندة (أغسطس ١٨٢٧) (١٢٩).

وفي ٢٥ سبتمبر، فرض الأدميرال كودرينجتون، باسم الأميرالين الفرنسي والروسي أيضا، وقف تقديم السلاح لإبراهيم. وقد قبل هذا الأخير لمدة شهر انتظارا للحصول على أوامر من السلطان ومن والده (١٣٠). إلا أن الأدميرالات الثلاثة، بذريعة أن القوات المصرية استمرت في القيام بأعمال عنف ضد اليونانيين، قرروا نقل أساطيلهم إلى داخل خليج نافارينو ومراقبة تحركات إبراهيم عن كثب، وكان جانبا من أسطوله قد خرج من الخليج لعرقلة تحركات السفن اليونانية بقيادة الإنجليزى كوشرين.

وفي هذه الأثناء دخلت الفرق الخليج، وأطلقت بعض طلقات البنادق ضد مركب إنجليزى. وقد أشعل هذا معركة نافارينو، التي هاجمت فيها أساطيل الأمم الأوروبية الثلاث، بقيادة الأدميرال كودرينجتون الأسطول التركى المصرى ودمرته (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) (١٣١).

كانت الضربة قاسية بالنسبة لمحمد علي؛ حتى إنه فى النهاية نصح الباب العالي بقبول شروط القوى الكبرى (١٣٢)، ولكنه سرعان ما استعاد قوته وواجه الموقف بواقعية. وبقبوله نصائح فرنسا، بعد أن أبدى بعض المقاومة (١٣٣)، وقع

على اتفاق مع الأدميرال الإنجليزي كودرينجتون (١٠ أغسطس ١٨٢٨) (١٣٤)، الذي التزم معه بسحب قوات إبراهيم من موريا لنصف أسطوله، الذي سيرسله إلى نافارينو. ولم يكن التهديد بالحصار ضد إبراهيم وضده بواسطة الأسطول الإنجليزي غريبا عن قرار الباشا. وفي سبتمبر - أكتوبر ١٨٢٨ عادت بقايا القوات المصرية إلى الإسكندرية مع قائدها. ولكن تركيا لم ترغب في قبول نصائح محمد علي والقوى الأخرى في الاعتراف بالاستقلال وإبرام السلام. وقد عمدت روسيا عندئذ إلى فرض هذه النصائح بقوة السلاح وأعلنت الحرب على تركيا (٦ مايو ١٨٢٨). ولم تفتأ هذه الحرب أن خلقت مصاعب ومخاوف جديدة لمحمد علي، الذي طالبه السلطان بتقديم المساعدات من الرجال والعتاد والمال (١٣٥). وفي مقابل المساعدة المقدمة، رأى الباشا التصديق على سلطاته في مصر (يونيو ١٨٣٠) وحصل على حكم جزيرة كريت (١٧ أغسطس ١٨٣٠) (٢). ولكن مطامحه، التي ضربت في موريا، كانت تتجه الآن بصورة حاسمة إلى سوريا (١٣٦).

٩ - كان سلام أدريانوبولي (٤١ سبتمبر ١٨٢٩) قد وضع نهاية للحرب الروسية التركية بقبول الطلبات الروسية (إمارات مستقلة، وتنازلات عن الأراضي على البحر الأسود) (١٣٧). وكان بروتوكول لندن في ٣ فبراير ١٨٣٠ قد اعترف بوجود يونان مستقلة.

ولكن هذه الاتفاقيات لم تكن قد حلت قضية الشرق، التي استمرت في البقاء على خطورتها، لأن سلام أدريانوبولي كانت تعتبره إنجلترا، التي كانت مشغولة جدا بسياسة الحفاظ على سلامة أراضي الإمبراطورية العثمانية، بمثابة ضربة قوية لهذه السلامة وبالتالي لأمن طريق الهند. ومن ناحية أخرى كانت المكائد الروسية في اليونان وبلاد ما وراء النهرين (١٣٨)، بتهديدها هذا الطريق مباشرة، كانت تؤثر بقوة على إنجلترا.

إلا أن القيصر نيقولا الأول، بعد يومين من التوقيع على معاهدة أدريانوبولي، مقتفيا آثار بولس الأول (١٣٩) قبل المقترحات التي صاغتها لجنة

خاصة من سبعة أعضاء، ولذا فقد كان من المناسب تغيير السياسة التقليدية لروسيا تجاه الإمبراطورية العثمانية، التي كان يدعمها بنشاط ويتبعها بطرس الأكبر وكاترين، مع تشكيلها طبقا لمعيار جديد مخالف تماما: الحفاظ على سلامة تلك الإمبراطورية (١٤٠). وطبقا لتلك اللجنة، كان يمكن لطرد الأتراك من أوروبا أن يؤدي قبل كل شيء إلى تعزيز للقوة التركية في آسيا وبالتالي خلق اضطرابات للعمل الروسى فى القوقاز؛ ثانيا، كان أى تفكيك للإمبراطورية العثمانية سيسير فى صالح النمسا (البوسنة وألبانيا والجبل الأسود)، وفرنسا (مصر) وإنجلترا (كريت وجزر بحر إيجه). وهكذا كانت روسيا ستصبح محاطة بثلاثة جيران أقوى بدلا من واحد ضعيف، بينما سيصبح بوسع إنجلترا وفرنسا المطالبة بالوصول إلى البحر الأسود. ولذا فقد كان على السياسة الروسية أن تتجه من الآن فصاعدا لتغلغل تدريجى وسلمى للإمارات، فى اليونان وفى آسيا.

ونظرا للتباعد الذى نشأ بين إنجلترا وروسيا، لم يبلغ القيصر هذه التوجيهات الجديدة لإنجلترا، التى استمرت فى مخاوفها وشكوكها نحو الخطط الروسية المزعومة للتقدم فى البحر المتوسط وفى آسيا الوسطى.

ولكن المناسبة لم تتأخر فى المجيء لتكشف السياسة الجديدة لروسيا وكانت هذه هى حرب محمد على ضد السلطان. وربما أدى نجاح باشا مصر، وربما تنصيبه نفسه فى القسطنطينية إلى بداية تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، ولذا كان سيلحق الضرر بالمصالح الروسية. ولم يكن بوسع روسيا، فى الوقت نفسه عدم مساعدة تركيا ضد الباشا المتمرّد (١٤١).

وكان رأى نفسه، بعد بعض التردد، عند الحكومة الإنجليزية الجديدة بزعامة جري — بالمرستون (١٨٣٠ — ١٨٣٤)، التى خلفت الحكومة المحافظة بزعامة ويلينجتون — أبردين (١٨٢٨ — ١٨٣٠)، التى لم تستطع بسياستها المتأرجحة والضعيفة منع الحرب التركية الروسية (١٨٢٨ — ١٨٢٩) ولم يكن لها خط ثابت بشأن قضية الاستقلال اليونانى وتوسيع الدولة اليونانية الجديدة لأنه كان

يسيطر عليها التعلق بمبدأ سلامة الإمبراطورية العثمانية تارة والرغبة فى خلق عقبة أمام روسيا بتكوين يونان كبيرة وقوية تارة أخرى. ولم ينتقد جرى وبالمرستون حتى بعنف ويلينجتون وأبردين لأنهما لم يحصلوا من فرنسا على الالتزام بعدم احتلال الجزائر، الإقليم العثمانى. وخوفا من أن تتمكن فرنسا من احتلالها للمغرب وتونس بالتعاون مع محمد على، الذى كان سيحتل ليبيا فى مقابل ذلك، أسرع بالمرستون بالإعلان عن أن إنجلترا لن تسمح بمزيد من الاستقطاعات من أراضى الإمبراطورية العثمانية، وأنها مستعدة لخوض حرب من أجل سلامة هذه الأراضى. ولم تكن إنجلترا ستسمح أبدا بوجود تفوق فرنسى — مصرى فى البحر المتوسط، على طول طريق الهند (١٤٢).

وعلى الرغم من هذه الهجمات على أسلافه لأنهم سمحوا بأن تنتزع أراض فى أوروبا وآسيا وإفريقيا من سيادة السلطان فإن بالمرستون لم يبرهن على أنه مدافع جيد عن سلامة الإمبراطورية العثمانية، حيث كانت تحركه فقط المصالح الإنجليزية، وليست مصالح الإمبراطورية العثمانية، عندما فكر محمد على فى خطة لغزو سوريا والاستقلال عن السلطان. ولم يفت محمد على التمهيد دبلوماسيا أيضا لعملية الطموحة هذه. ومع قلقه من نتائج الحملة الفرنسية فى الجزائر، واعتقاده بأن فرنسا، التى أصبحت مشغولة بالكامل فى هذه الحملة، لن تستطيع تقديم أى مساعدة، توجه الباشا إلى إنجلترا، محاولا الاعتماد على العداء التقليدى لإنجلترا ضد المشروعات الفرنسية والروسية فى البحر المتوسط. وقد اقترح فى الوقت نفسه على القنصل الإنجليزى بىكر أن يقيم "تحالفا حميما وصداقة وثيقة بين مصر وإنجلترا"، ولكن دون أى نجاح، كما لم يحالف النجاح المحاولات التالية (٢٢ يونيو و ٨ يوليو) (١٤٣). وهذا لأن إنجلترا كانت معادية لظهور قوة مصرية فى البحر المتوسط، وكذلك لظهور قوة فرنسية — روسية. ولهذا السبب الأساسى، بقى بالمرستون بعيدا عن الصراع التركى — المصرى فى ١٨٣١ — ١٨٣٣. وقد رفض باشا سان جوفانى داكرى، الذى يسانده السلطان، منع الهجرة السرية لرعايا

وبضائع مصر إلى إقليمه (١٤٤). وأعطى هذا الذريعة لمحمد على لتنفيذ مخططاته (مايو ١٨٣١).

ودون أن يتلقى أى تصريح أو استشارة من الباب العالى (١٤٥) ولكن معلنا عن رغبته فى الولاء للسلطان بشرط ألا يعرقل هذا الأخير مشروعاته، وفى هذه الحالة سيسير أيضا ضده (١٤٦)، أرسل محمد على إلى سوريا حملة قوامها ٦٢٠٠٠ رجل، بقيادة ابنه إبراهيم. وبعد احتلال يافا (٨ نوفمبر ١٨٣١)، فرض إبراهيم الحصار على قلعة سان جوفانى داكرى، التى لم يكن نابليون قد نجح فى اقتحامها (ولكن الحقيقة هى أن الأسطول الإنجليزى كان قد تدخل آنذاك). وبالتعاون مع الأمير بشير فى جبل لبنان ومهندسين إيطاليين مهرة، نجح إبراهيم فى اقتحام القلعة، بعد هجمات متكررة وبعد ستة أشهر من الحصار (٢٦ نوفمبر ١٨٣١ – ٢٧ مايو ١٨٣٢).

وفى الوقت نفسه، كان السلطان قد حاول التوصل إلى اتفاق مع محمد على (١٤٧). ولكن تهديد هذا الأخير بمهاجمة السلطان لم يقبل طلبه بالولاية على سان جوفانى داكرى واحتلال طرابلس واللاذقية (مارس – أبريل ١٨٣٢) أغضب السلطان الذى أعلن الباشا متمردا فى ١١ مايو وشن عليه الحرب (١٤٨). وبعد انتصار سان جوفانى داكرى، طلب محمد على من السلطان إبرام السلام بشرط الحصول على ولايتى داكرى وطرابلس (١٤٩)؛ ولكن هذه المحاولة للتسوية فشلت أيضا سواء للاختلاف الكبير فى وجهات نظر المتخاصمين أو بسبب الموقف المختلف لفرنسا، المؤيد لمحمد على بصفة عامة وإنجلترا المؤيدة للسلطان (١٥٠).

وبينما كانت تجرى هذه المباحثات، واصل إبراهيم تقدمه المظفر فاحتل حمص وحلب وبيلاى فى شهر يوليو ١٨٣٢. ولم تقبل تركيا اقتراحا جديدا للاتفاق تقدم به محمد على فى ٢١ أغسطس ١٨٣٢ (١٥١)، وخاصة لأن الباشا كان قد هدد بتنحية السلطان والاستيلاء على القسطنطينية (١٥٢).

ولكن أمام نجاحات إبراهيم ومخططاته ومخططات والده الطموحة، بدأ القلق

يساور إنجلترا وفرنسا ونصحنا محمد على بالعمل بحذر، مما أوقع الباشا في حيرة شديدة (١٥٣). ولكن هذا الأخير استسلم لضغوط الابن في مواصلة الحرب. وفي ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ حدث صدام شديد في قونيه بين القوات المصرية والتركية، انتهى لصالح الفريق الأول. وقد أسر رئيس الوزراء نفسه (١٥٤).

وربما تذكر السلطان وعود المساعدة التي قطعها ستراتفورد كانينج على نفسه صراحة تقريبا، بعد أن كان في مهمة خاصة في القسطنطينية من نوفمبر ١٨٣١ إلى أغسطس ١٨٣٢ (١٥٥)، وعندما طلب من لندن (٣ نوفمبر ١٨٣٢) المساعدة البحرية الإنجليزية ضد الباشا المتمرد، تأخر بالمرستون في الرد، على الرغم من أن الهزيمة الجسيمة التي تعرضت لها القوات التركية في قونيه مكنت إبراهيم من الاستيلاء على أضنه وتشيليتشا وقدمت له إمكانية التقدم نحو القسطنطينية. وعلى الرغم من أنه كان يميل في البداية للتدخل، عندما رد في ٧ مارس ١٨٣٣، فإنه أنكر على السلطان طلب المساعدة واعداء إياه فقط بمساندة دبلوماسية (١٥٦) ولكن بعد فوات الأوان.

وفي ٢٢ ديسمبر ١٨٣٢ كان قد وصل إلى القسطنطينية في مهمة خاصة الجنرال مورافييف المكلف من حكومته بتقديم مساندة الأسطول الروسي في البحر الأسود للسلطان ضد محمد على (١٥٧). وتحت ضغط هزيمة قونيه، قبل السلطان على عجل الدعوة الروسية وسمح لمورافييف بالذهاب إلى الإسكندرية، ولكنه بعد ذلك، وتحت ضغط وزرائه المتذكرين للعداوة التقليدية التركية الروسية والخائفين من المخاطر التي يمكن أن تتجم عن المساعدة الروسية، قرر التخلي عن هذا والتباحث مباشرة مع محمد على. وهكذا أرسل إلى الإسكندرية خليل باشا وقد كلف بأن يقدم لمحمد على ولايتي أكرى ودمشق (٨ يناير ١٨٣٣) (٣). وفي اليوم نفسه، كتب المكلف بالأعمال الفرنسية فارين لمحمد على وإبراهيم ودعاهما لمساندة التعليمات الجيدة للسلطان (١٥٨). وفي الوقت نفسه ركزت حكومتا لندن وباريس على الإجراءات الواجب اتخاذها (١٥٩). وكان يبدو أن الأمور تتحسن وحل الصراع بين الباب العالي والباشا كان يلوح في الأفق، إلا أن إبراهيم، عند تلقيه

ثلاث رسائل (تركية وفرنسية وروسية) تخبره بقرارات الباب العالي بإبرام السلام مع والده، فسر هذا على أنه الدليل على أن الإمبراطورية العثمانية قد أصبحت في حالة اندثار نتيجة للانتصارات المصرية. وفي ٢٠ يناير، تصرف من تلقاء نفسه وواصل المسيرة إلى الأمام. وفي لحظة من الكبرياء غير المحدود ودون التنبؤ بردود أفعال القوى الأوروبية، فكر في أن يضم لمصر الأناضول وقبرص وتونس وليبيا (١٦٠). وكانت نتيجة الحركة المندفعة لإبراهيم أن أعادت السلطان لفكرة قبول العرض الروسي (٢ فبراير ١٨٣٣)، حتى قبل عودة مورافيف، وخاصة أن إنجلترا لم تكن قد ردت على طلبه للمساعدات وكانت القوات التركية، في كيوتاهيا بالفعل. وفي ٢٠ فبراير، كانت فرقة بحرية روسية تضم ٢٠ ألف رجل عند البوسفور، مستعدة للدفاع عن القسطنطينية من أي هجوم لإبراهيم. وفي أبريل وصلت فرقة أخرى أنزلت ٦ آلاف رجل.

وحتى إذا كانت روسيا تعتقد أن ضعف تركيا من حرب على الحدود مع محمد على مفيد لأهدافها، فإنها مع ذلك كانت معترضة على تفكيك أوصال تركيا، طبقا للقرارات المتخذة في ١٦ سبتمبر ١٨٢٩، ولهذا تدخلت لصالح تركيا ضد التابع المتمرد (١٦١).

وأمام القرار الروسي، تحركت إنجلترا للتدخل بقوة، في اتفاق مع فرنسا، مع تهديد محمد على بحصار ميناء الإسكندرية إن لم يبرم السلام مع السلطان. وقد أرسل محمد على فورا الأمر لابنه بالتوقف حيث وصل (٢٦ يناير ١٨٣٣). وقد وصل الأمر في ١٠ فبراير ونفذ (١٦٢). ولكن إنجلترا وفرنسا كانتا تريدان الحصول على السلام بأي ثمن وإبعاد القوات الروسية. وبعد مباحثات طويلة وغير سهلة، قام بها في الإسكندرية السفيران روسان وماندفيل، وفي الإسكندرية القنصل الإنجليزي كامبل والمبعوثان غير العاديين الفرنسي بوازلكومت والنمساوي بروكسن - أوستن (١٦٣)، وقع المتحاربان على سلام كيوتاهيا (٥ مايو ١٨٣٣). وقد ترك السلطان لمحمد على حتى آخر حياته ولايتي سوريا وطرسوس، تحت السيادة العليا التركية، بينما عهد لإبراهيم بولاية أضنه، طوال حياته الباقية أيضا.

وقد سحبت روسيا قواتها وسفنها، بعد أن ضعف المبرر الذي كانت قد أرسلتها من أجله. ولم تتجح فرنسا بدورها في الحصول على الاعتراف باستقلال محمد علي. وقد كانت هذه بلا شك، نجاحات لبالمرستون، الذي عطل عمل وأهداف القوتين الآخرين، ولكن لماذا لم يتدخل دفاعا عن سلامة الإمبراطورية العثمانية أو لماذا، على العكس من ذلك، لم يساعد محمد علي وإبراهيم حتى على غزو القسطنطينية ومواجهة روسيا بقوة أقوى عسكريا بدلا من تركيا الضعيفة؟ هناك أسباب عديدة لذلك. أولا، أن الرأي العام الإنجليزي لم يكن مستعدا لسياسة معادية لروسيا؛ وثانيا، لأن الأسطول الإنجليزي كان مشغولا بالفعل في بحر الشمال، بطول سواحل هولندا والبرتغال ولم تكن تستطيع استخدامه للدفاع عن القسطنطينية؛ وثالثا، لأن القوة العسكرية المصرية كانت مرتبطة بإبراهيم وكان من الصعب أن تبقى على قيد الحياة بعده؛ وأخيرا، أن محمد علي كان يهدد الخليج الفارسي (١٦٤).

وقد كان السبب الحقيقي هو التالي، على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي (١٦٥): "إن بالمرستون كان يعلم ما يفعل. وقد وجد تعويضا حتى إذا كان قد سمح بالتنازل عن أراض شاسعة. وكانت دمشق وحلب قد احتلها محمد علي، ولكن العراق والموصل بقيتا تركيتين. وكانت تركيا محتلا جيدا للطريق للهند. وكان الطريق الآخر للهند هو الفرات، الذي كانت تسير بطوله التجارة الإنجليزية. وكان هذا الطريق قد بقي لتركيا. ولو لم يكن هكذا لحارب بالمرستون بالتأكيد. وكانت إنجلترا مستعدة للقتال من أجل طريق الهند، كما فعلت عندما تعرضت مصالحها البحرية للخطر من التهديدات الفرنسية على تونس والمغرب وبلجيكا. وهكذا لم تكن سلامة الإمبراطورية العثمانية مبدءا مجردا ولكن شيئا كان بوسع بالمرستون أن يختار الحرب من أجله أم لا. ولم يكن مستعدا للقتال من أجل جزء من الإمبراطورية العثمانية. إنه كان سيقاقل فقط لو أن فرنسا وروسيا أو محمد علي أخذوا جزءا كبيرا من تركيا مما يؤثر على توازن القوى بأسره ويمس مصلحة حيوية لإنجلترا". ولم يكن من الممكن التعبير بكلمات أكثر فاعلية مما قيل

عن برود الحسابات وتقدير كل مشكلة من وجهة نظر إنجلترا الأنانية وهي أمور تقليدية في السياسة الخارجية الإنجليزية.

كانت إنجلترا قد أعلنت مبدأ سلامة الإمبراطورية العثمانية، ولكنها عمليا تركت احتلال أراض شاسعة من روسيا، من قبل فرنسا ومحمد علي وتكوين الدولة المستقلة في اليونان، وهذا لأن مصالحها لم تتعرض للخطر. وإلا فإن سلامة الإمبراطورية العثمانية كانت ستصبح ذريعة جيدة لمحاربة القوى المنافسة والتأكيد على مصالحها.

١٠ — وقد استطاع بالمرستون بتدخله أن يجعل السلطان والباشا يوقعان على السلام وأن يدفع روسيا لسحب سفنها وقواتها، ولكن هذا لم يكن بلا ثمن. ففي مقابل النية الطيبة التي ظهرت والمساعدة التي قدمت، أبرمت روسيا بالفعل مع تركيا معاهدة هونكيار إسكليسي المهمة في ٨ يوليو ١٨٣٣ (١٦٦). وبهذه المعاهدة ضمنت كل من القوتين بالتبادل فيما بينهما المساعدة في حالة الاعتداء من قوة ثالثة، وصدقتا على معاهدة أدريانوبولي والاتفاقيات الأخرى المتعلقة باليونان. ووعدت روسيا تركيا باحترام استقلالها في حالة ما إذا طلبت مساعدتها العسكرية والبحرية ضد محمد علي. وقد التزمت تركيا في مادة سرية بإغلاق الدردنيل، في حالة الحرب، ضد كل السفن الحربية الأجنبية بناء على طلب من روسيا.

وقد كانت هذه المادة السرية موضع مناقشات كثيرة (١٦٧)، حيث إنها فسرت في بعض القطاعات بمعنى أنها تسمح للسفن الحربية الروسية بالدخول ليس فقط في البوسفور ولكن في الدردنيل، أي في البحر المتوسط، حتى إن تركيا رفضت الالتزام بإغلاق الدردنيل أو البوسفور على حد سواء أمام المتحاربين، في حالة اندلاع الحرب بين روسيا وإنجلترا.

وأيا كان التفسير المقدم للمادة السرية (والتفسير الأصح يبدو أنه الذي يرى أن روسيا كان يمكنها الوصول بحرية فقط للبوسفور)، فإن الأمر الجوهرى هو أن تركيا أصبحت عمليا تابعة لروسيا. وإذا لم تقم النمسا وبروسيا بأى حركة، فإن

إنجلترا وفرنسا — وهذه الأخيرة انضمت طواعية للحصول على الموافقة الإنجليزية على الاحتلال الذي تم في الجزائر — احتجتا في أغسطس وطلبتا من السلطان عدم التصديق عليها، ولكن دون جدوى. وقد نجح بالمرستون في الحصول على نسخة من المادة السرية (١٦٨)، ووصل إلى القول بأنه كان يفضل أن يرى في القسطنطينية باشا مصر بدلا من قيصر روسيا، ولم يكن يهتم شيء من تنصير وتحضر الأتراك، في سبيل منع النفوذ الروسي في تركيا (١٦٩). وهكذا بدأ عدااء بالمرستون لروسيا، وكان هذا من أسباب حرب القرم. ومع بالمرستون اتجه الرأي العام الإنجليزي بأسره ضد روسيا (١٧٠). ولكن باستثناء الاحتجاج لدى السلطان، لم يقم بالمرستون بأي خطوة إلى بطرسبرج، وهذا لأنه لم يكن يشعر بالأمان من جانب فرنسا، التي كان على خلاف معها بسبب القضية الإسبانية. وبإبرام التحالف الرباعي (٢٢ أبريل ١٨٣٤) استطاع بالمرستون بسهولة التفاوض على قضية العلاقات بين تركيا وروسيا (١٧١).

وكان بالمرستون قد رأى في الواقع في معاهدة هونكيار إسكليزي أكثر بكثير مما فيها ونسب إلى روسيا نوايا عدوانية، لم تكن لديها في الواقع، كما يبين ذلك حدثان: إبرام اتفاقية مونشن جراتس (١٨ سبتمبر ١٨٣٣) والرفض الموجه للسلطان في ١٨٣٤، عندما طلب مساعدتها على أساس معاهدة هونكيار إسكليزي لمهاجمة محمد علي. ومع اتفاقية مونشن جراتس (١٧٢)، المستلزمة من مترنيخ، التزمت روسيا والنمسا حماية تركيا، والإبقاء على العائلة الحاكمة والاعتراض على أي تغيير. وفي مادتين سريتين، أقرت الدولتان، علاوة على ذلك، الاعتراض على أن يتولى محمد علي السلطة المباشرة أو غير المباشرة في تركيا الأوروبية والاتفاق على نظام جديد، في حالة تفكك أوصال الإمبراطورية العثمانية. وبما أن الاتفاقية بقيت سرية، فإن بالمرستون شك في أنها ربما أقرت تقسيم الإمبراطورية العثمانية ولهذا رفض اقتراح مترنيخ (٧ يوليو ١٨٣٤) لإبرام معاهدة رباعية للحفاظ على السلام في الشرق الأدنى (١٧٣).

١١ — كانت اتفاقية كيوتاهيا قد وقعت تحت ضغط إنجليزي — فرنسي،

وعلى مضض جدا من السلطان ومن محمد علي، ولكن من الأول بصفة خاصة. وفي ١٨٣٣ - ١٨٣٤، ١٨٣٥ و ١٨٣٦ كان محمود الثاني قد أظهر النية لمهاجمة القوات المصرية المتمركزة في سوريا، وقد منعته روسيا وفرنسا من ذلك في المرة الأولى وإنجلترا في المرة الثانية والثالثة. وكان محمد علي يريد من جانبه غزو أراض أخرى لتدعيم موقفه (١٧٤).

وقد بدا الصدام حتميا خلال عام ١٨٣٨ عندما أعلن محمد علي في ٥٢ مايو عن رغبته في الاستقلال التام عن الباب العالي (١٧٥). وأمام احتمال نشوب حرب، حدد بالمرستون على الفور مسلك إنجلترا بما يتمشى مع مصالحها. وفي ٧ يوليو ١٨٣٨ كتب للكولونيل كامبل، ممثل إنجلترا والقنصل العام في القاهرة حتى يقدم بلاغا بذلك لمحمد علي: "إن الحكومة البريطانية تشعر بالتزامها بإعلام الباشا، دون تحفظات وبصراحة، أنه إذا كان ينوى للأسف تنفيذ نواياه ونشبت الحرب بينه وبين السلطان، فإن الباشا يجب أن يتوقع أن يجد بريطانيا إلى جانب السلطان لتدارك الظلم الفادح الذي لحق به وتجنب تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية" (١٧٦). وفي ٠٢ يوليو، أرسل بالمرستون نسخة من هذه الرسالة للسفير البريطاني في القسطنطينية، بونسنبى، ليخبر بها السلطان. وعلاوة على مواجهة محمد علي، كان بالمرستون يهدف لاتفاق إنجليزي - تركي لإلغاء المعاهدة الروسية - التركية لعام ١٨٣٣ واستغلال الخصومة القديمة بين تركيا وإيران في وقت كانت فيه إيران، بمساندة من روسيا، تهدد أفغانستان وبالتالي الحدود الهندية (١٧٧).

وقد شعر السلطان بتشجيع كبير لمعرفة بالمساعدة البريطانية في حالة نشوب حرب ضد الباشا، حتى إنه عند إبرام المعاهدة التجارية مع إنجلترا في ١٦ أغسطس ١٨٣٨ (١٧٨)، منحها شروطا مواتية جدا.

ولم يلق الموقف القوي لإنجلترا نحو محمد علي موافقة من فرنسا. فقد كانت تسوية القضية البلجيكية قد قسمت القوتين الغربيتين. وأسهمت القضية المصرية في تقسيمهما أكثر والتأثير على فرنسا تجاه صداقة وثيقة أو تحالف مع روسيا. وهكذا

اقترحت الحكومة الفرنسية، في يونيو، على الحكومة الروسية إنشاء السلطان عن مهاجمة الباشا إذا ما أعلن هذا الأخير الحرب، بل قبول الأمر الواقع لاستقلاله (١٧٩). ولم يكن هذا الاقتراح سيغضب روسيا لأن وجود عدو قوى فى الجنوب سيدفع السلطان أكثر فأكثر للاستناد إلى حليفه فى الشمال. ومن ناحية أخرى، لم يكن دعم المواقف الروسية فى تركيا وبالتالي على المضائق يغضب فرنسا كثيرا لأنه بهذه الطريقة ستكون هناك ثلاث قوى فى البحر المتوسط فى مواجهة الأسطول الإنجليزى (١٨٠).

إلا أن الحكومة الروسية، لم تكن لديها أى نية فى إقامة علاقات وثيقة مع فرنسا؛ وكان هدفها هو زيادة حدة الخلاف بين هذه الأخيرة وإنجلترا، وفى ضوء هذا الهدف فقط، كان بوسعها الاقتراب من المقترحات الفرنسية (١٨١). ولهذا، فى ما يسمى بإعلان تويليتز (١٨٢)، اقتصر على التأكيد من جديد على فاعلية معاهدة هونكيار إسكليزى، التى احتجت عليها فرنسا وإنجلترا والإعراب عن نيتها فى التدخل لمساعدة تركيا فى حالة الاعتداء من جانب محمد على.

وكما نرى، فإن وجهة النظر الروسية هذه تقترب إلى حد كبير من وجهة النظر الإنجليزية، التى عبر عنها بالمرستون فى الرسالة ٧ يوليو، سألقة الذكر. إلا أن الحكومتين كانتا منقسمتين آنذاك فى قضية مهمة جدا. فقد عاد بالمرستون بفكرة تقدم بها مترنيخ قبل ذلك ببضعة أيام، ومنذ السادس من يوليو ١٨٣٨ كتب (١٨٣) إلى السفير الإنجليزى فى باريس، جرانفيل، مقترحا الدعوة لعقد مؤتمر بين إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا لتحديد عمل مشترك إزاء محمد على. وبما أن قبول مثل هذه الفكرة كان سيعنى بالنسبة لروسيا فقدان حريتها فى العمل والمزايا التى اكتسبتها بالمعاهدة التركية - الروسية فى ١٨٣٣، فإنها اعترضت بشدة، وأعربت عن استعدادها، على الأكثر، للمشاركة فى ضمان جماعى لتنفيذ اتفاق مباشر محتمل تركى - مصرى. وقد أضيف لهذا الخلاف على المؤتمر والقضية المصرية فى الخريف تكثيف النشاط الروسى فى إيران، وهو ما كان يشكل تهديدا لأمن الهند (١٨٤).

وعلاوة على ذلك، قام الأسطول التركي برحلة في البحر المتوسط مع الأسطول الإنجليزي، وفي تلك الأثناء كانت هناك شائعات حول الاستعداد لهجوم إنجليزي - تركي على الإسكندرية (١٨٥). وهناك شائعة أخرى، حول السماح للأسطول الإنجليزي بدخول الدردنيل بحجة التزود بالإمدادات، وقد كذبها السلطان في حديثه للسفير الروسي، الذي قدم احتجاجات حكومته (١٨٦). وفي الوقت نفسه بدأ يرتسم نحو نهاية العام التهديد بحرب إنجليزية - روسية.

وفي الوقت نفسه، كان السفير التركي في لندن، رشيد، بعد أن وقع على المعاهدة التجارية في ١٦ أغسطس، قد بدأ مفاوضات مع بالمرستون لإبرام معاهدة تحالف. ولكن نظرا لأن بالمرستون كان معترضا على أن يأخذ السلطان بزمم المبادرة بالحرب وكان مستعدا لذلك لتقديم التعاون لإنجلترا فقط إذا أعلن محمد على استقلاله أو قام باعتداء، بينما كانت تركيا تبحث عن التحالف والتعاون مع إنجلترا دون شروط في الحرب التي كانت تريد إعلانها على محمد على (١٨٧) انتهت المفاوضات في أبريل بدون التوصل لأي نتيجة. وقد أثرت على هذه النتيجة من ناحية، الضغوط الروسية على القسطنطينية، ومن الناحية الأخرى تحسن العلاقات الإنجليزية الروسية، ولذا فإن التحالف المتصور في يوليو ١٨٣٨ بين إنجلترا وتركيا لم يعد ضروريا لإنجلترا (١٨٨). وفي حين لم يكن بالمرستون يرغب في أن تكون تركيا مهاجمة، فإنه كان معاديا بصورة حاسمة لمحمد على، حتى إنه منذ عام ١٨٣٥ قام بدراسات حول الموقف الاستراتيجي والعسكري والسياسي لسوريا وحول سياسة الباشا نحو السكان المحليين (١٨٩). وفي ٢٩ مايو ١٨٣٩، بعد أن بدأت الحرب بين المتنافسين، كتب يقول للسفير جرانفيل في باريس: "إن الضغط على محمد على من قبل إنجلترا يمكن أن يبدو متحزبا وظالما، ولكننا متحزون. ولا يمكن لأي فكرة للحياد تجاه محمد على أن تعرقل مصالح كبيرة وعليها إلى هذا الحد (الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية، التي كان تقسيمها سيؤدي إلى نتائج عامة). وتمبرلي نفسه يصف هذا المفهوم بأنه "مستهترط ويعلق قائلا: "إن محمد على كان يجب أن يحارب لتجنب نشوب حرب أوسع سواء أكان هو المعتدي أم السلطان" (١٩٠).

ما هي أسباب عداة إنجلترا لمحمد علي؟ قبل كل شيء، الخوف من أن يصبح محمد علي، بمد احتلاله وتزايد قوته، حليفا لروسيا التي كانت بدورها تقوم في تلك السنوات بنشاط سياسي في إيران وكانت تحرص هذه الأخيرة على غزو أفغانستان. وقد قاد ضباط روس الهجوم الإيراني على قلعة حيرات وقام بالمقاومة ضباط إنجلترا (١٨٣٧). وكان أي تحالف مع أو بدون ضم أراض في العراق، بين القيصر والباشا سيهدد أو يلغى طريق الهند. وكان بالمرستون قلقا بصفة خاصة من أن يقوم محمد بغزو ديار بكر، "مفتاح آسيا الصغرى" المقدم له من روسيا (١٩١).

وبصرف النظر عن وجود تحالف روسي - مصري، مع تهديد الهند وطريق الهند، كان بالمرستون معاديا لمحمد علي لنشاطه الممتد في شبه الجزيرة العربية. وبعد أن احتل الحجاز مع مدينتي مكة والمدينة واكتسب هكذا السيطرة على ضفتي البحر الأحمر، كان محمد علي يضغط من ناحية على مخا وعدن، ومن الناحية الأخرى كان يهدف للاستيلاء على جزر البحرين في الخليج الفارسي - ولذا فإن بالمرستون كان يدعو «للتخلي عن أي نية للاستقرار في الخليج الفارسي، لأن مخططه هذا لم يكن من الممكن أن يمر دون اكتراث من قبل الحكومة البريطانية» (١٩٢). وعلى أي حال، فكرت إنجلترا في احتلال عدن (١٨٣٩) لمنع محمد علي، ناسية رأيها في سلامة الإمبراطورية العثمانية. والموضوع الثالث في الخلاف الشديد بين إنجلترا ومحمد علي كان المنافسة الاقتصادية التي كانت تهدد بالتطور في البلاد العربية. وقد أوضح تقرير مهم للقنصل الإنجليزي في سوريا، فارين، في ٢٩ مايو ١٨٣٤ (١٩٣)، أهمية السوق السورية للمنتجات الإنجليزية والأخطار الناتجة عن السياسة التوسعية للباشا. وهكذا عندما قام هذا الأخير في ١٨٣٤ بإقرار الاحتكار الحكومي لتجارة الحرير في سوريا، أدى تدخل اللورد بونسبى، السفير في القسطنطينية وكامبل، القنصل العام في القاهرة إلى إلغاء هذا الاحتكار مع الأول من سبتمبر عام ١٨٣٥. ولتطوير

تجارتها وتحسين طرق الاتصال مع الهند، طلبت إنجلترا من الباشا تشييد طريق من أنطاكية إلى الفرات وطلبت من السلطان السماح بتكوين شركة إنجليزية للملاحة على هذا النهر. ولكن الباشا اعترض على تنفيذه، إدراكا منه للمخاطر التي ستنتج عن هذا المشروع.

وكانت الهند وطريق الهند والخليج الفارسي (١٩٤) موضوعات حساسة جدا بالنسبة لبالمرستون حتى إنه اعتقد أن من حقه التدخل في الخلاف بين السلطان والباشا، وعرقلة هذا الأخير، لمجرد أنه كان يبدو العدو الأخطر على المصالح الإمبراطورية الإنجليزية، بصرف النظر عن أسباب المتخاصمين (١٩٥). ولذا فقد وقف بالمرستون بوضوح ضد محمد علي منذ النصف الثاني من عام ١٨٣٨.

١٢ - وعلى الرغم من الرأي المعارض للقوى الكبرى، فقد هاجم السلطان القوات المصرية في سوريا. وفي ٢١ أبريل، قامت قوات تركية، بقيادة حافظ باشا، بعبور الفرات. وقد اتخذ محمد علي في البداية موقفا دفاعيا، لكي يظهر أنه هو المعتدى عليه (١٩٦)، واقتصر على المطالبة بميراث الحكومة المصرية وليس الاستقلال (١٩٧)، وبالتالي فإنه أصدر في ١٠ يونيو تعليماته (١٩٨) لابنه إبراهيم بطرد الأتراك من سوريا والاندفاع بعد ذلك حتى أوفرا وديار بكر. وفي ٢٤ يونيو ١٨٣٩، نزيب، أوقع إبراهيم هزيمة قاسية بحافظ واحتل أوفرا وامتنع عن تعقب العدو ما وراء تاورو حتى قونية فقط بسبب تدخل الكابتن كوليه، المبعوث من الحكومة الفرنسية لمحاولة التوصل إلى سلام بين المتحاربين (١٩٩).

وفي الوقت نفسه، انتقل الأسطول التركي، الذي خرج من الدردنيل لمهاجمة الأسطول المصري، بالكامل إلى جانب محمد علي، بالتواطؤ مع الأدميرال الفرنسي لالاند (١٤ يوليو). وقد برر القائد التركي هذا الموقف بالخيانة المزعومة لرئيس الوزراء خوسريف "المباع لروسيا" وضرورة الدفاع عن السلطان الجديد البالغ من العمر ستة عشر عاما، عبد المجيد، الذي خلف والده محمود الثاني، الذي مات في الأول من يوليو (٢٠٠).

وهكذا كان موقف تركيا يبدو يائسا جدا. وفي ثلاثة أسابيع، كما علق جويزو (٢٠١)، كانت قد فقدت الملك والجيش والأسطول.

وعلى العكس من ذلك، أعلن محمد علي، وهو مبتهج بالنصر فى مؤتمر عقد للقناصل الأجانب فى ١٦ يوليو (٢٠٢) عن رغبته فى إحياء الإمبراطورية العثمانية وإعادة الأسطول التركى فقط بعد أن يحصل على الحكم الوراثى لمصر وسوريا وكانديا. وبعد تتحية خوسريف، ربما ذهب لتحية السلطان الجديد فى القسطنطينية (٢٠٣).

وفى هذا الظرف، اتخذ وزير الخارجية الفرنسى سولت موقفا حائرا: فمن ناحية، استمر فى السياسة التقليدية فى مساعدة محمد علي، حتى إنه اقترح لصالحة التنازل الوراثى لحكم مصر وسوريا، حتى يمنع أى توسع زائد له، ورفض المقترحات الإنجليزية بالقيام بمظاهر بحرية فى الإسكندرية أو حتى القيام بضغوط على الباشا لإعادة الأسطول إلى السلطان؛ ومن الناحية الأخرى، بقى ثابتا عند سياسة الوفاق مع إنجلترا، وهى سياسة تقليدية أيضا منذ عدة سنوات، وهذا بصفة خاصة لعرقلة عمل روسيا فى القسطنطينية، والتى تمثل فى رأيه تهديدا جسيما على كلتا القوتين. ولهذا السبب، عرقلت الحكومة الفرنسية المحاولة، التى قام بها رئيس الوزراء خوسريف غداة نزيب، للتوصل إلى اتفاق مباشر بين الباشا والسلطان، مع مطالبة إنجلترا وفرنسا، بالتعاون مع النمسا وروسيا بتسوية القضية المصرية. وفى ١٧ يوليو وصلت الحكومة الفرنسية إلى حد إعلان القوى الكبرى رسميا بأن الاتفاقيات الأخيرة قد كشفت عن إجماع كل الحكومات على ضرورة سلامة الإمبراطورية العثمانية. وقد جعل هذا الإعلان، المتعارض جدا مع المصالح الفرنسية فى حماية وتقوية مصر، جعل بالمرستون يصيح قائلا: "إن سولت جوهرة" (٢٠٤).

ولكن إنجلترا كان لها رأى مخالف، أى أنها كانت معادية بصورة حاسمة وصريحة لمحمد علي حيث أن توسعاته فى أراضي شبه الجزيرة العربية كانت

تهدد طريق الهند، أى مصلحة حيوية للإمبريالية البريطانية. ولتبرير عدائها، لم يفت بالمرستون التذكير بالخوف من نية فرنسا الاستفادة من مصر كبيرة وقوية أو حتى غزوها. ولهذا اقترح إعطاء محمد على فقط حكما وراثيا على مصر (٢٠٥).

وقد تدخل مترنيخ (٢٠٦) لمساعدة السياسة الإنجليزية ونجح عن طريق مبعوثة الرسولى فى القسطنطينية، فى التوصل إلى اتفاق بين سفراء إنجلترا والنمسا وبروسيا وفرنسا وروسيا الذين كتبوا مذكرة مشتركة (٢٧ يوليو ١٨٣٩) (٢٠٧) قدمت بعد ذلك للباب العالى وأبلغت بالتالى لمحمد على (٢٠٨).

وطبقا للمذكرة، فإن القوى الخمس كانت قد توصلت إلى اتفاق على قضية الشرق الأوسط ودعت الباب العالى لعدم القيام بأى خطوة دون موافقتها. وقد كررت فرنسا خطأ ١٧ يوليو، على الرغم من أن مصالحها كانت مختلفة عن إنجلترا وعلى الرغم من أن السفير الروسى وقع دون أن يحصل على تعليمات من حكومته (٢٠٩) حتى كان للمذكرة أثرها. بل إن إنجلترا اقترحت على فرنسا مهاجمة وتدمير الأسطول المصرى (٢١٠) وكان الباب العالى على وشك التنازل لمطالب محمد على (إبعاد رئيس الوزراء خوسريف والتنازل عن سوريا) من خلال اتفاق مباشر (٢١١) فاستطاع النجاة هكذا بنفسه. وبناء على نصيحة من الممثلين الخمسة الأجانب، أبلغ الباشا (٢٢ أغسطس) بعدم قبول مطالبه ووضعت القضية فى أيدى القوى الكبرى (٢١٢). وعلى الرغم من التهديدات الإنجليزية وعلى الرغم من الدعوة النمساوية لعرض القضية على تحكيم القوى الكبرى (٢١٣)، وعلى الرغم من نصيحة فرنسا الرضا بالحكم الوراثة لسوريا ومصر وتسليم كريت لإبراهيم مع التخلي عن أضنه (١٥ أكتوبر) (٢١٤)، فإن محمد على قاوم خطوة القوى الخمس واستعد لتنفيذ مخططاته فى التوسع فى أقاليم آسيا الصغرى، حيث كان ينوى جلب الأخشاب لأسطوله والرجال لجيشه، علاوة على زيادة علاقاته التجارية (٢١٥).

وعلى الرغم من المذكرة المشتركة فى ٢٧ يوليو، فإن الشقاق بين إنجلترا

وفرنسا لم يتأخر في الظهور بالكامل لأن إنجلترا كانت تتوى إخضاع محمد على بأى ثمن والتخلى له فقط عن الحكم الوراثةى لمصر، مع اللجوء عند الضرورة لاستخدام الوسائل القهرية ضده، بينما كانت فرنسا مؤيدة للتنازل عن مصر وسوريا (٢١٦). بل إن فرنسا أعطت تكليفا لسفيرها الجديد فى القسطنطينية دو بونتوا بتشجيع الرغبة فى التقارب من جديد وهو ما أظهره السلطان والباشا على حد سواء (٢١٧). إلا أن محمد على كان أكثر تصميمًا من أى وقت مضى على مواجهة إنجلترا ورفض باستياء تهديدات القنصل الإنجليزى الجديد، وقال: "إن ما أراه، هو أن البعض يريد إعطاء مصر لإنجلترا. وأنا لن أترك أحدا يأخذها. وسوف أستسلم ولكن بشرف" (٢١٨). وقال أيضا: "لن أسمح لمصر بأن تصبح إنجليزية. ولن أتنازل عن شبر من سوريا" (٢١٩). وقد كان يشعر بالتشجيع على هذه المقاومة من الخطاب التى ألقىت فى البرلمان الفرنسى فى ٣٢ ديسمبر ١٨٨٩ وفى ١١ و ٣١ يناير ١٩٤٠ (٢٢٠).

كان الهدف الإنجليزى واضحا، كما كتب كوشيليه يقول بحدة لحكومته فى ٥ يناير ١٨٤٠: "إذا تم القضاء على سلطة محمد على، فكيف ومن سيحل محله؟... من المحتمل أن تبدأ من جديد الاضطرابات والانتفاضات والإسراف والسرقة والنهب والسلب كما فى عهد المماليك وحكامهم. ووسط هذه الفوضى، ستجد إنجلترا مزيدا من التسهيلات لتنظيم علاقاتها مع الهند. وستطالب بثمن مساعدها؛ وستحتل بضع نقاط على البحرين وستعمل على تحصينها. وربما ستسعى استخدام سلطتها وعندما تحين الفرصة ستفعل فى مصر ما سيفعله الروس فى تركيا. ونحن لا نريد أن نسمح بذلك، ولكن امتلاك الجزائر والغزوات التى نؤشك أن نقوم بها ستكون حجة قوية، تقدمها حكومة لندن، لتلزمنا بالتساهل إزاء توسعاتها فى مصر" (٢٢١). ولكن بالنسبة لفرنسا، كما كان يؤكد كوشيليه، كان من غير المقبول أن تحتل إنجلترا الإسكندرية فى مصر أو سان جوفانى داكرى. ولهذا كان لابد أن تساند الباشا، وخاصة أنه منع من استغلال النصر فى "تزيب" بالكامل بسبب التدخل الفرنسى (٢٢٢).

ولكن سولت كان يتردد فى اتخاذ قرار. بل إنه كان يلوم بونتوا لأنه نصح محمد على بالذهاب إلى القسطنطينية وتولى إدارة الحكم، فى الوقت الذى كان يبتعد فيه عن الاتفاق الأوروبى (٢٢٣).

وفى نهاية الأمر، كان الخلاف يتسم بالطابع الداخلى والذى يمكن حله داخليا دون تدخل من القوى الأوروبية. ولكن إنجلترا لم تكن تريد ذلك؛ فقد كانت تتوى فرض إرادتها وحل الخلاف بصورة تتمشى مع مصالحها، متجاوزة أى قاعدة فى حقوق الناس وأى رغبة للأطراف المعنية (٢٢٤). وقد كانت هناك أدلة كثيرة على رغبة السلطان الجديد ومحمد على فى الاتفاق مباشرة مع وساطة فرنسا وخاصة فى الشهور من أكتوبر حتى ديسمبر ١٨٣٩. وفى القسطنطينية كان علماء الدين أنفسهم مؤيدين لإعطاء محمد على الحكم الوراثةى لسوريا وإبرام تحالف معه. وعلى الرغم من طلبات الباشا أيضا بالنسبة لأضنه وكانديا والجزيرة العربية، فإنه لم يكن من الصعب التوصل إلى اتفاق لأن الباشا كان قد انتهى به الأمر بالتنازل، وخاصة بالنسبة لكانديا والجزيرة العربية (٢٢٥)، وربما تنازل أيضا بعد ذلك عن الجزيرة العربية. وعند منتصف ديسمبر بدا أن النمسا أيضا وروسيا تؤيدان الاتفاق المباشر بين تركيا ومصر. ولكن هذا كان لفترة وجيزة. فقد كانت روسيا تتقارب من جديد من إنجلترا، وفى الوقت نفسه كان بونسبى يعمل بنشاط لدى السلطان والسفراء الأجانب لمنع هذا الاتفاق وإثارة التدخل الجماعى (٢٢٦).

١٣ - فى أثناء محادثات مهمة فى سبتمبر وأكتوبر ١٨٣٩ كان بالمرستون قد اقترح على السفير الفرنسى سيباستيانى أن يعطى محمد على الحكم الوراثةى لمصر وسوريا الجنوبية، باستثناء مركز أكرى. وكانت تركيا ستحصل من جديد على باقى سوريا، بما فى ذلك الأماكن المقدسة. ولم تقبل فرنسا هذا الاقتراح (٢٢٧). وعلى الرغم من تصريح بالمرستون للسلطان بأنه مستعد لأن يقدم له كل مساندة إنجلترا، حتى بصورة منفردة (٢٢٨)، فإنه اتجه نحو التعاون مع روسيا بدلا من التعاون مع فرنسا. وكانت الفرصة آنذاك مواتية جدا لأن القيصر أيضا كان يرغب فى التقارب مع إنجلترا وفصل تركيا عن فرنسا والنمسا. وكان

قد بعث زاريفيتش، في زيارة إلى لندن، وكان قد ألغى عمل موظفيه في إيران واستدعاهم وأظهر استعداده للعمل بقوة ضد الباشا في مصر (٢٢٩).

وفي أعقاب مهمتين خاصتين للبارون برونو في سبتمبر — أكتوبر ونوفمبر — ديسمبر ١٨٣٩، تجاوزت حكومتا لندن وبطرسبرج خلافتهما وتوصلتا في ١٢ يناير ١٨٤٠ إلى اتفاق بشأن المسلك الواجب اتباعه لمساعدة تركيا ضد محمد علي. وكانت معاهدة هونكيار إسكيليزي، التي تعتبرها روسيا الآن عمليا، إن لم يكن رسميا، مجرد "بقايا تاريخية مهمة ومشرفة" (٢٣٠)، حيث إنه تقرر أنه في حالة ضرورة الدفاع عن القسطنطينية وبناء على طلب من السلطان، مع التخلي عن المبدأ التقليدي في إغلاق البوسفور والدرنيل أمام كل السفن الحربية، كان مسموحا بصفة استثنائية للسفن الروسية بدخول البوسفور والسفن الإنجليزية بدخول الدردنيل (٢٣١).

وقد وضع هذا الاتفاق الذي تتضح أهميته نهاية للصدقة الإنجليزية الفرنسية وبداية التحالف الإنجليزي الروسي من عام ١٨٤٠، وبعد ذلك الاتفاق حول المضائق في عام ١٨٤١.

وفي ديسمبر ١٨٣٩ كان محمد علي قد انتهر فرصة زيارة كامل باشا لمحاولة التقارب من جديد مع تركيا، ولكن دون نتيجة (٢٣٢)، كما لم تفجح محاولات يناير — فبراير ١٨٤٠ (٢٣٣). وقد رحب محمد علي (٢٣٤) بتغيير الوزارة في فرنسا وبالخطاب الذي ألقاه رئيس الوزراء تيير في مجلس النواب في ٢٤ مارس. وكان محمد علي، في أبريل، يقوم بالجلء عن الجزيرة العربية ويجدد محاولات الاتفاق مع الباب العالي (٢٣٥).

وقد زادت حدة الخلاف الإنجليزي الفرنسي، الذي بدأ في ١٨٣٩ برفض عرض سياستيانى في النصف الأول من ١٨٤٠ (٢٣٦) وفي ٧ أبريل وجه نوري أفندي، الوزير المفوض في لندن مذكرة (٢٣٦) للقوى الخمس لتسوية القضية المصرية على أساس الالتزام الذي قطعه على نفسها في المذكرة المشتركة في ٢٧

يوليو. وقد اقترح التوقيع على اتفاقية يعترف السلطان بمقتضاها لمحمد علي بالحكم الوراثة لمصر إذا أعاد الأسطول التركي. ولم تأخذ الحكومة الفرنسية الجديدة، برئاسة تيير (١ مارس - ٢٤ أكتوبر ١٨٤٠)، والتي كانت تهدف لاتفاق تركي - مصري مباشر، لم تأخذ الأمر على محمل الجد وردت من خلال سفيرها جويزو بطريقة مبهمه (٢٨ أبريل) (٢٣٧). وعلى العكس من ذلك، كان بالمرستون قد رد (١١ أبريل) بأنه مستعد للاتفاق على الفور مع القوى الأخرى (٢٣٨). وفي مايو جدد بالمرستون لفرنسا، من خلال السفير النمساوي نويمان، ما يسمى بـ "عرض سييستياني"، مضيفا أيضا سان جوفاني داكري للأراضي التي يجب أن تمنح لمحمد علي. وكما حدث من قبل في أكتوبر ١٨٣٩، رفضت فرنسا الاقتراح (٢٣٩). ولكنها نصحت محمد علي بالتراجع إلى أضنه (٦ مايو ١٨٤٠)، ولكن الباشا رد بكبرياء بأن أضنه هي "مفتاح بيته" الذي كان يريد تسليمه لأبنائه. وكان مستعدا لإعادة كريت عند موته (٢٤٠).

وقد أحيا خبر تحية رئيس الوزراء خوسريف فيه (٢٦ مايو) آمالا جديدة في أن يرى قبول الباب العالي لمطالبه. وعند الضرورة أرسل سامي بيه إلى القسطنطينية للتفاوض على أساس إعادة الأسطول في مقابل حكم مصر وسوريا. وكان وزير الخارجية رشيد باشا على وشك التنازل، إلا أنه بعد تدخل بونسبني، الذي علم بالمفاوضات المباشرة الجارية بين السلطان والباشا (٢٤١)، انتهى برفض أي اقتراح للاتفاق المباشر مع الباشا (يوليو ١٨٤٠) (٢٤٢).

١٤ - وأمام رفض فرنسا، قرر بالمرستون العمل بسرعة، وتغلب على معارضة الكثيرين من زملائه في الحكومة. وبعد أن تبنت الحكومة الإنجليزية بالكامل في ٨ يوليو (٢٤٣) القرار الذي اتخذ، بناء على اقتراح من بالمرستون، وقعت في ١٥ يوليو ١٨٤٠ ما يسمى بمعاهدة القوى الأربع (إنجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا) (٢٤٤). وقد كانت تكمن في اتفاقية ووثيقة منفصلة وبروتوكول وبروتوكول سري (٢٤٥) كانت الاتفاقية تحدد التزام القوى الأربع بفرض قراراتها على محمد علي، طبقا لوسائل العمل الخاصة بكل منها والعمل معا للدفاع عن

القسطنطينية في حالة الضرورة، وكانت تكرر في جوهر الأمر اتفاق بالمرستون — برونو بشأن المضائق. وكانت الوثيقة المنفصلة تحدد حدود ولاية أكرى التي يجب أن تقدم لمحمد على طوال حياته الباقية. وإذا لم يقبل محمد على بهذا العرض خلال عشرة أيام، فإنه سيحصل فقط على مصر لنفسه ولمن سيخلفه. وإذا لم يقبل محمد على خلال الأيام العشرين، فإن بوسع السلطان أن يسحب أيضا هذا العرض الثاني. وكان البروتوكول يؤكد من جديد على مبدأ إغلاق المضائق أمام السفن الحربية. وكان البروتوكول السري يقرر أن الإجراءات القهرية، منعا لتضييع الوقت، يجب أن تطبقها القوى الكبرى ضد محمد على دون انتظار تبادل التصديقات.

وكانت هذه الاتفاقيات تمثل انتصارا لسياسة بالمرستون، الذي استغل على الفور بند البروتوكول السري للعمل على إصدار أوامر للأدميرال ر. ستوبفورد بقطع الاتصالات البحرية لإبراهيم مع مصر، وحماية المتمردين السوريين والتعاون لإنزال قوات تركية ومتخصصين إنجليز من سلاح المهندسين والمدفعية. وفي الوقت نفسه أصدر الأوامر لبونسبني لتقديم المال والذخيرة للثورة التي أشعلها السفير نفسه منذ شهر يونيو في لبنان عن طريق عملائه (٢٤٦). وباتباع نصيحة فرنسا بعدم السماح لإبراهيم بالتقدم بعد تاورو — لتجنب إعطاء ذريعة لروسيا وإنجلترا لاحتلال المضائق وخلق حرب شاملة هكذا — وبمحاولة التوصل إلى اتفاق مباشر مع السلطان (٢٤٧) فكر محمد على، الذي وجد في نصيحة ومساندة فرنسا، عونا على المقاومة، فكر في التوجه للباب العالي، ولكن المبعوث التركي رفعت بك قدم الإنذار التركي في ١٦ أغسطس (٢٤٨): سان جوفاني داكري وسوريا مدى الحياة ومصر له ولخلفائه؛ وإعادة الأسطول التركي. وعلى الرغم من أن أربعة من القناصل كانوا يساندون رفعت، فإن الباشا رفض، مطالبًا بالوساطة الفرنسية (٢٤٩)؛ وبعد مرور عشرة أيام قدم العرض الثاني (٢٥٠ أغسطس): مصر فقط. وقد قبل محمد على، ولكنه عاد إلى الباب العالي للحصول على تنازلات أخرى في سوريا وفي أماكن أخرى. ولكن القناصل الأجانب لم يقبلوا بهذا القبول المشروط وعاد الباشا إلى فرنسا (٢٥٠). وفي ٦

سبتمبر بدأت العمليات الإنجليزية - التركية. وبناء على ضغط بونسنبى، أقال السلطان محمد على (١٤ سبتمبر) (٢٥١).

وفى ٢٣ سبتمبر ترك القناصل القاهرة. وبعد بدء العمليات ضد محمد على (٢٥٢)، قام ستوبفورد فى ٩ و ١٠ سبتمبر بقصف بيروت، بعد أن انضمت إليه فرقة نمساوية. وقامت سفن إنجليزية أخرى بنقل ٥٠٠٠ رجل من قبرص بقيادة العميد البحرى كارلو نابيه. وفى أعقاب انتصارات نابيه فى صيدا (٧٢ سبتمبر) وعلى جبال أرالدى (١٠ أكتوبر) والقصف والغزو على أيدى ستوبفورد، لبيروت (١٠ أكتوبر) والقاعدة المحصنة للغاية فى أكرى (٣ نوفمبر)، دمرت قوة إبراهيم عمليا. وكما حدث فى نافارينو، تغلب الأسطول البريطانى هكذا على المحارب الكبير فى أكرى.

كان خبر التوقيع على اتفاقية ١٥ يوليو ١٨٤٠ التى أعطاهما بالمرستون رسميا للسفير جويزو فى ١٧ من الشهر التالى (٢٥٣)، قد أغضب فرنسا بشدة، حيث رأينا فيها شبه تجديد لتحالف القوى الأربع الكبرى. ولبضعة أشهر خشى البعض من قرب اندلاع الحرب بين فرنسا والقوى الأخرى (٢٥٤). ورد رئيس الوزراء تيير على الحكومة الإنجليزية (٢٤ يوليو ١٨٤٠) التى أعلنت فض التحالف الإنجليزى الفرنسى (٢٥٥). وبالتالى فإنه أرسل فى أغسطس رجل ثقة، وهو والسكى، إلى الإسكندرية لقيادة محمد على ولمحاولة التوصل إلى اتفاق تركى - مصرى (٢٥٦). وقد تحدث البعض عن استعادة الأسلحة لتجديد أمجاد ١٧٩٣ والوصول بالحدود الفرنسية من جديد إلى نهر الراين. ولكن بالمرستون احتفظ مرة أخرى بهدوئه، وهو واثق من أن العقبة الوحيدة لأى حرب هى الأسطول البريطانى (٢٥٧). وبالفعل، دعا لويجى فيليبو تيير وقال له إن مصلحة فرنسا هى فى عدم إشعال الحرب ولكن فى الاقتصار على اتخاذ إجراءات وقائية (٢٥٨).

ويمكن القول بأن التوتر الفرنسى - الإنجليزى قد ضعف إلى حد ما فى شهر أغسطس (٢٥٩). وفى ٧١ سبتمبر وقع فى لندن بروتوكول بين القوى الأربع،

تلتزم فيه بعدم البحث عن مزايا تتعلق بالأرض أو مزايا سياسية وتجارية تنفيذًا لالتزاماتها التي قطعتها على نفسها باتفاقية ١٥ يوليو (٢٦٠). وقد تحسنت العلاقات أكثر في الشهور التالية (٢٦١)، على الرغم من نحض الرأى البريطانى المتشدد جدا واحتجاج (٢٦٢) ضد تنحية محمد على (مذكرات ٣ و ٨ أكتوبر ١٨٤٠)، التى أعقبها أيضا احتجاج مترنيخ. وقد أسهم موقف لويجى فيليبو وحكومة سولت - جويزو الجديدة (٢٩ أكتوبر ١٨٤٠) فى تجاوز الأزمة وإعادة تقارب البلدين (٢٦٣)، وفى الوقت نفسه كانت النمسا وروسيا مشغولتين لأسباب مختلفة بإعادة فرنسا إلى الوفاق مع القوى الكبرى (٢٦٤). وقد كان محمد على يطالب بدوره، بضغط من والسكى، بتدخل ملك فرنسا (٧ نوفمبر ١٨٤٠) فى المفاوضات التى كانت ستجرى بين القوى الكبرى لتنظيم العلاقات بينه وبين السلطان (٢٦٥) وقبل ذلك ببضعة أيام (٣ نوفمبر) كانت سان جوفانى داكرى قد استسلمت لستوبفورد.

وبما أنه كان هناك ولا يزال تفاخر كبير بمذكرة تيير فى ٨ أكتوبر والحماية المطلوبة من محمد على بخطاب ٧ نوفمبر، مع التأكيد على أن "فرنسا أنقذت مصر"، يجدر بنا أن نلاحظ هنا أنه إذا كان تيير قد رفع صوته ضد إنجلترا، فإن المساعدة لم تتحول أبدا من الكلمات إلى الأفعال. وكانت السياسة الفرنسية فى كل القضية غير متمردة لفرنسا ولمصر. ليس هذا فحسب، لأن وزير الخارجية الجديد، جويزو، الذى كانت تحركه الرغبة فى السلام مع إنجلترا سارع بإعطاء التعليمات التالية لكوشيليه (٩ نوفمبر ١٨٤٠) (٢٦٦): "إن محمد على لا يحب أن يوهم نفسه حول ما تريد أو تستطيع فرنسا عمله من أجله... إن فرنسا لا تريد ولن تشن الحرب من أجل سوريا، ولا تريد ولن تشن الحرب لتسمح لمحمد على بتغذية الحرب فى هذا البلد". فهذا أبعد ما يكون عن مساعدة مصر!

١٥ - تحت تأثير مذكرة تيير وموقف مترنيخ، أعطى بالمرستون تعليماته لبونسبى (١٥ أكتوبر ١٨٤٠) لدعوة السلطان للصفا عن محمد على والاحتفاظ له بالحكم الوراى فى مصر بشرط أن يعيد له الباشا الأسطول وأرضه وسوريا

والأماكن المقدسة. إلا أن بالمرستون كتب في ٢ نوفمبر إلى السفير في باريس، جرانفيل، وبدا أنه تراجع عن موقفه، مما أثار رد فعل شديدا في فرنسا (٢٦٧). ليس هذا فحسب، فمع دعوته للقيادة البحرية (٤١ نوفمبر) لإعطاء التعليمات للأدميرال ستوبفورد حتى يرسل ضابطا من جانبه للتباحث مع محمد علي، تحدث بالمرستون عن الاحتفاظ لهذه الحكومة بمصر، دون تحديد "الحكم الوراثي" (٢٦٨)، ربما تحت تأثير الخبر الذي جاءه آنذاك عن انتصارات نابييه وستوبفورد.

وقد أرسل ستوبفورد إلى الإسكندرية في مصر نابييه الذي أبرم في ٢٧ نوفمبر اتفاقية مع محمد علي، كان من نتائجها أن التزم هذا الأخير بالجلء عن سوريا وإعادة الأسطول بمجرد التصديق على حكمه الوراثي لمصر (٢٦٩). وإذا كان هذا الاتفاق قد نبذ ستوبفورد (٢ ديسمبر) لأنه لا يتماشى مع الأوامر الصادرة عن القيادة البحرية، أي مع تعليمات بالمرستون في ١٤ نوفمبر (٢٧٠)، فإنه تعرض للهجوم بعنف من بونسنبى، العدو اللدود لمحمد علي الذي كان يريد تنحيته ببساطة. ولهذا قام هو وزملاؤه في القسطنطينية بحث السلطان على رفض الاتفاقية (١٨ ديسمبر) والاستمرار في العمليات ضد إبراهيم (٢٧١). وقد انسحب هذا الأخير مع الجيش الذي انخفض إلى النصف وفي ظروف سيئة، من دمشق في ٣٠ ديسمبر وواصل زحفه نحو العريش بعد أن فقد آلاف الرجال.

وفي الوقت نفسه، كان ستوبفورد قد أرسل إلى الإسكندرية الكابتن فانشو الذي حصل من محمد علي، على إعلان بالخضوع غير المشروط (٩ ديسمبر ١٨٤٠)، بعد أن أبلغه بعدم التصديق على اتفاقية ٢٧ نوفمبر. وقد أظهر بونسنبى، الذي كان يريد تنحية محمد علي بأى ثمن، عداؤه لقبول عرضه بالإذعان، في تناقض مع أوامر بالمرستون، ليس فقط في ١٥ أكتوبر ولكن أيضا في ١٤ نوفمبر ١٨٤٠. ولهذا قبل السلطان الإذعان ولكن دون أن يحدد شيئا حول وراثة حكم مصر (٢٧ ديسمبر) (٢٧٢). وفي ١٥ ديسمبر، قبل تلقى الخبر الخاص بعمل فانشو، لم يكن بالمرستون قد وافق على اتفاقية ٢٧ نوفمبر (٢٧٣) التى أبرمها نابييه. وتمشيا مع هذا، أمر بونسنبى بالانضمام إلى زملائه النمساوى والروسى

والبروسى لمطالبة السلطان بأن يمنع محمد على الحكم الوراثى لمصر. وهكذا اضطر بونسنبى للتنازل على مفض (١٠ يناير ١٨٤١) (٢٧٤).

وفى ١٢ يناير ١٨٤١ وجه السلطان خطابا لمحمد على، يخبره فيه بأنه وافق على الحكم الوراثى على مصر بشرط إعادة الأسطول والأراضى التى احتلها هو وابنه (٢٧٥). وفى الوقت نفسه ذهب أدميرال إنجليزى فى الخدمة لاستلام الأسطول التركى لحساب السلطان ليضمه بعد ذلك للأسطول الإنجليزى، وفى الوقت نفسه كانت هناك شائعات تقول إن إنجلترا ربما أرادت التمرکز فى أكرى (٢٧٦). وفى ٣٠ يناير ١٨٤١، أبلغ المبعوثون المفوضون لبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا السفير التركى فى لندن بأن حكوماتهم نصحت السلطان بأن يوافق لمحمد على، على الحكم الوراثى لمصر (٢٧٧). وفى ١٣ فبراير ١٨٤١ وجه السلطان لمحمد على "خطابا شريفا" (خطابا إمبراطوريا) وفرمانا. وفى الخطاب الشريف (٢٧٨) يعبر السلطان عن رضائه عن إذعانه، ويبلغه بقرار منحه الحكم الوراثى لمصر؛ ولكن اختيار الخليفة من أبنائه الذكور كان من اختصاص السلطان. وبالنسبة فإن الوثيقة كانت تقر إلزام الحاكم (الوالى) بجمع الضرائب باسم السلطان ودفع ربع المبلغ الإجمالى للباب العالى، وصك العملة برمز السلطان والإبقاء على جيش لا يتجاوز ١٨ ألف رجل وتعيين الضباط حتى رتبة الرائد. وقد سمح الفرمان (٢٧٩) ("دون ميراث") لمحمد على بحكم النوبة ودارفور وكردوفان وسنار مع الالتزام بعدم جلب عبيد من هذه المناطق. وبعد عدة محادثات مع مبعوث السلطان، ومع أفراد عائلته ومع القنصل العام الفرنسى كوشيليه، قرر محمد على (٦ مارس ١٨٤١) عدم قبول الخطاب الشريف، خاصة لأنه لم يكن يريد أن يترك اختيار منصب الوالى لتحكم السلطان (٢٨٠).

وقد عقد هذا الوضع الجديد الأمور إلى حد ما، حيث كان ممثلو أربعة من القوى الأربع قد أعلنوا فى ٥ مارس إنهاء القضية المصرية وقرروا إعادة قنصلهم إلى القاهرة (٢٨١) ليس هذا فحسب. فقد كانت فرنسا، التى اقتربت من جديد من إنجلترا من نوفمبر ١٨٤٠ فصاعدا، كانت قد انضمت إلى اتفاقية حول إغلاق

المضائق، وقعت بالأحرف الأولى في ١٥ مارس ولكنها لم توقع رسمياً (٢٨٢). وبعد أن علمت فرنسا برفض محمد علي، جعلت التوقيع على الاتفاقية متوقفاً على شرط قبول السلطان لمطالب الباشا، وخاصة المطلب المتعلق بالخلافة على أساس قانون الأقدمية (٢٨٣)، وقد أرسل بالمرستون، الذي كان قد أبلغ بونسبى في ١٦ مارس بقرارات ٥ مارس، أرسل برقية لهذا الأخير حتى يضع نهاية للقضية. وبعد أن راوغ مرة أخرى (٢٨٤). تنازل السلطان لضغوط ممثلي القوى الأربع الكبرى لدى سفيره في لندن (١٣ مايو ١٨٤١) (٢٨٥) ولدى الباب العالي مباشرة (٢٢ مايو ١٨٤١) (٢٨٦). وهكذا أصدر في ٢٥ مايو ١٨٤١ خطاباً شريفاً جديداً (٢٨٧) قبل فيه مطالب محمد علي: الميراث لأبنائه الذكور بترتيب الأقدمية؛ ودفع جزية سنوية، بدلا من دفع ربع الضرائب؛ وتعيين ضباط حتى رتبة كولونيل. وفي ١٠ يونيو قدم الخطاب الشريف لمحمد علي الذي قبله في احتفال مهيب (٢٨٨).

وبعد مزيد من المفاوضات، حددت الجزية بـ ٦٠ ألف حافظة سنوية (٢٨٩). وفي أعقاب التوصل إلى اتفاق، أصبحت العلاقات ودية بين تركيا ومصر. وبعد تجاوز مناقشات أخرى بين فرنسا وإنجلترا حول الإلغاء الرسمي من عدمه لمعاهدة ١٥ يوليو ١٨٤٠، وقعت القوى الخمس في ١٠ يوليو "بروتوكول إنهاء" الحادثة (٢٩٠)، ووقعت القوى الخمس وتركيا بالتالي على اتفاقية المضائق (١٣ يوليو ١٨٤١) (٢٩١)، ونتيجة لذلك التزمت القوى الأولى باحترام القانون القديم للإمبراطورية العثمانية، الذي ينص على أن مضائق الدردنيل والبوسفور مغلقة أمام السفن الحربية لكل القوى.

وقد انتصرت دبلوماسية بالمرستون انتصاراً تاماً بتعاون الأسطول. وأخضع محمد علي، وألغيت معاهدة هونكيار إسكيليزي، ولم يتم التقارب الفرنسي - الروسي، وأنقذ طريق الهند.

هوامش

- (١) راجع ف. س. رو، L'Angleterre, l'isthme de Suez et l'Egypte au XVIII siècle، باريس، بلون، ١٩٢٢، ص ١٧٢
- (٢) راجع أ. دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali de l'Arabè au Soudan (1814-1823)، القاهرة، ر. الجمعية الجغرافية في مصر، ١٩٢٧، ص LV-LVI في نفس المرجع، Mohamed Ali في الجزء الثالث من Précis de l'Histoire d'Égypte، ص ٢٠١
- (٣) ويلسون، The Struggle for the Mediterranean، الفصل ٢٠ من الجزء الثامن من Cambridge Modern History [C.M.H.] ص ٤٨٣
- (٤) ج. هولاند روز، The Egyptian Expedition، الفصل ١٩ من المجلد الثامن من C.M.H.، ص ٥٩٥.
- (٥) راجع رو، L'Angleterre, l'isthme، ص ٣٥٥، ويعقبه ج. هولاند روز، Bonaparte and the Conquest of Italy، الفصل ١٨ من المجلد الثامن من C.M.H.، ص ٥٩٠-٥٩٢؛ وفي نفس المرجع The Egyptian Expedition، ص ٥٩٦
- (٦) دو لا چونكيير، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ٣٨٩-٤٣٢. وحول معركة أبو قير، راجع ماهان. أ، ص ٢٥٦-٢٧٣؛ ويلسون The Struggle for the Mediterranean، ص ٦٢٩؛ أ. دولن، La flotte de Bonaparte sur les côtes d'Égypte. Les prodromes d'Aboukir، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٢٢.
- (٧) راجع ويلسون، نفس المرجع، ص ٦٣٠
- (٨) ج.م. تريفيان، Storia d'Inghilterre، ميلانو، تريفيز، ١٩٨٣، ص ٦١٧.
- (٩) نص دي مارتنز، Recueil، الجزء السادس، ص ٥٢٣-٥٣٦. وحوله راجع س. جورباينو، Le Bosphore et le Dardanelles, étude historique sur la question des Détroits، باريس، بلون، ١٩١٠، ص ٤ ح شب European Powers and the Near

- England Eastern Question، نيويورك، ١٩٣١، ص ١٢٠. أنظر أيضا هـ. تيمبرلي، and the Near East (The Crimea)، لندن، ١٩٣٦، ص ٤٤ - ٤١٠.
- (١٠) ت. أ. ووكر، The Armed Neutrality, 1780-1801، في C.M.H، المجلد التاسع، ص ٤٠. كامبريدج، مطبعة الجامعة، ١٩٠٦. نص وثيقة ١٠ أكتوبر ١٧٩٨ في دي مارتنز، Recueil، الجزء السادس، ص ٣٣٥-٣٣٦.
- (١١) راجع ماهان، The influence of sea power, the French Revolution and Empire, 1793-1812، لندن، ساميسون لو، ١٨٩٣ في مجلدين، الأول، ص ٢٨٦-٢٨٧.
- (١٢) النص في دي مارتنز، Recueil، السادس، ص ٥٦٨-٥٧٣.
- (١٣) حول المجلة في سوريا. راجع كل المجلد الرابع من كتاب دو لا كونكيير، Expédition d'Égypte.
- (١٤) حول معركة أبو قير، راجع دولا كونكيير، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٣٢٥-٤٨١.
- (١٥) النص في دي مارتنز، Recueil، الجزء السابع (١٨٠٠-١٨٠٣٩، جوتينجا، دييتر يتس، ١٨٣١ ص ١-٧).
- (١٦) بالنسبة لأحداث مصر، علاوة على المجلدات والدراسات المذكورة، راجع هـ. دهران، L'Expédition du général Bonaparte في الجزء الخامس، ص ١٩٩-٥٥٥، من Historia de la Nation Égyptienne إعداد ج. هانوتو، باريس، بلون، ١٩٣٤؛ طبعة دريو، La question d'Orient، الطبعة الثامنة، باريس، ألكان، ١٩٢١، ص ٧٢-٧٩.
- (١٧) حول البعثة راجع ب. كوكيل، La mission de Sebastian à Costantinople en 1801، في Revue d'histoire diplomatique يوليو ١٩٠٣، طبعة دريو، La politique orientale de Napoléon، باريس، ألكان، ١٩٠٤، ص ٢٣-٢٥.
- (١٨) هـ. روز، Egyptian Expedition، ص ٦١٨.
- (١٩) راجع ج. دوان وأس فوتيير- چونز، L'Angleterre et l'Égypte، La politique mameluke (1801-1803)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٢٩، الوثيقة ٦.
- (٢٠) راجع دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثائق ٢-٤، ٩، ١٢، ١٧، ٢٥، ٣٦، ٣٩.
- (٢١) راجع دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثيقة ٤؛ أنجلو سان ماركو، Il regno di Mohammed Ali nei documenti diplomatici italiani inediti، المجلد الأول،

- (L'Egitto nell'anarchia (luglio 1801-luglio 1804)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٣٠، ص ٣٤-١٥؛ في نفس المرجع، I documenti diplomatici concernenti il regno di Mohammed Ali e gli archivi di Stato italiani Oriente Moderno، العدد التاسع ١٩٢٩، ص ٢٨٧-٢٩٦.
- (٢٢) دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثيقة ١٦.
- (٢٣) راجع دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثائق ٢٠-٢١
- (٢٤) نفس المرجع، الوثيقة ٣٣ (الاجتماع في وزارة الخارجية العثمانية مع مداخلة لورد إلجين، ١٤ سبتمبر ١٩٠١)
- (٢٥) حول الواقعة، راجع دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثائق ٤١، ٤٧، ٦٦، ص ١٦-٢١ (المقدمة)؛ سان ماركو، L'Egitto nell'anarchia، الوثائق ٣-٦
- (٢٦) راجع رسالة إلى اللورد إلجين في دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثيقة ٧٩. ولكن اللورد إلجين كان قد اقترح عدم الاعتراف بالجنرال هتشنون ومساندة الباب العالي، لمنع فرنسا من تقديم مساعدتها لتركيا ضد المماليك والتدخل في مصر، حتى أنه في ٢٥ نوفمبر كان الجنرال سيبيا ستيا إلى القسطنطينية للتفاوض على معاهدة سلام على أساس المقدمات المبرمة في باريس ٩ أكتوبر ١٨٠١ بين نابليون والسفير التركي، راجع نفس المرجع، الوثائق ٥٥، ٥٦. وبالنسبة للاحتجاج التركي، للوثائق ٥٤ و ٥٧.
- (٢٧) راجع دوان - فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ٦١-٨٨ في مواضع مختلفة وص ٢٦-٣١؛ سان ماركو، المرجع المذكور، الوثيقة ٧.
- (٢٨) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، ١، الوثيقة ٩٨
- (٢٩) نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثيقة ١٠٤
- (٣٠) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ١١٦-١٢٣ وص ٢١-٣٥.
- (٣١) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ١٣٠-١٣١، ١٣٢ سان ماركو، المرجع المذكور الوثيقة ١٥. وقد قام رو سيني، القنصل العام النمساوي بخطوة مماثلة لدى الباشا: سان ماركو، المرجع المذكور الوثيقة ١٥.
- (٣٢) حول مهمة سياستيانى في مصر راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ١٣٨-١٤٧، ١٥٠-١٥٢، ١٥٥، ١٩٣؛ ج. دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثائق ٤، ٥، ٧-٩، ٢٠، ٢٩؛ سان ماركو، المرجع المذكور، الوثائق ١٦، ١٧، ٣٦؛ دريو La politique orientale de Napoléon، ص ٢٥-٢٦.

- (٣٣) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثيقة ١٧٠
- (٣٤) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثيقة ١٦٢. وقد كتب ستيوارت أيضا لرئيس الوزراء (الوثيقة ١٧١). أنظر أيضا سان ماركو، المرجع المذكور، الوثيقة ٢٣.
- (٣٥) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ١٧٩، ١٨١، ١٩٣.
- (٣٦) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ١٨٥-١٨٦، ٢٠٣؛ دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثائق ١٤-١٥.
- (٣٧) دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ١٩٤، ١٩٦-٢٠٢؛ دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثائق ١٢-١٣، ١٦-١٧؛ سان ماركو، المرجع المذكور، الوثيقة ٢٠.
- (٣٨) دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثيقة ٢٠٦.
- (٣٩) راجع ج. دوان- فوتييه جونز، L'Angleterre et l'Égypte, la politique mameluk، المجلد الثاني (١٨٠٣-١٨٠٧)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٣٠.
- (٤٠) راجع نفس المرجع، الوثائق ٣، ١٠.
- (٤١) راجع دوان- فوتييه، المجلد الثاني، الوثائق ١٤، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٤؛ L'Égypte de 1802 à 1804، الوثيقة؛ سان ماركو، الوثائق ٢٤-٣٦.
- (٤٢) دوان- فوتييه، المرجع المذكور، ٢ (١٨٠٣-١٨٠٧) والوثيقة ٢١ دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثيقة ٣٦.
- (٤٣) حول الاضطرابات في مصر وسلوك محمد علي تجاه الأوروبيين راجع سان ماركو، الوثائق ٣٧، ٥٢.
- (٤٤) دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثيقة ٤٢.
- (٤٥) راجع دوان- فوتييه، المجلد الأول، الوثائق ٤٠، ٤٨، ٥٦-٥٩، ٦٨، ٦٩، ١١٣، ١٤٢، دوان، المرجع المذكور، الوثائق ٥٥-٦١، ٦٥، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٥-٨٢؛ سان ماركو، الوثيقة ٥٣.
- (٤٦) راجع دوان- فوتييه، الوثيقة ٤٧؛ دوان، المرجع المذكور، الوثائق ١١٠، ١١٤.
- (٤٧) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، ٩٤؛ دوان، المرجع المذكور، الوثائق ٥٤-٥٥.
- (٤٨) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، دوان، المرجع المذكور، الوثائق ١٦٢، ١٦٥-١٦٦؛ سان ماركو، L'Egitto nell'anarebia، الوثائق ٥٧-٦٤، دوان، Mohammed

- Ali Pacha du Caire (1805-1807)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر،
١٩٢٦، الوثيقة ٣٠
- (٤٩) راجع دوان - فوتييه، المرجع المذكور، المرجع المذكور، الوثائق ١٧٥، ١٨٠، ١٨٣،
١٨٦.
- (٥٠) نفس المرجع نفس الصفحة، الوثيقة ٢٠٠، دوان، Mohammed Ali Pacha du Caire (1805-1807)،
الوثيقة ١٠٢.
- (٥١) دوان، Mohammed Ali Pacha du Caire (1805-1807)، الوثيقة ١٠٤
- (٥٢) دوان، Mohammed Ali Pacha du Caire (1805-1807)، الوثيقة ٤٠
- (٥٣) دوان - فوتييه، المرجع المذكور، الوثيقة ٢٢٦
- (٥٤) دوان - فوتييه، المرجع المذكور، الوثيقة ١٤٠
- (٥٥) حول المفاوضات الخاصة بهذه المعاهدة، راجع جوريا ينوف، المرجع المذكور، ص ٤-٧
- (٥٦) راجع ج. دوان، L'Angleterre et la Turquie، ص ص ٥٢ - ٥٧، جوريا ينوف،
المرجع المذكور، ص ٧-١٠.
- (٥٧) النص في Correspondance de Napoléon، رقم ١٠,٣٣٩.
- (٥٨) حول هذه الأحداث ومهمة سيبا ستيناني، راجع ج. دوان L'Angleterre et la Turquie،
ص ٥٥-٥٧؛ ديوو La politique orientale de Napoléon, 1805-1808، ص ص ٧٨-٦٠،
جوريانيوف، المرجع المذكور، ص ١١-٢.
- (٥٩) راجع حول هذا تيمبرلي، Crimea، ص ٤٥-٤١٠؛ "شيب"، المرجع المذكور، ١٢٠.
راجع أيضا خطاب اللورد أبردين في ١٢ فبراير ١٨٣٠ إلى لوردات هانزاردز، السلسلة
الجديدة، المجلد الثاني والعشرين، المجموعة ٤٢٨ (ويوجد بها خطاب لفوكس بتلريخ ٨
أبريل ١٨٠٦ إلى تاليران).
- (٦٠) ج. دوان، L'Angleterre et la Turquie، ص ٦٥-٧٢؛ ديوو، La politique orientale
de Napoléon، ص ٨٠-٨٩
- (٦١) حول بعثة داكورث إلى القسطنطينية، راجع ج. دوان، L'expédition de Sir John
Duckworth à Constantinople، ص ٧٢-١٧٢ في مقدمة المجلد المذكور:
L'Angleterre et l'Égypte، La politique mameluke، المجلد الثاني (١٨٠٣-
١٨٠٧)؛ ديوو، La politique orientale de Napoléon، ص ٨٩-١١٠

- (٦٢) حول البعثة الإنجليزية عام ١٨٠٧ إلى مصر، راجع ج. دوان - أ. س. فوتيه - جونز، L'Angleterre et l'Égypte, La compagnie de 1807 للملكية الجغرافيا في مصر، ١٩٨٢؛ دوان، (1805- Mohammed Ali, Pacha du Caire (1807) المذكور، الوثائق ١٢٥-١٦٢؛ ف.س. رو، L'Égypte de 1801 à 1882، ص ٣٣-٤١ في المجلد الأول من العمل المؤلف من ٨ مجلدات Histoire de la nation égyptienne إعداد ج هانوتو، باريس، بلون، ١٩٣٦؛ دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ١١١-١٢٢؛ م. صبرى، L'empire égyptien sous Mohamed Ali، باريس، جويتر، ١٩٣٠، ص ٢٧-٢٩
- (٦٣) نفس تعليمات ١٥ مايو في ج. دوان، La mission de Sir A. Paget في المجلد المذكور، ص ١٣٠-١٣٢
- (٦٤) راجع دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٢١٧-٢١٨، ٢٣٠-٢٣١، جورباينوف، المرجع المذكور، ص ١٥
- (٦٥) راجع نص التعليمات لباجيه بتاريخ ١٣ أغسطس ١٨٠٧ في ج. دوان، المرجع المذكور، ص ١٥١-١٥٢.
- (٦٦) حول بعثة باجيه راجع دوان، المرجع المذكور ص ص ١٣٤-٥٣،
- (٦٧) راجع تعليمات (٢٦ يونيو ١٨٠٨) كاتينج إلى السير ر. أدير، المبعوث في مهمة إلى القسطنطينية، في تيمبرلي، Crimea، ص ٤٧، ٤١٠. حول أدير راجع Negotiations for the peace of the Dardanelles، في مجلدين، ١٨٤٥.
- (٦٨) النص في أدير، المرجع المذكور، ١، ص ١٢٢-١٢٣؛ إشارات في تيمبرلي، Crimea، ص ٤٨، ٤١٠. بالنسبة للمفاوضات، علاوة على أدير، راجع س. لين بول، The Life of the right honourable Startford Canning viscount Startford de Redcliffe مجلدين، لندن، لونجمانز، ١٨٨٨، المجلد الأول، ص ٣٨، ٤٦. إثارة في دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٣٦٢-٣٦٣
- (٦٩) حول النتائج القانونية لقبول هذا المبدأ، الذي تحول من قاعدة في القانون الداخلي إلى قاعدة في القانون الدولي، راجع جورباينوف، المرجع المذكور، ص ص ٢٠-٢١.
- (٧٠) راجع تيمبرلي، المرجع المذكور، ص ٤٨
- (٧١) في هذه الفترة، كانت المصادر كلها فرنسية. راجع طبعة دريو، Mohamed Ali et Napoléon (1807-1814)، القاهرة، جمعية الجغرافيا، ١٩٥٢. وقد توقفت المصادر

الإنجليزية عند ١٨٠٧ مع ثلاثة مجلدات بالتعاون بين ج. دوان وفوتيه جونز؛ والإيطالية، التي نشرها سان ماركو، تتوقف عند ١٨٠٤، لكي تستأنف في السنوات ١٨٣١-١٨٣٣.

(٧٢) حول العلاقات بين محمد علي والمماليك راجع دريو، (Mohammed Ali, 1807-1814)، الوثائق ٥-٧ (١٨٠٨)؛ ١٥-١٦، ٢٢ (طلب حاكم مملوكي للحصول على الحماية الإنجليزية، أغسطس ١٨٠٩)، ٢٣، ٢٧-٢٨ (١٨٠٩)؛ ٣٤-٣٦، ٣٩-٤٠، ٤٢-٤٦، ٤٩ (١٨١٠)؛ ٥٣، ٥٧-٥٩، ٦٣ (١٨١١)؛ ٨٥، ٩٦، ١٠٠ (١٨١٢)

(٧٣) راجع دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٢٠٨-٢١٤

(٧٤) نص الخطاب في Correspondance de Napoléon، المجلد ١٦، ص ٥٨٦. النص والتعليق في دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٢٤٥-٢٥٤

(٧٥) راجع دريو، Mohamed Ali et Napoléon (1807-1814)، ١٨٠٧-١٨١٤، الوثيقة ٣؛ المرجع نفسه، La question d'Orient ص ٩٢-٩٣

(٧٦) راجع دريو، Mohamed Ali، ص ٢٢-٢٣.

(٧٧) حول هذه التعليمات التي أصدرها نابليون راجع دريو، Mohamed Ali، ص ٢٤-٢٦

(٧٨) دريو، Mohamed Ali (1807-1814)، الوثيقة ٦٥

(٧٩) راجع جوربانيوف، المرجع المذكور، ص ١٦-١٨، ٢٣؛ دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٢٣١-٢٤٤، ٢٥٦-٢٦٧، ٢٨٩، ٣٠٨، ٢٤٨-٣٥٢

(٨٠) النص في دي مارتنز، Nouveau Recueil de Traités الكتاب الثالث، ص ٣٩٧-٤٠٥. حول سير المفاوضات راجع لين بول، المرجع المذكور، المجلد الأول، الفصل الرابع؛ راجع لين بول، المرجع المذكور، المجلد الأول، الفصل الرابع؛ تيمبرلي، Crimea، ص ٥٠-٥١. المعاهدة لم تكن تتضمن أى إشارة لقضية المضيق: راجع جوربانيوف، المرجع المذكور ص ٢٤.

(٨١) النص في دي مارتنز، N.R.T.، ٣، ص ٢٢٦-٢٢٩.

(٨٢) النص في دي مارتنز، N.R.T.، ١، ص ٤٣١-٤٣٢

(٨٣) راجع دريو، Mohamed Ali (1807-1814)، الوثائق ٥ (١٨٠٨)؛ ٢٩، ٤٩، ٥٠، (١٨١٠)، ٦٠، ٦٣، ٦٨ (١٨١١) ح ١٠٣-١٠٤، ١٠٨، ١١٣ (١٨١٢).

(٨٤) راجع دريو، نفس المرجع، الوثائق ٦١-٦٢ (١٨١١)، ٩٢، ١٠٩، ١١٣ (١٨١٢).

- (٨٥) راجع دريو، نفس المرجع، الوثيقة ١٠٠
- (٨٦) راجع دريو، نفس المرجع، الوثائق ٣٤ و ٥٠
- (٨٧) راجع دريو، (Mohamed Ali (1807-1814)، الوثائق ٦٧-٦٩
- (٨٨) راجع دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali، الوثائق ١٥، ٢٣-٦١
- (٨٩) راجع دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali، إلخ، الوثيقة ١
- (٩٠) حول الحرب في الجزيرة العربية (١٨١١-١٨١٩)، راجع دريو، Mohamed Ali (1807-1814)، الوثائق ٨٠-١٤٣ في مواضع متفرقة، راجع نفس المرجع، La formation de l'Empire de Mohamed Ali de l'Arabie au Soudan (1814-1823) الوثائق ١-٧٨ في مواضع متفرقة وص ١٣-٣٤، القاهرة الجمعية الملكية للجغرافيا، ١٩٢٧؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٣٨-٥٩. الانجليز لم يؤيدوا بعثة الجزيرة العربية: راجع دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali، إلخ. الوثائق ٢١، ٥٠. وقد شارك في البعثة الإيطالي فيناتي، الذى نشرت مؤخرا سيرته الذاتية، التى كانت معروفة حتى ذلك الحين بالإنجليزية فقط، فى ترجمة إيطالية: Vita e avventure di Gianni Finati إعداد ميكيلي فيزاني، ميلانو، وهى الدراسة الأولى بالنسبة لدراسات السياسة الدولية، ١٩٤١.
- (٩١) راجع دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali، إلخ، الوثائق ٥٣، ٦٦، ٧١، ٧٤، ٧٥، ١٠٤؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٥٩-٦٥
- (٩٢) حول الكولونيل سيف راجع ج. دوان، Une mission militaire française auprès de Mohamed Ali، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٣، ص ١٠-١٦. القاهرة. البوير خصص له مجلد كامل، حيث يتضمن مراسلته (نوفمبر ١٨٢٤-سبتمبر ١٨٢٦) مع الجنرال بيليارد. حول مؤلف البوير، راجع أيضا أ. دريو، L'expédition de Crète et de Morée (1823-1828)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٠، الوثائق ٢٧، ٤٥، ٩٣، ١١٩، ١٢١، ١٣٠، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٤.
- (٩٣) أنظر قائمة ذلك فى دريو، L'expédition، إلخ، الوثيقة رقم ١٨
- (٩٤) دريو، L'expédition، إلخ، الوثيقة ٦
- (٩٥) حول هذه الاصلاحات راجع دريو، L'expédition، إلخ، ص ٨-١٢ والوثائق ٧-٨، ١٠، ١٧، ١٨، ٢٨؛ صبرى، المرجع المذكور ص ٧٨-٨٩
- (٩٦) راجع دريو، L'expédition، إلخ، الوثائق ١٠، ٥، وص ٨-١٤

- (٩٧) راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٩٣
- (٩٨) وهكذا صبرى، المرجع المذكور، ص ٩٠. رأى موثق بتصريحات محمد على لضابط فرنسي؛ نفس المرجع، نفس الصفحة، ص ٩٠-٩١. أنظر أيضا تقرير القنصل الإنجليزى "سولت" بتاريخ ٣١ أغسطس ١٨٢٦: نفس المرجع، نفس الصفحة، ص ١١٦.
- (٩٩) راجع دريو، L'expédition، ٨-١٠، ١٤
- (١٠٠) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ١٩، ٢٤-٢٥، ٣٥، ٣٨
- (١٠١) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٤٧، ٤٣، ٥٤، ٦٢
- (١٠٢) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٣٩، ٤٢، ٤٦، ٥٤، ٦٧، ٦٩، ٧٢، ٧٦، ٧٩-٨١، ٨٣-٨٦، ٨٨، ٩١-٩٢، ١٤١؛ صبرى، المرجع المذكور ص ٩٣-٩٧
- (١٠٣) راجع دريو، L'expédition، إلخ، الوثائق ٥٢، ١٥٨، ١٠١، على الترتيب.
- (١٠٤) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٥٣، ٦٧
- (١٠٥) راجع دريو، L'expédition، إلخ، الوثيقة ٦٧
- (١٠٦) راجع تقارير القنصل الإنجليزى "سولت" بتاريخ ٣١ أغسطس، ٢٤، ٢٦ سبتمبر ١٨٢٦ فى صبرى، المرجع المذكور، ص ص ١١٦-١١٩ وفى ج. دوان، Navarin، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٧، ص ١٨-١٩.
- (١٠٧) دوان، Navarin، ص ١٧، ١٩.
- (١٠٨) حول هذه المهمة، راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ١١٩-١٢٩
- (١٠٩) راجع دريو، L'expédition، الوثائق ١٤٧، ١٥١؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ١٣٠-١٣١
- (١١٠) راجع دوان، Navarin، الوثيقة ١٤٩
- (١١١) حول الأسطول، المحترم حقا، الذى أنشأه محمد على، راجع ج. دوان، Les premières frégates de Mohammed Ali (1824-1827)، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٦؛ دريو، L'expédition، إلخ، الوثائق ١٢٣-١٢٦، ١٥٣، ١٥٥.
- (١١٢) راجع دريو، نفس الموضع، الوثائق ١٥٩-١٦٠ ودوان، Navarin، ص ٦٣-٦٥
- (١١٣) حول السياسية الإنجليزية-الفرنسية تجاه محمد على فى النصف الأول من ١٨٢٧، راجع

- صبرى، المرجع المذكور، ص ١٣٦-١٤٠.
- (١١٤) راجع دوان، Navarin، ص ١٥٠
- (١١٥) حول موقف مترنيخ راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ١٣١-١٣٦.
- (١١٦) حول مهمة كراندوك راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ١٤٣-١٤٤. دوان، Navarin، ص ٦٥-٦٨، ١٥٥-١٦١
- (١١٧) دوان، Navarin، ص ص ٢٠١-٢٠٥
- (١١٨) حول هذه المعركة راجع دوان، Navarin؛ دريو، L'expédition، إلخ، الوثائق ١٦٦-١٦٨، ١٧٣؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ص ١٤٧-١٥٣.
- (١١٩) راجع دوان، Navarin، ص ص ٢٤٣-٢٤٩.
- (١٢٠) راجع ج. دوان L'Égypte de 1828 a 1830، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٥، الوثائق ٤-١٣، ١٥-٢١
- (١٢١) النص فى دوان، L'Égypte de 1828 a 1830، الوثيقة ٢٢
- (١٢٢) راجع دوان، L'Égypte de 1828 a 1830، الوثائق ٣٥-٣٦، ٣٩-٤٠، ٤٣، ٤٦-٥٠، ٥٦
- (١٢٣) نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٧٠-٧١، ٧٥-٧٧، ٧٩
- (١٢٤) نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٧٥-٧٦، ٨٤
- (١٢٥) الاتفاقية منحت حق دخول المضائق للسفن التجارية، وليس للسفن الحربية، راجع جورانيوف Le Bosphore et les Dardanelles، باريس، بلون، ١٩١٠، ص ٢٧-٢٨.
- (١٢٦) راجع و. أليسون فيليبس، Mehmet Ali فى Cambridge Modern History، المجلد العاشر، ص ٥٤٥.
- (١٢٧) راجع جورانيوف، المرجع المذكور، ص ٤٩. هذا المؤلف ينتقد قرار نيقولا الأول، فى نفس الموضوع، ص ٤٨-٥٠
- (١٢٨) نص مذكرة ١٦ سبتمبر ١٨٢٩ قدمة ر.ج. كيرنر، Russia's New Policy in the Near East after the Peace of Adrianople فى Cambridge Historical Journal، ١٩٧٣، ٤، العدد ٣، ص ص ٢٨٦-٢٨٩. تقرير عن نتائج اللجنة فى ت. شيمان، Geschichte

Russlands unter Kaiser Nikolaus I مؤلف من ٣ مجلدات، برلين، ١٩٠٨، المجلد الثاني، ص ٣٦٧. مذكرات عضوية في اللجنة نيسلرود وداشكوف) ونتائج اللجنة موجودة في ف. مارتنز، Recueil de traités et conventions conclus par la Russie avec les puissances étrangères، بطرسبرج، ديفريو، ١٨٧٨، ١٥ مجلدات، الكتاب الرابع، الجزء الأول، ص ٤٣٧-٤٤١. وهناك خطاب ل "نيسلرود" إلى السفير الروسي في لندن، ليفني، بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٨٢٩ في مارتنز، المجلد الحادي عشر، ص ٤١٢-٤١٣. أنظر أيضا س. جورباينوف، Le Bosphore et les Dardanelles، باريس، بلون، ١٩١٠، ص ٢٥-٢٧. وهناك إشارات في تيمبرلي، Crimea، ص ٥٧-٥٨، ٤١١؛ فيليبس، Mehemet Ali، ص ٥٤٦ وه. تيمبرلي-ل بنسون، Foundations of British Foreign Policy، كامبردج، مطبعة الجامعة، ١٩٣٨، ص ١١٨

(١٢٩) جورباينوف، المرجع المذكور، ص ٢٩-٣٠

(١٣٠) حول موقف حكومات ويلينجتون-لبرين وجري-بالمرستون في قضايا الحرب الروسية-التركية، والاستقلال اليوناني والاحتلال الفرنسي للجزائر راجع تيمبرلي، Crimea، ص ٥٢-٥٦، ٥٨-٦٢، ٤١٢؛ صبرى L'Empire égyptien sous Mohamed Ali، ص ١٦٩-١٨١، ١٩٠. حول مشروع الاتفاق بين فرنسا ومحمد علي لاحتلال شمال أفريقيا راجع ج. دوان Mohamed Ali et l'expédition d'Aleger (1829-1830)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٣٠؛ نفس المرجع، L'Égypte de 1828 à 1930، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٣٥، الوثائق ٧١-٧٣، ٧٦-٨٠. القاهرة؛ دوان، La première guerre de Syrie، الوثائق ٢-٣

(١٣١) بالنسبة لهذه الوثائق الثلاث راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ١٨٢-١٨٣، ١٨٦.

(١٣٢) راجع أ. سان ماركو، Il regno di Mohammed Ali، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر ١٩٣١، المجلد الثامن، الوثيقة ٤٨؛ ج. دوان، La première guerre de Syrie، في مجلدين، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٣١، المجلد الأول، الوثيقة ١٠؛ أليزون فيليبس، Mehmet Ali، كامبردج، مطبعة الجامعة، ١٩٠٧، ص ٥٤٥، في Cambridge Modern History، المجلد العاشر؛ كان محمد علي قد طلب من الباب العالي في فبراير ١٨٣١ حكم سوريا كمكافأة على المساعدة التي سيقدمها له في قمع ثورة زعيم محلي. راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ٢. وقد سنحت فرصة أخرى لمحمد علي للحصول على سوريا أو الاستيلاء عليها أثناء الأيام الأولى من عام ١٩٣١ نفسه، عندما دعاه باشا سكوتاري في ألبانيا، مصطفى، في تمرد

على الدعوة وفضل الوقوف محايداً: دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٣-١٢، ٨، ٤

(١٣٣) سان ماركو، نفس الموضوع، المجلد الثامن، الوثيقة ٥٠

(١٣٤) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ١٦، ١٩ وص ٧-٩

(١٣٥) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٣٣-٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٦، ٥٢.

(١٣٦) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٤٦، ٥٢، ٥٣، ٥٣، ٦١.

(١٣٧) حول الوزن الحقيقي لمطلب محمد علي، راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٠٠ ودوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ص ١٨-١٩.

(١٣٨) راجع سان ماركو، المرجع المذكور، المجلد التاسع، الوثيقة ١٠٧؛ المجلد العاشر، الوثائق ٥، ١٥؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٠٤-٢٠٦ فى مواضع متفرقة. حول موقف فرنسا، راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٤٢-٤٣، ٥٠، ٥٦، ٦٥، ٦٨، ٧٤، ٧٦، ٨٣، ٨٥، ٩٦، ١٠٨، ١٠٢. الوثائق الإنجليزية لم تنشر بعد.

(١٣٩) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ١٠٤

(١٤٠) دوان، نفس الموضوع، المجلد الأول، الوثائق ١٠٣، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٣٢، ١٣٥. وقد تأخر الرد لكسب الوقت.

(١٤١) حول نشاط القنصل الفرنسى ميمو لدى محمد على والمكلف بالأعمال فارين لدى الباب العالى، راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ١١٩، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٨، ١٣١، ١٣٤، ١٣٩، ١٤١، ١٤٣. فى التعليمات الموجهة للسفير روسين (١٣ ديسمبر ١٨٣٢) كتب وزير الخارجية الفرنسى دو برولى يقول: "نحن لا يمكن ألا نرى باهتمام ميلاد ونمو دولة تقدم منفذاً هاماً لتجارتنا، لامتلاكها ثلاثة ملايين من السكان وأجمل موقع جغرافى فى العالم... دولة يمكن أن تصبح بحريتها فى يوم من الأيام حليفة لبحريتنا فى البحر المتوسط"، (الوثيقة ١٤١)

(١٤٢) Il regno di Mohammed Ali حول حملة محمد على فى سوريا راجع أ. سان ماركو، المجلدات الثامن- العاشر؛ كادالفين وبارو، Histoire de la guerre de Méhémet contre la Port Ottomane en Syrie et en Asie Mineure (1831-1833) باريس، ١٨٣٧؛ بول مورييه، Histoire de Méhémet Ali، مؤلف من ٥ مجلدات، باريس،

١٨٠٧؛ ف. منجین، Histoire sommaire de l'Égypte sous le gouvernement de Mohammed Ali (1823-1838)، باريس، ١٨٣٩؛ دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول؛ صبرى، المرجع المذكور، الفصل الرابع. بالنسبة للإشارة للمصادر الأصلية المخطوطة المصرية راجع ج. دينى، Sommaire des archives turques du Caire، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٣٠، ص ٣٠١-٣٠٥.

(١٤٣) راجع أليزون فيليبس، المرجع المذكور، ص ٥٥١، "موات" المرجع المذكور، ص ١٦٤، الملحوظ، ومذكرة كانينج إلى بالمرستون بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٨٣٢ في C.H.B.P.، المجلد الثانى، ص ٦٣٨.

(١٤٤) حول الطلب التركى والرد الإنجليزى، راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ١١٧، ١٢٠ والمجلد الثانى، ص ص ١٠، ١٢-١٣، ١٦-١٩، الوثائق ١٠، ٢٦؛ تيمبرلى، Crimea، ص ٦٣؛ فيليبس، Méhmét Ali، ص ٥٤٨.

(١٤٥) حول مهمة مورافيف راجع دوان La première guerre de Syrie، المجلد الأول، الوثائق ١٥١-١٥٢؛ المجلد الثانى، ص ص ٧-٩، ٣٥ والوثائق ١-٢، ١٥، ٣١؛ صبرى، المرجع المذكور، ص

(١٤٦) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثيقة ٥. حول مهمته فى الإسكندرية، الوثائق ١٥، ٢٠، ٢٤-٢٥، ٣٨، ٤٨، ٦٣

(١٤٧) نص الخطابات فى دوان، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثيقة ٧

(١٤٨) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ص ١٢-١٩

(١٤٩) راجع خطاب إبراهيم لمحمد على فى ٣ فبراير فى صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(١٥٠) راجع الحديث بين القيصر نيقولا الأول والسفير النمساوى فى بطرسبرج فيكلمونت، بتاريخ ١٨ فبراير ١٨٣٣. نص رسالة السفير إلى حكومته نقله تيمبرلى، Crimea، ص ٦٧-٦٨. أنظر أيضا ف. دو مارتنز، Recueil de Traités et conventions conclus par la Russie avec les Puissances étrangères، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ص ٤٤٢-٤٤٣.

(١٥١) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثائق ١٥، ٢٤، ٢٩

(١٥٢) حول التدخل الروسى ومهمة أورلون راجع جورياينوف، المرجع المذكور، ص ص ٣١-٣٧.

حول المباحثات من فبراير ١٨٣٢ حتى سلام كيوتاهيا راجع ج. دوان، La première guerre de Syrie، المجلد الثاني، ص ٣٦-٩٧ والوثائق ٣٦-١٢٣؛ ج. دوان، La mission du baron de Boislecomte. L'Égypte et la Syrie en 1833 الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٢٧؛ المقدمة والوثائق ١-٢٠؛ صبرى، المرجع المذكور الفصول ٤ و ٥. لم أستطع العثور في إيطاليا على الكتب الإنجليزية الزرقاء، المنشورة كأبحاث ٢١٣، ٢٢٩ في المجلد L من B.P.P.، ١٨٣٩، والتي تتضمن الوثائق الدبلوماسية الإنجليزية. ولكن ملخصات ومقتطفات هذه الوثائق موجودة في المقدمة في المجلد الثاني من دوان، La première guerre de Syrie أنظر أيضا مترنيخ، Mémoires, documents et écrits divers، في ٨ مجلدات، إعداد ريكاردو دو مترنيخ و م. أ. دو كلينكوستروم باريس، بلون، ١٨٨٠-١٨٨٤، الكتاب الخامس، الوثائق ١١٢٨-١١٣٢؛ م جويزو Mémoires pour servir à l'histoire de mon temps، في ١٢ مجلدا. باريس، ليفي، ١٨٥٨-١٨٦٨، الكتاب الرابع، ص ٣٨-٤٧. أنظر قائمة مراجع Cambridge Modern History، المجلد العاشر، ص ٨٥٢-٨٥٥

(١٥٣) راجع تيمبرلي، Crimea، ص ٦٤

(١٥٤) تيمبرلي، Crimea، ص ٦٦. راجع خطاب بالمرستون إلى سير و. تيمبل في ١٩ لأبريل ١٨٣٣ والذي نقله جزئيا ر.ب. "موات" The Egyptian crisis and its sequences 1833-1841، ص ١٦٢، Cambridge History of British Foreign Policy، المجلد الثاني، كامبردج، مطبعة الجامعة، ١٩٢٣. (المجلد الثاني، "موات" يذكر أشلى لمصدر، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٣٨٥. ولكن الاستشهاد غير متطابق).

(١٥٥) بالنسبة للمفاوضات راجع جورياينوف، المرجع المذكور، ص ص ٣٧-٤٢: دوان، La première guerre de Syrie، ص ٩٧-١٠٤ والوثائق ١٤٠-١٧٨، في مواضع متفرقة. من أجل الحصول على تعليق عام على المعاهدة راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ص ٢٥١-٢٦٩. النص في مارتنز-مور هارد، Nouveau Recueil de Traités، المجلد الحادى عشر، ص ص ٦٥٥-٦٥٩

(١٥٦) راجع شيمان، المرجع المذكور، المجلد الثالث، ص ص ٢١٩-٢٢٢؛ جورياينوف، Le Bosphore et les Dardanelles، ص ص ٤٣-٤٦، ٨٩؛ تيمبرلي، Crimea، ص ص ٦٩-٧٢، ٤١٢-٤١٤؛ ب. أ. موزلى، Russian Diplomacy and the opening of the Eastern Question in 1838-1839، كامبردج، مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٣٤، ص ص ٩-٣٠، س.و. كرولى، Anglo-Russian Relations 1815-1840 في Cambridge

Historical Journal، ١٩٢٩؛ ج.أ.ر. ماريوت The Eastern Question، الطبعة الأولى، أكسفورد، مطبعة كلاريندون، ١٩١٧، ص ص ٢٠٩-٢١٠ (الطبعة الثالثة بتاريخ ١٩٢٤، ولكنني لم أستطع الرجوع إليها)؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ص ١٦٥-١٦٨؛ أليزون فيليبس، المرجع المذكور، ص ص ٥٥٥-٥٥٦.

(١٥٧) راجع "موات"، المرجع المذكور، ص ١٦٦، ١٦٨ و C.H.B.F.P.، المجلد الثاني، ص ٦٣٩

(١٥٨) راجع تيمبرلي، Crimea، ص ص ٧٢-٧٣. حول سياسة مترنيخ في ١٨٣٣-١٨٣٤ تجاه القضية الشرقية، راجع تيمبرلي، Crimea، ص ص ٧٩-٨١

(١٥٩) راجع تيمبرلي، Crimea، ص ص ٧٤، ٧٧-٧٨؛ أليزون فيليبس، المرجع المذكور، ص ٥٥٦. حول "الأمر التقديرى" في ١٨٣٤ الذى ألغاه ويلينجتون في ١٨٣٥ وجدده بالمرستون في ١٨٣٦، راجع فى نفس الموضع ص ٧٦-٧٧ وتيمبرلي- بنسون، Foundation، ص ١١٨-١٢١

(١٦٠) راجع "موات"، المرجع المذكور، ص ١٦٨. ومن نوفمبر ١٨٣٤ حتى أبريل ١٨٣٥ كانت هناك حكومة "بيل". وقد ترك بالمرستون ل ويلينجتون نفسه مقاليد وزارة الخارجية، التى لم تغير مع ذلك توجيهاتها، فى القضية الشرقية.

(١٦١) راجع النص فى ف. مارتنز Recueil de traités et conventions conclus par la Russie، الكتاب الرابع، الجزء الأول، ص ص ٤٤٥-٤٤٩ والملاحظة التمهيدية، ص ص ٤٣٥-٤٤٥. للحصول على تعليق، راجع أ. مولدن، Die Orientpolitik Meternichs (1829-1837) فيينا، ١٩١٣؛ شيمان، المرجع المذكور، ص ٥١-٥٢؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ١٦٧.

(١٦٢) راجع بولوير، Life of Palmerston، المجلد الثاني، ص ١٦٩-١٧٠. حول سياسات مترنيخ في ١٨٣٣-١٨٣٤ تجاه القضية الشرقية راجع تيمبرلي، Crimea، ص ٧٩-٨١

(١٦٣) راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٧٤-٢٨٦؛ تيمبرلي، Crimea، ص ٨٠-٨١

(١٦٤) راجع رسالة كامبل إلى بالمرستون فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ٤١٩.

(١٦٥) النص فى تيمبرلي- بنسون، Foundations، الوثيقة ١٢٤ المنقولة جزئيا فى تيمبرلي، Crimea، ص ٨٢

- (١٦٦) حول هذا راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ص ٩٦-٩٨
- (١٦٧) النص فى مارتنز- مور هارد، N.R.T.، المجلد ١٥، ص ص ٦٩٥-٦٩٩. المقالات الإضافية للـ ١٨ التالى. نفس المرجع، نفس الموضوع، ص ص ٦٩٩-٧٠٢. حول المفاوضات راجع ه. ليتون بولوير، The Life of John Temple, Viscount Palmerton، المجلد الثانى، ص ص ٢٥٧-٢٦٥، ٢٧٣-٢٨٠، ٢٨٤-٢٨٥، ٢٨٨ (المؤلف فى مجلدين، لندن، ينتلى، ١٨٧٠، أكمله أشلى بمجلدين آخرين). حول العداء وتفسير روسيا وفرنسا راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ص ٩٧-١٠٢. حول تطبيقه راجع Paper 341 فى B.P.P.، ١٨٤١، المجلد الثامن (السابع الخاص بـ A. و P.)
- (١٦٨) راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ص ٥٢-٥٣. حول تطور السياسة الفرنسية نحو محمد على على بعد ١٨٣٣ راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ص ٣١٠-٣٢٨، ٤٠٥-٤١٦ و ٤٢٠-٤٢٦.
- (١٦٩) راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ص ٤٩-٥٠
- (١٧٠) موزلى، المرجع المذكور، ص ص ٦٥-٦٦. بالمرستون كان يخشى كثيرا قيام تحالف بين فرنسا وروسيا: راجع خطابه إلى كرانفيل فى ٨ يونيو ١٨٣٨ فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٦٨.
- (١٧١) النص موزلى، المرجع المذكور، ص ص ٥٦-٥٧
- (١٧٢) نص الخطاب فى بولوير، Life of Palmerston، المجلد الثانى، ص ص ٢٧٠-٢٧٢
- (١٧٣) حول المفاوضات من أجل عقد مؤتمر للقضية المصرية والعلاقات الإنجليزية- الروسية فى النصف الثانى من ١٨٣٨ راجع موزلى، المرجع المذكور، الفصل الخامس وص ص ١١٧-١٢١؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ص ٤١٦-٤١٩، ٤٢٦-٤٣٧، جورباينوف، المرجع المذكور، ص ص ٥٢-٥٧
- (١٧٤) حول الحرب الصليبية وأصوات الهجوم، راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ١٠٣، ١٠٨-١١٢.
- (١٧٥) راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ص ١٠٥-١٠٨
- (١٧٦) راجع خطابات بالمرستون إلى بونسنبى فى ١٣ سبتمبر ١٨٣٨ فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ص ٢٨١-٢ ومن نفس الشخص لنفس الشخص الآخر فى ١٥ مارس ١٨٣٩ فى Paper n. 304, Correspondance relative to the Affairs of the

levant، الوثيقة ٧، B. P. P.، ١٨٤١، المجلد التاسع والعشرون (الـ ١٧ الخاص بـ A. و P.) المنقول في تيمبرلي- بنسون، Foundation، ص ١٢٧ خطابات بونسنبى إلى بالمرستون فى ٦ و ٢٢ أبريل ١٨٣٩ فى Paper n. 304، الوثائق ٢٣، ٢٦، المنقولة فى تيمبرلي، Crimea، ص ٩٩. انظر أيضا الوثائق ٤٣-٤٤. نص الصورة الأولى من المعاهدة فى Paper n. 304، الوثيقة ٢٦، المرفق ٤. انظر أيضا الوثائق ١٩-٢٠

(١٧٧) حول المفاوضات الإنجليزية- التركية والتدخل الروسى، راجع تيمبرلي، Crimea، ص ٩٨-١٠٠؛ موزلى، المرجع المذكور، ص ٤٣٨-٤٣٩. ولا يوجد عام مؤلف جوريانيوف.

(١٧٨) راجع تيمبرلي Crimea، ص ٩١-٩٢

(١٧٩) النص فى تيمبرلي، Crimea، ص ٨٨-٩٠

(١٨٠) تيمبرلي، Crimea، ص ٩٠

(١٨١) رسالة بالمرستون لى جرانفيل (٨ يوليو ١٨٣٩)، التى نقلها تيمبرلي، Crimea، ص ٩٣.

(١٨٢) رسالة بالمرستون للممثل البريطانى فى القاهرة، كامبل، بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٨٣٨. النص تيمبرلي- بنسون، المرجع المذكور، ص ١٢٦-١٢٧ وبالمثل اعترضى انجلترا على احتلال الباشا لمنطقة "نير" على الفرات: راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٣٠٢

(١٨٣) النص فى صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٩١-٢٩٦

(١٨٤) حول أسباب عدااء بالمرستون تجاه محمد على، راجع تيمبرلي، Crimea ص ٩٢؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٨٨-٣٠٦؛ ل. هو سكينز؛ British Routes to India، الفصول ١، ١٣، ١٩٢٨؛ هـ. دودويل، The foundation of modern Egypt: study of Mohammed Ali، كامبردج، مطبعة الجامعة، ١٩٣١، ص ١٤٩-١٥١.

(١٨٥) نفس الممثل البريطانى فى القاهرة، كامبل، كان يعترف فى رسالة إلى بونسنبى (١٧ يوليو ١٨٣٩) "بعدم صحة كثير من الشكاوى المقدمة من الباب العالى ضد محمد على": النص فى Paper n. 304، ص ١٩٤، مرفق ٤. وقد وبخ بالمرستون كامبل على هذه الرسالة لأنها "ضد مشاعر الحكومة البريطانية" وأقاله فى سبتمبر: راجع تيمبرلي، Crimea، ص ١٠٧

(١٨٦) حول مسئولية السلطان كمعتد- راجع جويوز، Mémoires، المجلد الرابع، ص ٣٣١-

٣٣٤ وص ٤٧٩-٤٨٤؛ أ. دريو، *L'Égypte et l'Europe: la crise de 1839-1841*، في مجلدات، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٣٠-١٩٣٤، المجلد الأول، الوثائق ٦-١، ١١. ولكن روسيا أبلغت محمد علي أنها تعتبره "معتدياً": راجع دريو، نفس الموضوع، الوثيقة ٧.

(١٨٧) راجع دريو، *L'Égypte et l'Europe*، المجلد الأول، الوثيقة ٨ (ص ٢٤)، المجلد الثاني (ص ٣٦)، تقارير الممثل الفرنسي في القاهرة، كوشليه، الوزير الخارجية، سولت، بتاريخ ١٥ مايو والسفير البابوي النمساوي بتاريخ ٢٨ مايو ١٨٣٩.

(١٨٨) النص في دريو، *L'Égypte et l'Europe*، المجلد الأول، الوثيقة ١٢ (ص ٥١).

(١٨٩) حول هذه الأحداث راجع أ.ج. بوليتيس، *Le conflit Turco-Égyptien de 1838-41*، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا في مصر، ١٩٣١، الوثائق ٤٨-٦٣، دريو، الوثائق ٦-٣٦ في مواضع متفرقة، ص ٥٣-٦٢؛ تيمبرلي، *Crimea*، ص ١٠٤-١٠٥؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٤٤٣-٤٤٦؛ مولتكة، *Gesammelte Schriften*، المجلد الثاني، برلين، ميتر، ١٨٩٢، ص ص ٢٩٨-٣١٤؛ مولتكة، *Lettres du maréchal de Moltke sur l'orient*، باريس، ساندوز وفيشباخر، ١٨٧٢، الخطاب ٦٣ (*La bataille de Nisib*). وكان مولتكة مع قوات حافظ.

(١٩٠) حول قضية نقل الأسطول راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٣٨، ٤٦، ٤٧-٥١؛ المجلد الثاني، الوثيقة ٢٨.

(١٩١) راجع *Memoires*، المجلد الرابع، ص ٣٤٢.

(١٩٢) دريو، *L'Égypte et l'Europe*، المجلد الأول، الوثائق ٤١-٤٣. أنظر أيضا ٢٠-٣٠؛ بوليتيس؛ المرجع المذكور، الوثيقة ٦٤، صبرى، المرجع المذكور، ص ٤٥٤.

(١٩٣) لطررد كوزريف، طلب مساندة المفتي الأكبر في القسطنطينية وباشوات الباب العالي الستة عشر، راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٤٧، ٥٠، ٦٦.

(١٩٤) راجع خطاب بالمرستون إلى جرانفيل بتاريخ ١٩ يوليو ١٨٣٩ في بولوير، *Life of Palmerston*، المجلد الثاني، ص ٢٩٥.

(١٩٥) حول السياسة المصرية عند "سولت"، من أبريل إلى يوليو ١٨٣٩، والمنقذة عامة، راجع دريو، *L'Égypte et l'Europe*، المجلد الأول، ص ٥٢-٦٨ والوثائق ١١، ٢٥، ٣٤، ٥٢، ٥٣؛ جويزو، *Mémoires*، المجلد الرابع، ص ٣٣٥-٣٤١، ٣٥٧-٣٦١؛

'موات'، المرجع المذكور، ص ١٧١-١٧٢. نص رسالة ١٧ يوليو في دريو، L'Égypte et l'Europe، المجلد الأول، الوثيقة ٤٤ وفي جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٥١٢-٥١٣.

(١٩٦) راجع جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٣٤٨؛ دريو، المرجع المذكور، ص ٤٥٦-٤٥٧. ولا توجد إشارة في Mémoires مترنيخ.

(١٩٧) النص في Paper n. 304، الوثيقة ٢٢٦، المرفق ١؛ د مارتنز- مورهارد، Nouveau Suppléments، المجلد الثالث، ص ٨٧٥-٨٧٦. بالنسبة للمراسلات التي جرت بين مختلف الحكومات الأوربية والطرفين المتحاربين راجع Paper n. 304، الوثائق ٤٥-٢٢٦ في مواضع متفرقة؛ صبرى، المرجع المذكور، ٤٥٧-٤٦١. جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٣٤٣-٣٤٨؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٤٨٤-٥٤٦. حولها راجع تيمبرلى، Crimea، ص ١٠٨؛ تيمبرلى- بنسون، Foundations، ص ١٢٢؛ ماريوت، المرجع المذكور، ص ٢١٢-١٣.

(١٩٨) دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ٥٧

(١٩٩) حول موقف بوتينف، راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ١٠٤

(٢٠٠) دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٥٩، ٦٣-٦٤؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٨٥، ٨٩؛ المجلد الثانى، الوثيقة ٦.

(٢٠١) دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٥٩-٦٠. الاتفاق المباشر لقي تشجيع روسيا؛ الوثائق ٧٩، ٨١. راجع أيضا بوليتيس، المرجع المذكور، الوثائق ٦٦-٦٧، ٦٩، ٧٢.

(٢٠٢) راجع Paper n. 304، الوثائق ٢٨٦، ٢٨٨؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ٦٦، جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٣٤٣؛ تيمبرلى، Crimea، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢٠٣) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ٨٥ (ص ٣٢٩-٣٣٩) و ٨٩.

(٢٠٤) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٨٣-٩١؛ بوليتيس، المرجع المذكور، الوثيقة ٧٣.

(٢٠٥) حول أهداف توسع محمد على راجع تيمبرلى، Crimea، ص ١٠٠-١٠٣ وسان ماركو، Il Regno di Mohammed Ali، المجلد الثامن، وثائق مختلفة.

(٢٠٦) راجع جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٣٤٩ - ٣٥٥؛ المجلد الخامس، ص ٢٧-٢٩؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٩٥-٩٦؛ بولير، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ٢٩٦-٢٩٨.

(٢٠٧) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثيقة ١، ص ٢١-١.

(٢٠٨) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثيقة ٢٩.

(٢٠٩) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثيقة ٣٥، بوليتيس، المرجع المذكور، الوثائق ٧٦-٧٧.

(٢١٠) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثائق ٤٣، ٣٨، ٤٢، ٥٨-٦٣.

(٢١١) دريو، المرجع المذكور، المرجع الثاني، الوثيقة ٢٩ (ص ٨١).

(٢١٢) راجع نفس الموضع، ص ٧٨-٨٠.

(٢١٣) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثائق ٣٤، ٤٧.

(٢١٤) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ٥٥-٥٨.

(٢١٥) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ١٧-١٨.

(٢١٦) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثيقة ١ (رسائل من زميرنه، ٢٩ أكتوبر والقسطنطينية، ٤ نوفمبر)، ٢ (رسالة لكوشليه في ٥ نوفمبر)، ٩ (رسالة من القسطنطينية في ١٩ نوفمبر)، ١٠ و ١١ (رسائل كوشليه في ٢٠ و ٢٦ نوفمبر)، ١٤ (رسالة سولت إلى كوشليه في ٧ ديسمبر)، ١٥ (رسالة من القسطنطينية في ٩ ديسمبر)، ١٦ (خطاب محمد علي إلى كوشليه في ١٦ ديسمبر)، ١٧ (رسالة كوشليه في ١٦ ديسمبر)، ٢٩، ص ٧٩ (رسالة كوشليه في ٥ يناير ١٨٤٠)، ٧٧ (رسالة كوشليه في ٢٦ مارس).

(٢١٧) راجع دريو، المجلد الثاني، الوثائق ٢١-٢٢-٢٨.

(٢١٨) حول ما يسمى ب "عرض سياستيانى"، راجع Paper n. 304 الوثائق ٣٠٦، ٢٨١، ٣١٣، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٧٩، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠٣، جويزو، Mémoires، المجلد الرابع، ص ٣٥٨ - ٣٦٣؛ ٣٧٠، ٥٤٦ - ٥٧٤، تيمبرلي، Crimea، ص ١١٣، صبرى، ص ٤٧٥-٤٧٧، "موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٣-١٧٥ في مواضع متفرقة.

(٢١٩) راجع خطاب بالمرستون إلى بونسنبى، في ٢ ديسمبر ١٨٣٩ في تيمبرلي - بنسون،

Foundations، ص ١٢٧-١٢٨؛ مقتطف في Paper 304، الوثيقة ٣٩٨.

(٢٢٠) راجع رسائل ٢٢، ٢٧، ٣١ أغسطس الخاصة بالسفير الإنجليزي في بطرسبرج كلانريكارد في Paper n. 304، الوثائق ٢٩٠-٢٩٣. راجع بولير، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ٢٩٩؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ١٣٧

(٢٢١) راجع أليزون فيليبس، Méhémet Ali، ص ٥٥٧.

(٢٢٢) حول مهمتي برونو والاتفاق الإنجليزي-الروسي راجع ----، الوثائق ٤١٩، ٤٢٧، ٤٣٠، ٤٤٥-٤٤٦، ٤٥٦-٤٥٧، ٥٠٦؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٥٥٩-٥٧٤؛ جوريا ينوف، المرجع المذكور، ص ٦٢-٧٦؛ بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ٢٩٩-٣٠٣، ٣٠٥-٣٠٧؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٣؛ تيمبرلي Crimea، Paper 304، ص ١١١-١١٢، ٤٢٦. وقد أعيدت صيغة الاتفاق مرة أخرى؛ راجع جورياينوف ص ٧٦-٨١

(٢٢٣) حول مهمة كامل، راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثائق ٢٣، ٣٩؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ص ٤٠-٤٠٣.

(٢٢٤) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثيقة ٩٣ أنظر أيضا الوثيقة ٩٥

(٢٢٥) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثائق ٩٨-١٠٠، ١١٨، ١٢٦.

(٢٢٦) راجع جويزو، المرجع المذكور، الكتاب الخامس، الفصل الثامن والعشرون؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، في مواضع متفرقة.

(٢٢٧) راجع النص في Paper 304، الوثيقة ٥٤١؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ص ٤٢٠-٤٢٣؛ دريو، المرجع المذكور، الوثيقة ٩٠

(٢٢٨) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ١٠؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ٤٢٥؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٦. أنظر أيضا ص ص ٧٥-٨٥. حول السياسة المصرية، هناك بعض الإشارات ولكنها غير كافية، سيرة هـ. مالو، Thiers (1796-1877)، باريس، بايوت، ١٩٣٢، ص ٢٩٦-٢٩٧، ٣٠٤-٣٠٧.

(٢٢٩) راجع Paper 304، الوثيقة ٥٤٣

(٢٣٠) راجع تقارير المفاوضات في رسالة بالمرستون إلى السفير بولوير بتاريخ ٢١ يوليو ١٨٤٠ في Paper 323: Correspondence relative to the Affairs of Levant، الجزء الثاني، الوثيقة ١٠ في B.P.P.، المجلد التاسع والعشرون؛ جويزو، المرجع

- المذكور، الكتاب الخامس، ص ٨٥-٨٧؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٤٩١-٤٩٣.
- (٢٣١) راجع رسالة كوشليه إلى وزير خارجية في ٦ مايو ١٨٤٠ في دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، الوثيقة ١٠٣. انظر أيضا الوثيقة ١٢١
- (٢٣٢) راجع "موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٦-١٧٧ وص ٦٣٩-٦٤٠
- (٢٣٣) حول مهمة سامى راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثاني، ص ص ٨٤-٨٥، الوثائق ٣، ١٢، ١٢٨، ١٢٩ والمجلد الثالث، ص ص ٦-٩، الوثيقة ١، ٨، ١٠، ١٢، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣٠؛ Papers 323، الوثيقة ٦٥؛ جويزو، Mémoires، المجلد الخامس، ص ٢٠٨-٢١٠؛ تيمبرلى، Crimea، ص ص ١١٧-١١٨ في مواضع متفرقة؛ بوليتيس، المرجع المذكور، الوثائق ٨٧-٩٧؛ أليزون فيليبس، المرجع المذكور، ص ٥٦٧.
- (٢٣٤) راجع النص في تيمبرلى، Crimea، ص ٤٨٧-٤٨٨.
- (٢٣٥) بالنسبة للمفاوضات راجع مترنيخ، Mémoires، الكتاب السادس، الوثائق ١٣٥٩-١٣٦٧، ١٣٧٤، ١٣٧٦، ١٣٧٨، ١٣٨٠-١٣٨١، ١٣٨٦-١٣٨٧، ١٣٩٨-١٣٩٠، ١٣٩٧-١٤٠١ صبرى، المرجع المذكور، ص ص ٤٩٥-٤٩٩، جورباينوف، المرجع المذكور، ص ٨١-٨٢؛ ماريوت، المرجع المذكور، ص ٢١٥-٢١٦.
- (٢٣٦) النصوص في دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٩١-٩٤؛ Paper 305، الوثائق ٦١٥-٦١٨؛ مارتز، Nouveau Recueil Général de Traités، المجلد الأول، ص ١٥٦. الملخص في تيمبرلى، Crimea، و ص ١١٥-١١٦؛ تيمبرلى- بنسون، المرجع المذكور، ص ١٢٢
- (٢٣٧) حول هذه الأوامر، راجع Paper 323، الوثائق ١٤-١٦، ١٨، ٢٠، ٢٧؛ دريو، المجلد الثالث، الوثائق ٤٢ و ٤٣؛ تيمبرلى، Crimea، ص ١١٨-١١٩
- (٢٣٨) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٣٢، ٣٧
- (٢٣٩) راجع Paper 323، الوثائق ١١٧، مرفق ٢؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٣، ٥٨، ٦٦.
- (٢٤٠) راجع Paper 323، الوثيقة ١٣٠؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٥٤، ٥٨، ٥٩، ٧٠، ٧٧-٧٨، ٩٥.
- (٢٤١) راجع دريو، المرجع المذكور، الوثائق ٧١، ٧٥، ٧٩-٨١

(٢٤٢) راجع Paper 323، الوثيقة ١٧٨؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٨٥، ٨٩، ١٠١.

(٢٤٣) للحصول على تقرير عن العمليات والمصادر المرجعية راجع تيمبرلي، Crimea، ص ١٢٠-١٣٠؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٥١٣-٥٢٦؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث فى مواضع متفرقة.

(٢٤٤) راجع Paper 323، الوثيقة ١٧٨؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثيقة ١٨.

(٢٤٥) راجع مالو، Thiers، ص ٣٠٨-٣١٤؛ دو لازاد، Monsieur Thiers، باريس، بلون، ١٨٨٤، ص ١٥٠-٥٥؛ "موت"، المرجع المذكور، ص ١٧٧-١٧٨؛ أليزون فيليبس، التاريخ المذكور، ص ٥٦٨-٥٧٠.

(٢٤٦) راجع نص المذكرة فى Paper 323، الوثيقة ١٧. حول القطيعة الإنجليزية- الفرنسية ودفاع بالمرستون عن عمله، راجع خطاب بالمرستون إلى بولوير فى ٣١ أغسطس ١٨٤٠. فى Paper 323، الوثيقة ٩١ ودريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثيقة ٧٩ والخطاب الآخر من بالمرستون إلى ملبورن بتاريخ ٥ يوليو ١٨٤٠ فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، من الجانب الفرنسى راجع جويزو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الفصل الحادى والثلاثون وص ٤٤٥-٤٤٦.

(٢٤٧) حول مهمة واليسكى، راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٥٠٢-٥٠٨ دريو، المرجع المذكور، المرجع الثالث، الوثائق ٤٨، ٥٠، ٥٩، ٦٢، ٧٠، ٧٥، ٨٨، ١٠٣، ١٢٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٦٢.

(٢٤٨) تيمبرلي- بنسون، Foundations، ص ١٢٢-١٢٣؛ فيليبس، Méhémet Ali. المالو، المرجع المذكور، ص ٣١٦ ينقل الجملة التالية عن بالمرستون: "إذا ألقن فرنسا بقفازاها فلا بد من النقاطه. وستفقد فرنسا الأسطول والمستعمرات والتجارة والجزائر، وسيلقى الباشا فى النيل. وقد فعلت هذا دائما فى كل مرة يبدأ فيهل السفيران جوزو و بوركىنى فى القيام ببعض الأعمال الاستقلالية وقد لاحظت أن هذا يعمل دائما كمهدى". وكان بالمرستون واثقا من أن تبرز لن يذهب أبعد من التهديدات الشفوية: راجع خطابه إلى بولوير بتاريخ ٢١ يوليو ١٨٤٠ فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣١٥-٣١٨

(٢٤٩) مالو، Thiers، ص ٣٠٧-٣٠٨

(٢٥٠) راجع Paper 323، الوثيقة ٥٦، ٦١، ٦٧، ٧٨؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد

الخامس، الفصل ٣٢ فى مواضع متفرقة؛ بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٣٣-٣١٩

(٢٥١) نص البروتوكول فى Paper 323، الوثيقة ١٣٩ و دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثيقة ٩٧

(٢٥٢) Paper 323، الوثائق ١٤٩، ١٣٥، ١٥٦، ١٦٨، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٣، ٢٠٧، ٢٠٩-٢١١، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٦؛ Paper 337, Correspondence relative to the Affairs of the Levant، الجزء الثالث؛ الوثائق ١-٦، ٢٥-٢٩، ٣٨، ٥٧، ٣٦، ٦٥، فى B.P.P.، ١٨٤١، المجلد الثامن (السابع لـ A. و P.)؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٥٢٦-٥٣١؛ مالو، المرجع المذكور، ص ٣١٧-٣١٨؛ "موات"، ص ١٧٨.

(٢٥٣) راجع النصوص فى Paper 323، الوثيقة ١٨٣، ٢١٣؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٣٣٧ و ص ٥٠٦-٥٠٩. أنظر أيضا بوليتيس، المرجع المذكور، الوثيقة ١٠٣، بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٧٦-٣٨٣ فى مواضع متفرقة مالو، المرجع المذكور، ص ٣١٩. دافع تيرز عن سياسته فى مجلس النواب فى جلسة ٢٥ نوفمبر.

(٢٥٤) Paper 323، الوثائق ٢٥٨-٢٦٢

(٢٥٥) راجع جويزو، Mémoires، المجلد السادس، ص ٤٠-٤١، دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ٨-٩، ٣٤.

(٢٥٦) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ٦-٧، ١٥.

(٢٥٧) راجع النص فى دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ١٠. للحصول على تعليق بالمرستون على المديح الفرنسى تجاه محمد على، راجع بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٦٣-٣٦٤.

(٢٥٨) حول رسالة ٢ نوفمبر، راجع جويزو، Mémoires، المجلد السادس، ص ٤٢-٤٦؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٢

(٢٥٩) حول تعليمات بالمرستون فى ١٥ أكتوبر و ١٤ نوفمبر راجع Paper 323، الوثيقة ٢٣٠، Paper 337، الوثائق ٢٢-٢٤؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ١٩، ٢٤؛ تيمبرلى، Crimea، ص ١٣١-١٣٢.

- (٢٦٠) النص في Paper 337، الوثيقة ٨٧. حول الاتفاقية Paper 337، الوثائق ٨٣-٨٧ راجع
تيمبرلي، Crimea، ص ١٣٣؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ١٠٨
- (٢٦١) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٤١
- (٢٦٢) راجع Paper 337، الوثيقة ٩٢؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٤٨؛
جوزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٥٧-٥٩.
- (٢٦٣) راجع Paper 337، الوثائق ١١٥، ١٢٤، ١٣٣، ١٤٣؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد
الرابع، الوثائق ٤٢-٤٥، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٦١؛ تيمبرلي، Crimea، ص ١٣٥
- (٢٦٤) راجع Paper 337، الوثيقة ١٣٢، المرفق؛ جوزو، المرجع المذكور، المجلد السادس، ص
٦١-٦٤؛ تيمبرلي، Crimea، ص ١٣٨
- (٢٦٥) راجع Paper 337، الوثائق ١٠٣-١٠٤
- (٢٦٦) راجع Paper 337، الوثيقة ٩٣؛ جوزو، المرجع المذكور، المجلد السادس، ص ٦٦؛
تيمبرلي، Crimea، ص ١٣٦-١٣٨
- (٢٦٧) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ٦٤
- (٢٦٨) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ٦٧-٦٨؛ بوليتيس، المرجع
المذكور، الوثيقة ١١٣
- (٢٦٩) نص المذكرة في دريو، المجلد الرابع، الوثيقة ٨٠. أنظر أيضا جوزو، المرجع المذكور،
المجلد السادس، ص ٧١
- (٢٧٠) النص في دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٩٦
- (٢٧١) النص في دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٩٧
- (٢٧٢) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ١٠٨-١٠٩، ١١٣-١١٥.
- (٢٧٣) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ١٢٣.
- (٢٧٤) راجع نص الروتوكول دريو، المجلد الرابع، الوثيقة ١٢٠. أنظر أيضا الوثيقة ١٢٩.
- (٢٧٥) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ١٣١
- (٢٧٦) جوزو، المرجع المذكور، المجلد السادس، ص ٧١-١٠٣؛ دريو، المرجع المذكور،
المجلد الخامس، الوثيقة ٦

- (٢٧٧) راجع دريو، المرجع المذكور، الوثائق ١٢، ٢٠، ٢٣
- (٢٧٨) راجع نص المذكرة في دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الوثيقة ٢٩.
- (٢٧٩) راجع النص في دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الوثيقة ٣٧. حول النشاط الدبلوماسي للحكومات الأوروبية في شهر أبريل- مايو راجع جويزو، Mémoires، المجلد السادس، ص ١٠٥-١٢٢.
- (٢٨٠) راجع النص في دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الوثائق ٤٠ و ٤٠ مكرر. (في التاريخ باللغة التركية لـ "لطفى"، المجلد - ص ١٤٣ وكما في الـ Recueil des firmans impériaux ottomans adressés aux valis et aux Khédives d'Égypte القاهرة، ١٩٣٤، ص ٢٣٣، وهذه الوثيقة بتاريخ ٢ ربيع الثانى ١٢٥٧، المقابل لـ ٢٤ مايو ١٨٤١. ملحوظة لمكتب التحرير.)
- (٢٨١) راجع دريو، المجلد الخامس، الوثيقة ٥٣
- (٢٨٢) راجع دريو، المجلد الخامس، الوثائق ٨١، ٨٩
- (٢٨٣) النص في مارتنز-مورهارد، Nouveau Recueil général de traités، المجلد الثانى، جوتينجا، دييتريتش، ١٨٤٤، ص ١٢٠-٢٧
- (٢٨٤) النص في مارتنز- مورهارد، المجلد الثانى، ص ١٢٨-١٣٠.
- للحصول على تعليق راجع جورياينوف، المرجع المذكور، ص ٨٢-٨٣

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القوامى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد نرويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتيكوفا	أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التفيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار چينيت	محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر طلى
١١- مختارات شعرية	فيسوفا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للألب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إنوارد لوسى سميث	أشرف رقيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء (ج١)	مارتن برنال	يأشراف أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى وبدوى عبد الفتاح
٢١- خوذة وألف خوذة وقصص أخرى	سمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارنر	بكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	يأشراف جابر عصفور
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحدائق	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٢٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٢٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٢٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزبوج	أوكتايفو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغنود	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأنبي الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	ه . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأتطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوبيا وخ . م . بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب . نواليس وس . روجيفيتز ووجريل	لطفى قطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألتجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونيث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الفنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميت	باشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذة النص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأنبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	للعلم الإسلامى فى أولال القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	جين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	يوريس أوسپنسكى	سعيد الفانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيجة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صانقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلع (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيننز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - يشونياك	محمد هتاء عبد الفتاح
٩٢-	لسانيل ومضامين المسرح الإشبتيامريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإشباني	أنطونيو بوپرو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إيوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	بيفيد روينسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساطة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإبريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤذب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	بزنولت بريشت	عبد الغفار مكلوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعور
١٠٧-	صورة الفنان فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	هروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	رأية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصار كونجى وسكان المستقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وواف	سمية رمضان
١١٦-	امراة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة والعرائن الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبيل	بإشراف: روف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لعد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القيم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها العولية	أنيتل ألكسندرو فناوليئا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جراى	أحمد فؤاد بليغ
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديثى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	فولفغانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروت	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندز فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولة	مايك فينرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	منكرات ضابط فى العملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيقال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولوننى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البعبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد نورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراغة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامي الكنجوى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسوي	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاکوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسييفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والطماعين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رابندرناث طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دالبيس	يسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة: حالة لا تنام	هانز إبنورفر	دسوقي سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

سعيد الغانمي	بول دي مان	العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	١٨٩-
محسن سيد فرجاني	كونفوشيوس	محاورات كونفوشيوس	١٩٠-
مصطفى حجازي السيد	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	الكلام رأسمال وقصص أخرى	١٩١-
محمود علاوي	زين العابدين المراغي	سياحت نامة إبراهيم بك (ج١)	١٩٢-
محمد عبد الواحد محمد	بيتر أبراهامز	عامل المنجم (رواية)	١٩٣-
ماهر شفيق فريد	مجموعة من النقاد	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث	١٩٤-
محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	شتاء ٨٤ (رواية)	١٩٥-
أشرف الصباغ	قالتين راسبوتين	المهلة الأخيرة (رواية)	١٩٦-
جلال السعيد الحفناوي	شمس العلماء شبلي النعماني	سيرة الفاروق	١٩٧-
إبراهيم سلامة إبراهيم	إبراهيم إمري وآخرون	الاتصال الجماهيري	١٩٨-
جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد	يعقوب لاندوا	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	١٩٩-
فخرى لبيب	جيرمي سيبروك	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	٢٠٠-
أحمد الأنصاري	جوزايا رويس	الجانب الديني للفلسفة	٢٠١-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٤)	٢٠٢-
جلال السعيد الحفناوي	ألفاف حسين حالي	الشعر والشاعرية	٢٠٣-
أحمد هويدي	زالمان شازار	تاريخ نقد العهد القديم	٢٠٤-
أحمد مستجير	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	الجنات والشعوب واللغات	٢٠٥-
علي يوسف علي	جيمس جلايك	الهيولانية تصنع علماً جديداً	٢٠٦-
محمد أبو العطا	رامون خوتاسنديز	ليل أفريقي (رواية)	٢٠٧-
محمد أحمد صالح	دان أوربان	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	٢٠٨-
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	السرد والمسرح	٢٠٩-
يوسف عبد الفتاح فرج	سنائي الغزنوي	مثنويات حكيم سنائي (شعر)	٢١٠-
محمود حمدي عبد الغني	جوناثان كلر	فردينان دوسوسير	٢١١-
يوسف عبد الفتاح فرج	مرزيان بن رستم بن شروين	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان	٢١٢-
سيد أحمد علي الناصري	ريمون فلاور	مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	٢١٣-
محمد محيي الدين	أنتوني جينز	قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	٢١٤-
محمود علاوي	زين العابدين المراغي	سياحت نامة إبراهيم بك (ج٢)	٢١٥-
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	جوانب أخرى من حياتهم	٢١٦-
نادية البنهاوي	سمويل بيكيت وهارولد بينتر	مسرحيتان طليعيتان	٢١٧-
علي إبراهيم منوفي	خوليو كورتاثان	لعبة الحجلة (رواية)	٢١٨-
طلعت الشايب	كانو إيشجورو	بقايا اليوم (رواية)	٢١٩-
علي يوسف علي	باري پاركر	الهيولانية في الكون	٢٢٠-
رفعت سلام	جريجوري جوزدانيس	شعرية كفافى	٢٢١-
نسيم مجلى	رونالد جراي	فرانز كافكا	٢٢٢-
السيد محمد نفاذي	باول فيرابند	العلم في مجتمع حر	٢٢٣-
منى عبدالظاهر إبراهيم	برانكا ماجاس	نمار يوغسلافيا	٢٢٤-
السيد عبدالظاهر السيد	جابريل جارشيا ماركيث	حكاية غريق (رواية)	٢٢٥-
طاهر محمد علي البربري	ديفيد هريت لورانس	أرض المساء وقصائد أخرى	٢٢٦-

٢٢٧-	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	خوسيه مارييا ديث بوركي	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيغان	أمير إبراهيم العمري
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز چاكوب	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١-	الرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال في التاريخ القريب	أرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمينجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزي (ج١)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شوكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادي	روين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكاد	ياسر محمد جادالله وعربي مديولى أحمد
٢٣٩-	العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاي حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	في انتظار البرابرة (رواية)	ج. م. كوتزي	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من القموض	وليام إمبسون	صبري محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفتسال	ياشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكييل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابريل جارتيا ماركيث	على إبراهيم متوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحدائق في مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	بومنيك فينك	ماجدة محسن أباطة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جوردون مارشال	ياشراف: محمد الجوهري
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومي
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روينسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روينسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روينسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الفجر	سير أنجوس فريزر	عبادة كحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	نخبة	فاروجان كارانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جوردون مارشال	ياشراف: محمد الجوهري
٢٦١-	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إنواربو مندوتا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلي	لويس عوض

روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض	٢٦٥-
مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبد المنعم على	٢٦٦-
فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي	٢٦٧-
ديوان شمس تبريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا	٢٦٨-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن	٢٦٩-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن	٢٧٠-
الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال	٢٧١-
الآديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم	٢٧٢-
الاصول الاجتماعية والثقافية لمكة عرابي في مصر	جوان كول	عنان الشهاوي	٢٧٣-
السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكي	٢٧٤-
س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد	٢٧٥-
فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبد القادر التمساني	٢٧٦-
الحيثيات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي	٢٧٧-
البدائيات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله	٢٧٨-
الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب	٢٧٩-
الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٠-
الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوي	٢٨١-
طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق	٢٨٢-
السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الحرف البعبي	٢٨٣-
هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان	٢٨٤-
رحلة خواجه حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٥-
سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي	٢٨٦-
الثقافة والعولة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون	٢٨٧-
الفن الروائي	ديفيد لودج	ماهر البطوطي	٢٨٨-
ديوان منوچهری الدامغانی	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبد المنعم	٢٨٩-
علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم	٢٩٠-
تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩١-
تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩٢-
مقدمة للأدب العربي	روجر آلن	مجدي توفيق وآخرون	٢٩٣-
فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت	٢٩٤-
سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب	٢٩٥-
مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي	٢٩٦-
فن النحو بين اليونانية والسريانية	ليونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور	٢٩٧-
مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد	٢٩٨-
ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد	٢٩٩-
أسطورة بروكثيرس في الأدب الإنجليزي والفرنسي (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيري وبهاء جاهين وإيزابيل كمال	٣٠٠-
أسطورة بروكثيرس في الأدب الإنجليزي والفرنسي (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي	٣٠١-
أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفرز	إمام عبد الفتاح إمام	٣٠٢-

٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارت	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بايينو وهوارد سابين	محمود مكي
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز ويورن فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٣١١-	مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديوييس	أسعد حلیم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعیدی
٣١٤-	مارسيل نوشامب: الفن كعدم	چانیس مینیک	هويدا السباعی
٣١٥-	جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحی
٣١٦-	محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسیم مجلی
٣١٧-	بلا غد	س. شیر لایموف- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى سبيثاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ١)	ليفي بروفنسال	ياشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو يوجين كلينياور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزی
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوی
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامي صلاح
٣٣١-	عندما جاء السريدين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفی
٣٣٣-	الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩-	تاريخ الأدب في إيران (ج ٢)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخري لبيب

٣٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمي
٣٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٣٤٧-	الصبية الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (ج١)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصاري
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو يابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو يابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنتيرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد پرنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة بكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام الستين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل باث	٣٧٩- ملك في الحديقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	٣٨٠- حديث عن الخسارة
راتيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٣٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادي	بهاء الدين محمد اسفنديار	٣٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٣٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٣٨٥- مشتري المشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٣٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء چاهين	چون دن	٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازى	٣٨٨- مواظ سعدى الشيرازى (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٣٩٠- الارشيفات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشى	٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)
عبداللطيف عبدالحميد	فرناندو دي لاجرانجا	٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٣٩٣- في قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	پول ديفيز	٣٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٣٩٥- آلام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى نجارى راد	٣٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيلى شين	٣٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٣٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	٣٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد المنعم	زياودن ساربر وأخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
طلبة خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه
عنان الشهاوى	چوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	چينيفر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش نورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاريز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	چين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجاسي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندرجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزدران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياقللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	يونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زيرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبللى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عيسى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروسفاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	قخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جورجياتى
٤٤٣-	الغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستينغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	الكسنر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السيد	تراث شعبى إسباني	الطاهر أحمد مكي
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محي الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن ويون فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكأن	داريان ليدر وجوى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة الحارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصّة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلى	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الانتصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزيسكى وآخرون	محمد السيد التنتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	نون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	نون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى تونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت يابوس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسْرُل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسْرُل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار البقاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الألب الأفرقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوبي	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصري
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوانو بانولي	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والتنوع في الشرق الأوسط	ناية العلي	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والتنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوي
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والتنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز روكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمعزم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهمي
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبد الباقي جلبنارلي	عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان في عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولونوني	عبد الرزاق عيد
٥١١-	كوكب مرقع (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطي نوجلاس	فدوى مالطي نوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإدمان	أرنولد واشنطن وديونا باوندي	صبري محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا روس	أحمد الأنصاري
٥٢٠-	الولع الفرنسي بمصر من الطم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٣-	الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن	باسيليو بابون مالدونانو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥-	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيغن كروول ووليم رانكين	محيي الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكي والماركسية	طارق علي وغل إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذي حثَّ في «حدث» ١١ سبتمبر؟	چاك بريددا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل منتجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفار مكاوي
٥٣٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانييل	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودي وأن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن ويورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	علي عبد الرؤف اليمبي
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية لقرن العاشر والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيوبين ساردارويورن فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	رود الخريف (مسرحية)	خايننتو بينابينتتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خايننتو بينابينتتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	دييورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧-	الوطن المفتعب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصول في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩ - موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠ - دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١ - تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢ - الطب في زمن الفراغة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣ - أقدم لك: فرويد	ريتشارد ايجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤ - مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥ - الاقتصاد السياسي للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦ - فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧ - مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨ - الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩ - أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وجودي جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠ - دائرة المعارف النولية (مج ١)	جون فيزر وپول سيجرجز	ياشرف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١ - الحقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢ - مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣ - الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤ - سفر (رواية)	محمود نولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥ - الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦ - السينما العربية والأفريقية	ليزييث مالكموس وروى أرمن	سهام عبد السلام
٥٨٧ - تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدى
٥٨٨ - أمحنوتپ الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩ - تمبكت العجبية	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠ - أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١ - الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالنواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢ - الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣ - قصائد ساحرة	پول قاليرى	بكر الحلو
٥٩٤ - القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥ - الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج ٢)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦ - الصحة العقلية فى العالم	روبرت نيجارايه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧ - مسلمو غرناطة	خوليو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨ - مصر وكتعان وإسرائيل	نونالد رينفوردي	بيومى على قنديل
٥٩٩ - فلسفة الشرق	هرداد مهريز	محمود علاوى
٦٠٠ - الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١ - النسوية والمواطنة	ريان قوت	أيمن بكر وسمير الشيشكى
٦٠٢ - ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣ - النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤ - الكوارث الطبيعية (مج ١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥ - مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصفير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦ - قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المبخنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأبديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماس ماستاك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوارى جحا الإيرانية	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان چينيه	محمد يرادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولنده	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتز	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فننق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أناكومينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الريبابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد ديتيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سبهر نبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسيبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفاة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستارى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنور	داسو سالدنيار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امراة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وأنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومحدث الجبار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القائمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولندر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	ول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أنولفو	جوستاف أنولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهاال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	باشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	باشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، ج٢)	إنوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١، ج٢)	إنوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غريال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حطر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٢-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (ج١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (المصراع) (ج٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العناني
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوير وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تانبوش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتاين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجوبية	ريتشارد أيجانسى وأوسكار زاريت	حمدي الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حائيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: بريدنا	جيف كولينز وبيل ماييلين	حمدي الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روينسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: رومو	ديف روينسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأنتريجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمه عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	مدونة جوستينيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينييان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	إدوارد جرانتيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مذكور
٧٠٦-	الشجرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراغة من؟	دونالد مالكولم ريد	رعوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشبائى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (ج١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستاني
٧١٣-	الإلياذة (ج٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستاني
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (ج٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين في الإسلام (مج ١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لييب عبد الفنى
٧٢٢-	الصفحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافي أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إقرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبد الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غيرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأشئ بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبيان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كويرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج ٢)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	بشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الثورة الملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	بشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوارا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج ١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريشور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	ياشراف: أحمد عثمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عارورى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا مارى شيمل	عبد السلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسباني خلال القرن العشرين	أندرو ب. لبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكي خاربييل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	پاتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولة	بروس روبنز	عاطف عبد الحميد

٧٥٩-	النثر الأردى	مولاى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢-	المسلم عبداً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥-	ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو و خليل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩-	أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار و ضياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	هبرى التهامى
٧٧١-	السيد سيجوننو سوميرا	ريكارديو جویرالديس	هبرى التهامى
٧٧٢-	بريخت ما بعد الحداثه	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣-	دائرة المعارف النولية (ج٢)	جون فيزر و پول ستيرجز	ياشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤-	الديمقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥-	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامہ (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	جيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨-	صفوة المديح	مولانا محمد أحمد و رضا القادري	حازم محفوظ
٧٧٩-	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم وسارة ناكاهاشى
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٢٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارفن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣-	العولة والرعاية الإنسانية	فيك جورج و پول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤-	الإساءة للطفل	ديفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦-	المنذبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩-	الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبي
٧٩٠-	الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١-	الطور ومعامل الطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢-	براسات حول القصص القصيرة إمريس و محفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	جون جريفيثس	عرف و صفى
٧٩٤-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسباني (ج١)	نخبة	على عبد الرؤوف البعبى
٧٩٦-	أفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

طلعت شاهين	نخبة	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	٧٩٧-
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلرد ودافيد جيلرد	الإرشاد النفسى للأطفال	٧٩٨-
عبد الحميد فهمى الجمال	آن تيلر	سلم السنوات	٧٩٩-
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماكارثى	قضايا فى علم اللغة التطبيقى	٨٠٠-
بإشراف: محسن يوسف	تقرير نولى	نحو مستقبل أفضل	٨٠١-
شرين محمود الرفاعى	ماريا سوليداد	مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	٨٠٢-
عزة الخميسى	توماس باترسون	التغيير والتنمية فى القرن العشرين	٨٠٣-
درويش الحلوجى	دانييل هيرفيه-ليجيه وچان بول ويلام	سوسيولوجيا الدين	٨٠٤-
طاهر البربرى	كانو إيشيجورو	من لا عزاء لهم (رواية)	٨٠٥-
محمود ماجد	ماجدة بركة	الطبقة العليا المصرية	٨٠٦-
خيرى دومة	ميريام كوك	يحي حقى: تشريح مفكر مصرى	٨٠٧-
أحمد محمود	ديفيد دابليو ليش	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	٨٠٨-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وچوزيف كرويسى	تاريخ الفلبسفة السياسية (ج١)	٨٠٩-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وچوزيف كرويسى	تاريخ الفلبسفة السياسية (ج٢)	٨١٠-
حسن النعيمى	جوزيف أ.شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	٨١١-
فريد الزاهى	ميشيل مافيزولى	تأمل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	٨١٢-
نورا أمين	أنى إرنو	لم أخرج من ليلى (رواية)	٨١٣-
أمال الروبى	ناقتال لويس	الحياة اليومية فى مصر الرومانية	٨١٤-
مصطفى لييب عبدالغنى	ه. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين (مج٢)	٨١٥-
بدر الدين عرودى	شيلپ روجيه	العدو الأمريكى	٨١٦-
محمد لطفى جمعة	أفلاطون	مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	٨١٧-
ناصر أحمد وباتسى جمال الدين	أندريه ريمون	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (ج١)	٨١٨-
ناصر أحمد وباتسى جمال الدين	أندريه ريمون	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (ج٢)	٨١٩-
طانيوس أفندى	وليم شكسبير	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	٨٢٠-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامى	هفت بيكر (شعر)	٨٢١-
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	فن الرباعى (شعر)	٨٢٢-
أحمد شافعى	نخبة	وجه أمريكا الأسود (شعر)	٨٢٣-
ربيع مفتاح	دافيد برتش	لغة الدراما	٨٢٤-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	عصر النهضة فى إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٥-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	عصر النهضة فى إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٦-
محمد على فرج	بونالد پ.كول وثريا تركى	أهل مطروح: البدو والمستوطنون والفنن يفسون المطلات	٨٢٧-
رمسيس شحاتة	ألبرت أينشتين	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	٨٢٨-
مجدى عبد الحافظ	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مناظرة حول الإسلام والعلم	٨٢٩-
محمد علاء الدين منصور	حسن كريم بور	رق العشق	٨٣٠-
محمد النادى وعطية عاشور	ألبرت أينشتين وليوپولد إنفلد	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	٨٣١-
حسن النعيمى	جوزيف أ.شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادى (ج٢)	٨٣٢-
محسن الدمرداش	فرنر شميدرس	الفلسفة الألمانية	٨٣٣-
محمد علاء الدين منصور	نبيح الله صفا	كنز الشعر	٨٣٤-

علاء عزمى	بيتر أوربان	٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور
ممنوح البستاوى	مرثيدس غارثيا	٨٣٦- بين الإسلام والغرب
على فهمى عبدالسلام	ناتاليا فيكو	٨٣٧- عناكب فى المصيدة
ابنى صبرى	نعوم تشومسكى	٨٣٨- فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى
جمال الجزيرى	ستيوارت سين ويورين فان لون	٨٣٩- أقدم لك: النظرية النقدية
فوزية حسن	جوتنهولد ليسينج	٨٤٠- الخواتم الثلاثة
محمد مصطفى بدوى	وليم شكسبير	٨٤١- هملت: أمير الدانمارك
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	٨٤٢- منظومة مصيبت نامه (مج ٢)
محمد علاء الدين منصور	نخبة	٨٤٣- من روائع القصيد الفارسي
سمير كريم	كريمة كريم	٨٤٤- دراسات فى الفقر والعولة
طلعت الشايب	نيكولاس جويات	٨٤٥- غياب السلام
عادل نجيب بشرى	ألفريد أدلر	٨٤٦- الطبيعة البشرية
أحمد محمود	مايكل ألبرت	٨٤٧- الحياة بعد الرأسعالية
عبد الهادى أبو ريذة	يوليوس فلهاوزن	٨٤٨- تاريخ النولة العربية (ميراث الترجمة)
بدر توفيق	وليم شكسبير	٨٤٩- سونيئات شكسبير
جابر عصفور	مقالات مختارة	٨٥٠- الخيال، الأسلوب، الحداثه
يوسف مراد	كلود برنار	٨٥١- الطب التجريبي (ميراث الترجمة)
مصطفى إبراهيم فهمى	ريتشارد دوكنز	٨٥٢- العلم والحقيقة
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالدونادو	٨٥٣- العارة فى الأندلس: عارة الفن والحسن (مج ١)
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالدونادو	٨٥٤- العارة فى الأندلس: عارة الفن والحسن (مج ٢)
محمد أحمد حمد	جيرارد ستييم	٨٥٥- فهم الاستعارة فى الأدب
عائشة سويلم	فرانثيسكو ماركيث يانو بيانويا	٨٥٦- القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى
كامل عويد العامرى	أندريه برينتون	٨٥٧- نادجا (رواية)
بيومى قنديل	ثيو هرمانز	٨٥٨- جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية
مصطفى ماهر	إيف شيمل	٨٥٩- السياسة فى الشرق القديم
عادل صبحى تكلا	فان بيلن	٨٦٠- مصر وأوروبا
محمد الخولى	چين سميث	٨٦١- الإسلام والمسلمون فى أمريكا
محسن الدمرداش	أرتور شنييتسلر	٨٦٢- بيفاء الكاكابو
محمد علاء الدين منصور	على أكبر دلفى	٨٦٣- لقاء بالشعراء
عبد الرحيم الرفاعى	دورين إنجرامز	٨٦٤- أوراق فلسطينية
شوقى جلال	تيرى إيجلنتون	٨٦٥- فكرة الثقافة
محمد علاء الدين منصور	مجموعة من المؤلفين	٨٦٦- رسائل خمس فى الأفاق والأنفس
صبرى محمد حسن	ديفيد مايلو	٨٦٧- المهمة الاستوانية (رواية)
محمد علاء الدين منصور	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	٨٦٨- الشعر الفارسي المعاصر
شوقى جلال	روبن دونبار وآخرون	٨٦٩- تطور الثقافة
حمادة إبراهيم	نخبة	٨٧٠- عشر مسرحيات (ج ١)
حمادة إبراهيم	نخبة	٨٧١- عشر مسرحيات (ج ٢)
محسن فرجاني	لاوتسو	٨٧٢- كتاب الطاو

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج ١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج ٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات في الموسيقى الشرقية (ج ١)	هنري جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتينثيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال في شعراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ١)	تشارلز نوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال في شعراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ٢)	تشارلز نوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستغيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغاني شيراز (ج ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغاني شيراز (ج ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوذ	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عرويكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	نوجلاس روينسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخدومعلى فراغى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتوود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادي الفوضى (رواية)	فريدريش نورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين قزاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدي
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج ١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج ٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار في القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	آرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جبرو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوى	خالد حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولة	چووست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. ليندس	مى رفعت سلطان

غبار النجوم	جون جريين	عزت عامر	٩١١-
ترجعت يحيى حقي (ج١) (سرك الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقي	٩١٢-
ترجعت يحيى حقي (ج٢) (سرك الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقي	٩١٣-
ترجعت يحيى حقي (ج٣) (سرك الترجمة)	ديزموند ستيوارت	يحيى حقي	٩١٤-
المرأة في أثينا: الواقع والقانون	روجر جست	منيرة كروان	٩١٥-
الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندي وعبدالعظيم حماد	٩١٦-
موسوعة كمبيردج (ج١)	نخبة	إشراف: أحمد عتمان	٩١٧-
موسوعة كمبيردج (ج٢)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى	٩١٨-
موسوعة كمبيردج (ج٣)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور	٩١٩-
خليل جبران: حياته وعمله	جين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل	٩٢٠-
لله الأمر (رواية)	أحمدو كوروما	ثرثا إقبال	٩٢١-
الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى	ميكيل دي إيبالدا	جمال عبد الرحمن	٩٢٢-
ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب	٩٢٣-
حتشيسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دي روش نويلكور	فاطمة عبد الله	٩٢٤-
رمسيس الثاني: فرعون المعجزات	كريستيان دي روش نويلكور	فاطمة عبد الله	٩٢٥-
ترحل في صحراء الجزيرة العربية (ج١، ج٢)	تشارلز دوتي	صبري محمد حسن	٩٢٦-
ترحل في صحراء الجزيرة العربية (ج٢، ج٣)	تشارلز دوتي	صبري محمد حسن	٩٢٧-
سجون الضوء	كيتي فرجسون	عزت عامر	٩٢٨-
نشأة الإنسان (مج١)	تشارلز داروين	مجدى المليجي	٩٢٩-
نشأة الإنسان (مج٢)	تشارلز داروين	مجدى المليجي	٩٣٠-
نشأة الإنسان (مج٣)	تشارلز داروين	مجدى المليجي	٩٣١-
خلق السحر في نطق الشعر (سرك الترجمة)	رشيد الدين العمري	إبراهيم الشواربي	٩٣٢-
اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	علي منوفي	٩٣٣-
محنة الكاتب الأفريقي	تشارلز لارسون	طلعت الشايب	٩٣٤-
تاريخ الفن الألماني	فولكر جيبهارت	علا عادل	٩٣٥-
بيولوجيا الجحيم	إد ريجيس	أحمد فوزي عبد الحميد	٩٣٦-
هيا نحكي (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم	٩٣٧-
الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيجر	بيير بورديو	سعيد العليبي	٩٣٨-
سجن العقل	ستيفن چونسون	أحمد مستجير	٩٣٩-
اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء علي زين العابدين	٩٤٠-
الجماليات لم يولدن بعد	آي كويني أرماء	صبري محمد حسن	٩٤١-
القرن الجديد	إريك هويسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح	٩٤٢-
لقاء في الظلام	مختارات من القصص الأفريقية	محمد عبد الواحد	٩٤٣-
الكونتراباص	پاتريك زوسكيند	سمير جريس	٩٤٤-
أحلام يقظة جوال منفرد (مراث الترجمة)	جان چاك روسو	ثرثا توفيق	٩٤٥-
الزار ومظاهره المسرحية في إثيوبيا	ميشيل ليريس	محمد مهدي قناري	٩٤٦-
ما وراء المعنى والحقيقة	بوتراند راسل	محمد قدرى عمارة	٩٤٧-
أفريقيا منذ عام ١٨٠٠	رونالد أوليفر وأنتوني أتمود	فريد چورچ بودي	٩٤٨-
مقبرة الصدا	أندريه فيش	نافع معلا	٩٤٩-

منى طلحة وأنور مغيث	چاك بيريدا	٩٥٠- فى علم الكتابة
عماد حسن بكر	فريدريش دورينمات	٩٥١- الاتهام (رواية)
تعيمة عبد الجواد	أميرى بركة	٩٥٢- العبد ومسرحيات أخرى
على عبد الرعوف البمبى	نخبة من الشعراء	٩٥٣- مختارات من الشعر الإسباني (ج٢)
عنان الشهاوى	فرد لوسون	٩٥٤- الأصول الاجتماعية للسياسة الترسية فى عهد محمد على
ماجدة أباطة	سيلفيا شيفولو	٩٥٥- الطب والأطباء
سمير حنا صادق	أ. ك. ديونى	٩٥٦- نعم، ليست لدينا نيوترونات
ربيع وهبة	تشارلز تلى	٩٥٧- المركبات الاجتماعية: (١٧٦٨-٢٠٠٤)
صلاح حزين	مريام كوك	٩٥٨- أصوات على هامش الحرب
وسام محمد جزر	ميغيل أنخيل بونيس	٩٥٩- الموريسكيون فى الفكر التاريخي
هدى كشروذ	الأمير عثمان إبراهيم وكارولين وعلى كورخان	٩٦٠- محمد على الكبير
محمد صقر خفاجة	مختارات من الأدب اليوناني	٩٦١- شعر الرعاة (ميراث الترجمة)
عادل مصطفى	وليام جيمس إيرل	٩٦٢- مدخل إلى الفلسفة
فاطمة سيد عبد المجيد	حسن رضا خان الهندي	٩٦٣- منتخبات شعرية
هبة روف وتامر عبد الوهاب	كيمبرلى بليكر	٩٦٤- أصول التطرف
إكرام يوسف	آنا روير	٩٦٥- روح مصر القديمة
حسين مجيب المصرى	محمد إقبال	٩٦٦- ما وراء الطبيعة فى إيران (ميراث الترجمة)
هشام المالكي	سون تزي	٩٦٧- فن الحرب (مج ١)
كمال الدين حسين	ج. كوير	٩٦٨- عالم الخوارق
مجدى عبد الحافظ	كارل بوير وجون كوندري	٩٦٩- التليفزيون خطر على الديمقراطية
أحمد الشيمي	نخبة	٩٧٠- ريم فى حلب ذات يوم وقصص أخرى
حسين مجيب المصرى	پاول هوزن	٩٧١- الأدب الفارسي القديم (ميراث الترجمة)
عماد البقداوى	مقالات مختارة	٩٧٢- الإسهامات الإيطالية فى عهد محمد على باشا

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٠٠٥ / ٢٠١٤٩



الإسهامات الإيطالية في بحوث مصر عند محمد علي باشا

لا شك في أن الدور الذي لعبه الإيطاليون في تحديد العمل الإصلاحي للبasha
المصري - منذ اللحظات الأولى لتعزيز سلطة محمد علي - يعتبر دورا بارزا. وإذا
أردنا الحديث عن دور الرحالة الإيطاليين وعلماء الآثار أو الباحثين عن الآثار
والباحثين بصفة عامة في مصر منذ الأيام الأولى للقرن التاسع عشر قد لا يكفينا
كتاب بأكمله.

وهذا الكتاب عبارة عن عدد من المقالات التي تتناول بعض الإسهامات
الإيطالية في مصر في عهد محمد علي.

الإسهامات الإيطالية في دراسة ياش

Price: 14.00 L.E.

